

شیخ أبوالعباس
أحمد بن خالد الناصري

كتاب
الاستفصال

لأخبار دولة المغرب الأقصى

الدولة السعدية

الجزء الخامس

تحقيقه وتعليقه

الأساتذة

جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب

الدار البيضاء

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الكتاب

ساحة المسجد الحمدي

الدار البيضاء

1418هـ/1997م

رقم الإيداع القاتوفي والمرولي

1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدولة السعدية

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليائهم وتحقيق نسبهم

اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون: إن أصل سلفهم من بنيع النخل، من أرض الحجاز، وأنهم أشراف من ولد محمد: النفس الزكية رضي الله عنه، وإليه كانوا يرفعون نسبهم ويقولون في أول ملوكهم القائم بأمر الله مثلاً: هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم ابن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فهم بتو عم السادة العلوبيين أشراف سجلماة، يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم المذكور في النسب.

قالوا: والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز إلى المغرب، أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرة، فقيل لهم: لو أتيتم ب الشريف إلى بلادكم كما أتى أهل سجلماة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم، وقد كان أهل سجلماة جاؤوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم من أرض ينبع في قصة ظريفة تأتي في محلها إن شاء الله، قالوا: فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد، مضاهاة لأهل سجلماة، فعادت عليهم بركته.

واعلم أن هذا النسب الشريف المسرود آنفًا فيه - كما قال اليفرني - بتر

بين قاسم ومحمد النفس الزكية فإنه لا يعرف في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم، وإنما هو قاسم بن عبد الله الأشتر بن محمد النفس الزكية، ولعله سقط عن ذهول من الناسخ. وقيل الصواب إنه قاسم بن حسن بن محمد بن عبد الله الأشتر بن محمد النفس الزكية.

واعلم أيضاً أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريرياتهم ومؤلفاتهم الموضعية في أخبارهم. ومن الناس من يطعن في ذلك، ونقله بعضهم عن الشيخ أبي العباس المقربي صاحب «فتح الطيب» وأنه صحيح أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية، ظهر رسول الله ﷺ، وهذا التقلل ضعيف لأن الشيخ المقربي صرخ في فتح الطيب بشرف هؤلاء السادة في غير موضع وهو من آخر ما ألف.

ومن طعن في نسبهم المولى محمد (فتحا) بن الشري夫 السجلماسي أول ملوك السادة العلويين، صرخ بذلك في بعض الرسائل التي كانت تدور بينه وبين الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها: «وقد اعتمدنا في ذلك، يعني في عدم شرفهم، على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والتفكير فما وجدوكم إلا من بني سعد بن بكر» اهـ.

ويحكى شائعاً عن الفقيه الورع المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي - وكان من أهل الصلاح والدين - أنه كان ذات يوم جالساً مع المنصور السعدي في بعض قصوره من حضرة مراكش، وهما مجتمعان على خوان طعام، فقال المنصور للشيخ أبي محمد: «أين اجتمعنا يا فقيه؟» يعني في النسب، فقال أبو محمد: «على هذا الخوان» ويروى: «في هذا المشور» فأسرها المنصور في نفسه ولم يبدها له إلى أن احتفال عليه بما كان السبب في إتلاف مهمته، فكان المنصور بعد ذلك يدعى الشيخ أبي محمد فيجلسه على الرخام في زمان كلب البرد وهيجانه من غير حائل، وقد اتخذ المنصور، فيما زعموا، لبدة صوف داخل سراويله لا يحسن معها بالبرد، فإذا

رأه أبو محمد جالساً معه تجلد واستحببي أن يقوم عن السلطان ويتركه، ويستمران على المذاكرة في مسائل العلم، فعل ذلك به أياماً حتى سكتته علة البرد فلم يزل أبو محمد يشتكي من ذلك إلى أن قضت عليه. وأنكر هذا صاحب «نشر المثاني» ورده بتأخر وفاة ابن طاهر عن وفاة المنصور بأكثر من ثلاثين سنة.

وجواب أبي محمد هذا من النوع البياني المسمى: «بتلقي المخاطر بغیر ما يتربّب» على ما هو معروف في كتب الفن، وإنما سأله المنصور لما مر من أن السعديين يزعمون أن جدهم قدم من ينبع أيضاً كما قدم جد العلوبيين، والعلوبيون ينكرون ذلك كل الإنكار ويقولون: إنهم لم يجتمعوا معهم في قبيل ولا دبر.

قال اليفريني: «لكن صحق لنا غير واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الإنكار، وأن المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خط الإمام ابن عرفة وشيخه ابن عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمانت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحّة نسبهم بعد ذلك ويزجر من يطعن فيه أهـ.

قلت: وهذا هو الصواب إذ مستند من يطعن في نسبهم عدم وضوّه، ولا يلزم من عدم وضوّه عدم ثبوته في نفس الأمر، وإنما فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على أحوال عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والأجداد من لدن مبدئه إلى منتهائه مع طول المدة وتناضح الأجيال، فالتنقير عن ذلك عسير جداً، ولذا وكل الشارع أمر الأنساب إلى أهلها، وجعلهم مصدقين فيها، إذ لا تعرف غالباً إلا من قبلهم. فهؤلاء السادة الزيadianيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ملوكاً ولا بلغوا من الشهرة إلى حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لأحد أن يدفعهم عنه إلا بقاطع، ولا قاطع كما علمت. نعم الحكاية المسوقة في سبب دخولهم إلى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الأمور.

وأما تسميتهم بالسعديين فقد قال اليفريني: «إن هذه النسبة لم تكون لهم

في القديم، ولا وقعت بها تحليتهم في ظهائرهم ولا في سجلاتهم وصدر رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ أحد على مواجهتهم به، لأن إثما يصفهم بذلك من يقدح في نسبهم ويطعن في شرفهم ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر كما قلنا، وكثير من العامة وأخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم إثما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له» اهـ.

قلت: وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف، والله تعالى يلهمنا الصواب بمنته وفضله.

الخبر عن دولة الأمير أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وبيعته والسبب فيها

قال ابن القاضي في «درة السلوك»: «لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة إلى أن نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله فنشأ على عفاف وصلاح، وحج البيت الحرام، وكان مجاب الدعوة، ولقي جماعة من العلماء والأعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين، أخبرني بعض الفضلاء أنه لقي رجلاً صالحًا بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه، وكان قد رأى رؤيا وهي: أن أسددين خرجا من إحليله فتبعهما الناس إلى أن دخلوا صومعة ووقف هو ببابها، فعبرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن، وإنهما يملكان الناس. ثم رجع إلى المغرب وهو معلن بالدعوة، فيقول في كل محفل: إن ولديه سيمملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه، ثقة بخير الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة، فما زال إلى أن قام ستة عشرة وتسعمائة» اهـ.

وقال صاحب «زهرة الشماريخ» ما صورته: «إن سبب قيام أبي عبد الله القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو، واستحكمت شوكة البرتغال، وبقي المسلمين في أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الإسلام، لأن بني وطاس فشلت ريحهم يومئذ

في بلاد السوس، وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب، ولم يكن لهم منه بالسوس إلا الاسم، مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطجة وأصيلاً وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط، فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الأحوال وكثرة الأهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الأقاوي نسبة إلى آفة من بلاد السوس، فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباصرتهم بالقتال ومرارتهم، وطلبوه منه أن يعقدوا له البيعة وتجمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك، وقال: «إن رجالاً من الأشراف بتاجمدارات^(١) من درعة يقولون: إنه سيكون له ولولديه شأن، فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنساب بكم وألق بمقصودكم» فبعثوا إليه وكان من أمره ما كان.

وقال اليفريتي: «رأيت بخط الفقيه العلامة أبي زيد عبد الرحمن ابن شيخ الجماعة أبي محمد عبد القادر الفاسي ما صورته: ذكر لنا الوالد عن سيدى أحمد بن علي السوسي البوسعيدي أن ابتداء دولة الشرفاء بالسوس أن بعض السادة وهو سيدى يركات توسط في فداء بعض الأسرى، وأراد أن يكون مع النصارى اتفاق على أن لا يحبسو أسيراً، فكلمهم في ذلك، فقالوا له: حتى يكون لكم أمير، فإن ملككم قد ذهب وأضمحل. قال: ثم إن بعض أهل السوس ساروا إلى قبيلة جسمية^(٢) يكتالون الطعام فأخذتهم جسمية وأكلوا متاعهم ومضاعتهم، فذهبوا إلى شيخهم، وكان ذا حزم وتدبير، فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يق لهم شيء فلما رجعوا إلى بلادهم قالوا: إن هذا الشيخ الرئيس هو الذي يلقي أن نبايعه، فاجتمعوا وأنوه وطلبوه منه أن يرأسهم فامتنع، واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الأمر للدين، ودلهم على رجل شريف كان مؤذناً بدرعة فقال لهم: إن كان ولا بد، فاقتضوا الشريف الفلاني

(١) تأكملت من أعمال فزواتة بوادي درعة قاعدتها الآن هي أمزو وتحتوي على زاكورة وزاوية البركة وضرت وغيرها.

(٢) قبيلة من ناحية أكادير من جهة الجنوب على شاطئ البحر.

فإنه يذكر أن ولديه يملكان «المغرب» فقصدوه، وحملوه إلى بلادهم وبايده وفروضاً له من المؤنة ما يكفيه وأولاده، ويقي هنالك في نحر العدو.

ويروى أنه لما بايده أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لا يقوم إلا بالمال، احتال بأن أمر أهل السوس أن يأتيه ببيضة لكل كانون، فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لا تمحص، لأن الناس استهونوا أمر البيضة. فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتي بدلها بدرهم ففعلوا، فاجتمع له من ذلك مال وافر، فأصلح به شأنه وقوى به جيشه، وكانت تلك أول ناتبة فرضت في دولة السعديين والله أعلم.

وقال ابن القاضي: «إن الأمير أبي عبد الله القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك ببلده آفة وذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما مر فاوذه في شأنه، ثم عاد إلى مقره من درعة، ثم في سنة ست عشرة بعدها بعث إليه فقهاء الصامدة وشيوخ القبائل، ودعوه إلى توليه عليهم وتسليم الأمر إليه، فلبى دعوتهم، وجاء إلى قرية يقال لها تيدسي^(١) قرب تارودانت. فبايده الناس بها، وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأهواه على الجهاد مجتمعة» اهـ.

وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقاً غريباً، ولا يخلو عن فائدة، فلنذكر منه ما يقرب إلى الصحة، ويكون كالشرح لما مضى أو يأتي من أخبار هذه الدولة، قال:

«لما كان السلطان أبو عبد الله الوطاسي، يعني البرتغالي، أميراً بفاس ظهر في درعة رجل شريف يعني أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، قال: وكان هذا

(١) اسم لموضعين أحدهما بدرعة قرب تاكمدارت المتقدمة الذكر التي منها أصل السعديين ولعلها كانت مقراً لهم فيما سبق الملك كما يفهم عن رسالة وجهها محمد الشيخ بن زيدان إلى مولاي محمد بن الشريف السجلماسي العلوي تضمنت ما نصه: «وأننا من تيدسي أحد القصور بوادي درعة الخ» وقريها من تاكمدارت يؤكد ذلك وتيدسي الأخرى ترجم بالقطر السوسي قرب تارودانت ولا زال الموضعان يعرفان بــ بهذا الاسم يومنا هذا وبإله الترفيق اهـ.

الشريف من قراء القرآن، ومن أهل العلم والدين والفقير والخمول ولم يكن من بيت الرياسة، وكان له اطلاع على تواريخت قطره وعواوند جيله وأخلاقهم وطائعهم، ورأى ما وصل إليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لا يصعب عليه تناوله، فأعمل في ذلك فكره ومكره، وصار يحضر الناس على القيام بأمرور دينهم والامتعاض لها، وكان قد بعث ثلاثة من أولاده، وهم: عبد الكبير، وأحمد، ومحمد إلى الحجاز بقصد الحج، وكانت لهم فصاحة ورجاحة ومعرفة بإدارة الكلام، فظهر لهم ناموس في تلك البلاد، وأحبهم الناس لا سيما أحمد و محمد، ولما رجعوا من مكة أقاما بفاس، وهي يومئذ دار الملك، وترتب أحمد في مجلس القرويين لتدريس العلم، فاكتسب بذلك جاهًا، وتقرب محمد إلى السلطان حتى صار مؤدياً لأولاده، ويقيا على ذلك مدة، وهما في ذلك كله يتحببان إلى الناس ويسعيان في مذاهب الشهرة، والبرتغال في أثناء ذلك ملتح على التغور واستلابها من أهلها، ولم تكن تقوم للMuslimين معه راية، فدعوا ذلك الآخرين أحمد و محمد إلى أن ندب السلطان، وهو أبو عبد الله البرتغالي، إلى المناداة في الناس بالجهاد إظهاراً للنصح، وهما يسران حسواناً في ارتفاع، وقد صدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاغتر السلطان بنصائحهما وقال لهما: «لا أحد أولى منكم بالقيام بهذه الوظيفة» فأجاباه إلى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة، فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس في نواحي المغرب إلى الجهاد ويحضان الناس عليه، ويخطبان بذلك في المحافل، ويعظان وتتبعا الحواضر والبواقي، وتقريرا الأحياء والمدارس والقرى، إلى أن وصلا إلى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعوا بهما وذاكراهما في أمرهما، وأنهما قد أشرفَا على المراد، وكادا يلجان الملك من بابه، لأن أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم، فحينئذ أخذ الأب وأولاده في نشر معايب الدولة للعامة، ويقررون ذلك بفصاحتهم ووجاهتهم، وما أوتوه من القبول، وغضدهم على ذلك شيخ البلد وتبعدهم الناس، واجتمعوا عليهم من كل جهة، وصار حالهم ينمو شيئاً فشيئاً إلى أن استبدوا على السلطان ولم يرجعوا إليه بعد».

وقال في «نشر المثاني»: «كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم بملك المغرب أن الحرب نشب بين النصارى وأهل السوس ودامت، وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد. فاتفق أن خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الأعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد، فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب، وأقبل عليهما لأجل قيامهما بالجهاد، وأعطاهما عدة وخيوتاً كثيرة، فرجعا إلى جهادهما، ثم عادا إليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع في النصارى ونكبات ظهور، وصارا يكتبان إلى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة، فحيثند خلعا طاعة الوطاسي ودعوا لأنفسهما» اهـ.

قال منويل: وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الأقصى ودرعة وأعمالهما، وصاروا يرفعون إليهم زكواتهم وأعشارهم، ثم بايعواهم ونهض هؤلاء الأشراف إلى تارودانت فاستولوا عليها وحصتها، ثم زحفوا إلى آكادير لحرب البرتغال فقاتلوا مدة ولم يفتح لهم، وكانتوا يشيرون أنهم لا قصد لهم إلا في الجهاد ومحاربة عدو الدين، ومن هو سلم له من المسلمين إذ لم يتأت لهم إذ ذاك التصریح بخلع السلطان.

وفي سنة الثنتين وعشرين وتسعمائة تجاوزوا جبل درن إلى بلاد حاجة والشياطنة، ثم دخلوا بسيطة عبدة، وكان باسفى رجل تنصر، اسمه يحيى بن تاقوت^(١)، احتمى بالبرتغال من السلطان، وكان معروفاً بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتغال منويل فولاه على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفاً له. ولما زحف الأشراف إلى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديدتان، كان الظهور فيهما ليحيى، لكن أبو العباس أحمد الأعرج تدارك أمره فوراً وجمع عسكراً آخر وخطبهم ووعظهم وزحف إلى يحيى المذكور فقضه وفض نصاراه إلى أن انجرروا باسفى وأغلقوه عليهم وأتيح لآحمد عليهم ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلث تأني له أن يتناول ملك المغرب.

(١) صوابه تعقدت كما رأيته مكتوباً في إحدى رسائله المطبوعة بأصول التاريخ المغربي.

ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك ، وظهر له أن ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه، وحقق له ذلك ما فعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لأبيهم من نفوذ الكلمة بالسوس .

وكان في هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشتوف وكان مستبداً على الوطاسي ويبذل له شيئاً تافهاً يتقيه به ، ولما مر به هؤلاء الأشراف في أول أمرهم داعين إلى الجهاد أحسن إليهم غاية ، ولما أوقعوا وقعة آسفى أبرموا أمرهم مع ناصر أبي شتنوف وأظهروا له المحبة والموالاة ، وطلبوا منه أن يظاهم على جهاد العدو وأن يكونوا يداً واحدة وجندًا واحداً عليه فأسففهم ، وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن إليهم ، وبعد أيام خرجوا به للصيد فسموه في خيز صغير يسمى : القرشلات فهلك للحرين ، وصفا للأشراف مراكش وأعمالها إذا كان أهلها قد أحبوهم وشرهوا إليهم ، ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الأمير واستخلف أخيه محمدًا الشيخ .

ولما اتصل الخبر بالوطاسي وأنهم استولوا على مراكش . أفلقه ذلك ، ومن مكر أحمد أنه بعث إليه يقول : ما أنا إلا واحد من عماليك ، وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أبدله لك مضاعفاً ، ومع ذلك لم يطمئن إليه . ثم هلك الوطاسي وولي مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب ، فصارت فاس للوطاسي ومراكش وأعمالها لأبي العباس الأعرج ، وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ ، وأما عبد الكبير فإنه كان استشهد قبل هذا في حرب البرتغال قرب آسفى .

ولما رأى أبو العباس الوطاسي استفحال أمر الأشراف وأنهم أمسكوا عنه ما وعدوا بآدائه لأبيه عزم على حربهم ، فجمع عسكراً عظيماً وزحف إلى مراكش فتحصن أحمد الأعرج بها وقدم عليه أخوه ظاهره على عدوه ، وفي أثناء حصار الوطاسي لمراكش اتصل به الخبر بأن أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض إخوته فرجع إلى فاس وقبض على أخيه الثائر عليه ثم كر إلى

مراكش بعسكر أعظم من الأول، وفي هذه المرة برز إليه الأشراف خارج البلد، ثم تقدموا إليه فكان اللقاء على أبي عقبة من تادلا، ووقعت بينهم حرب هائلة لأن الوطاسيين كانوا يرون أن هذه الحرب هي الفيصل بينهم وبين عدوهم والأشراف كذلك. وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الأحمر سلطان الأندلس المخلوع وأبلى بلاء حسناً حتى قتل، وكان الظهور للأشراف ورجع الوطاسي مفلولاً إلى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه، وبعد هذه الواقعة استولى الأشراف على تافيلالت، وملكوا آكادير وأسفي وأزمور، لأن البرتغال كانوا قد تخلوا عنها، ثم عن قرب حدث بين الآخرين التفرا وحاول رجال دولتهم الوفاق بينهما فلم يتفقا، وكانت الكفة على أحمد، وفر ابنه زيدان الذي كان عضد أبيه في الحرب إلى تافيلالت فاستولى عليها، واقتطعها عن عمّه محمد الشيخ. ثم زحف الشيخ إلى فاس فحاصرها إلى أن قبض على الوطاسيين وغربهم إلى درعة «أهـ كلام منويل». ثم نرجع إلى سياقة الخبر عن هذه الدولة حسبما عند اليفرني وغيره.

أخبار الأمير أبي عبد الله القائم في الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه

لما استتب أمر الأمير أبي عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس إلى مقاومة البرتغال وجهاده، ونفيه عن ثغور المغرب وببلاده، وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فصمدوا معه إلى النصارى وناوشوهم الحرب، فأباح الله للأمير أبي عبد الله الفتح والنصر، ونشر أثلاء الكفار بمخالب الظفر، وأخرج حية الغي من جحرها، وأعاد كلمة الإسلام إلى مقرها، فلما رأى المسلمون ذلك تيمتوا بطلعته وتفاعلوا ببطائره الميمون ونقبيته، وزادهم ذلك محبة في جانبه وتعظيمًا في مكانته، ولما فصل من جهاده عاد إلى محله المذكور من تيدسي، فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هناك منافرة أدت إلى ارتحاله عنها وعوده إلى درعة، فلم يزل مقیماً

بها إلى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع إلى مكانه من تيدسي، واطمأنت به دارها وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها، والله غالب على أمره.

عقد الأمير أبي عبد الله القائم ولالية العهد لابنه أبي العباس الأعرج رحمهم الله تعالى

قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التي رأها الأمير أبو عبد الله القائم في شأن ولديه وأنهما يملكان المغرب. وفي معنى ذلك أيضاً ما يحكي شائعاً أن ولدي أبي عبد الله المذكور، وهو أبو العباس الأعرج وأبو عبد الله الشيخ كانوا يقرآن في مكتب، وهما صبيان، فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ، فأول ذلك مؤدبهما بأنهما سيكون لهما شأن. فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بأن أمر المغرب صائر إليهما، فلما قضى الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به في البلاد السوسية الدار، وطاب له بها المقام والقرار، ندب الناس إلى بيعة أكبر ولديه وهو الأمير أبي العباس أحمد المعروف بالأعرج فبايعوه، وكان ذلك مبدأ ظهور أمره على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

انتقال الأمير أبي عبد الله القائم إلى أفال من بلاد حاجة ووفاته بها رحمه الله

ثم إن أبي عبد الله القائم وفدى عليه أشياخ حاجة والشياطنة لما بلغتهم من حسن سيرته ونصرة لواه فشكوا إليه أمر البرتغال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم، وطلبوا منه أن ينتقل إليهم هو وولده ولي العهد المذكور، فأجابهم إلى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس إلى الموضع المعروف بأفال من بلاد حاجة، وترك ولده الأصغر أبي عبد الله الشيخ بالسوس يرتب

الأمور ويمهد المملكة، ويباكر العدو بالقتال ويرواحه واستمر الأمير أبو عبد الله القائم بمكانته من آفغان مسموع الكلمة متبع العقب إلى أن توفي به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ودفن هنالك بإزاره ضريح الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه إلى أن نقل إلى مراكنش بنقل الشيخ المذكور على ما يأتي إن شاء الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الأعرج ابن الأمير أبي عبد الله القائم رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبي العباس الأعرج فيما حفظه ابن القاضي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وسبعين بولادة العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر. ولما توفي أبوه في التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق وآتوه طاعتهم عن رضا منهم وإصفاق، فاستقام أمره وصرف عزمه إلى تمهيد البلاد واقتناه الأجناد، وتعبيبة الجيوش إلى الشغور، وشن الغارات على العدو في الأصال والبکور، في أحواز تيلمسن وأسفي وغيرهما. وكان النصارى قد خيموا بشاطئ البحر وعاثوا في تلك السواحل، فأجلهم عنها وظهر تلك البقاع من رجمهم، وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم وفي ذلك يقول البقاع مخلوف بن^(١) صالح يمدحه:

فلله هذا الهاشمي وفضله فلو لاه صالح الكفر أعظم صولة

(١) ابن علي بن صالح كما في «نيل الابتهاج» انظر ترجمته فيه وفي «الجذوة».

دخول السلطان أبي العباس الأعرج مراكش واستيلاؤه عليها

لما كان من إيقاع السلطان أبي العباس بن نصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه، بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره، وأهreu الناس إليه من كل جانب ودخلت في طاعتهسائر البلاد السوسية، فعند ذلك كاتبه أمراء هنّة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول في طاعته، فأجاب داعيهم وانتقل إلى مراكش، فدخلتها في حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها وكان من أمره ما ذكره.

نقل الشيخ الجزوئي رضي الله عنه من مدفنه بأفعال إلى مراكش والسبب في ذلك

قد تقدم لنا في أخبار عمرو السيف أنه كان في ابتداء أمره من أصحاب الشيخ الجزوئي هذا وأنه لما توفي الشيخ المذكور جعل جثته في تابوت وصار يستنصر به في حربه مدة من عشرين سنة أو نحوها، ثم دفن بعد ذلك بأفعال وتقدم لنا أن الأمير أبي عبد الله القائم لما توفي دفنه ابنه أبو العباس بإزاء هذا الشيخ. ثم لما ملك أبو العباس المذكور مراكش نقل الشيخ الجزوئي إليها، ونقل أباه معه فدفنه بقربه أيضاً.

واختلف في سبب ذلك فقيل: إن السلطان المذكور خاف أن يثور عليه أحد بذلك البلاد فيستخرج الشيخ من ملحده ويتنصر عليه به فنقله إلى مراكش ليأمن من ذلك، وقيل: إن الحامل له على نقله، أنه ذكر له أن تحته كنز فتعلل للنبش عنه بأنه قصد نقله إلى الحضرة تبركاً به والله أعلم، وكان ذلك كله في حدود الثلاثين وتسعمائة.

مجيء السلطان أبي عبد الله الوطاسي^(١) إلى مراكش وحصاره للسلطان الأعرج بها ثم إقلاعه عنها

لما استولى السلطان أبو العباس الأعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب قاس أبي عبد الله الوطاسي، المعروف بالبرتغالي، فأقبل في جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر، ويقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة، وزحف الوطاسي إلى الحضرة فنصب الأنفاس عليها ووالى الرمي عليها أيامًا، واشتد الأمر على الناس فكان من ذهابهم إلى الشيخ الغزواني وخروجه إلى باب الخميس قوله عند إصابة الرصاصية له أنها خاتمة حربهم ما قدمناه في أخبار الوطاسيين مستوفى. ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين إنما يكون في تادلا وأعمالها على ما مر. والله أعلم.

خبر آسفى والثغور

رأيت في توارييخ الفرنج أن البرتغال خرجوا من آسفى سنة ألف^(٢) وخمسمائة وثلاثين مسيحية، وهذا التاريخ يوافقه من سني الهجرة سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وهي وسط دولة السلطان أبي العباس. وزعم هذا المؤرخ

(١) الذي حاصر مراكش هو أبو العباس الوطاسي لأن أبوه أبي عبد الله مات قبل هذا التاريخ على ما عند المؤرخ كمور في تأليفه المعنون: «تارييخ استيلاء الشرفاء على المغرب».

(٢) قرر البرتغال إخلاء آسفى في السنة التي ذكر المؤلف ووقع خلاف بينهم في ذلك وبقي الأمر موقوفاً إلى سنة 1541 ميلادية الموافقة لعام 948 هـ قدم إخلاؤها حينئذ نهائياً لما انتفع المسلمون حصن فونتي عنوة ولما أخلت أمر السلطان أبو العباس الأعرج بحراستها وتحصينها راجع صفة 279 وصفحة 281 من كتاب تاريخ المغرب تأليف... كواساك دوشافريبير HISTOIRE DU MAROC PAR COISSAC DE CHAVREBIERE

أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم، ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث إلى الجديدة بعدما خربوها وأفسدوها وأوددوا فيها النار، قال: وبقيت أثنتي عشرة سنة وهي مخربة إلى أن أصلحها السلطان محمد الشيخ يعني السعدي الآتي ذكره.

وفي «النزة»: ما يقرب من هذا فإنه قال بعد ذكر إيقاع السلطان أبي العباس بنصارى السواحل ما نصه: «ويقال إن النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسيبي أخلوا ثغر آزمور ورباط آسفى وأصيلا من غير قتال». ثم نقل هذا الخبر في محل آخر عن ابن القاضي منسوباً إلى أبي عبد الله الشيخ وسيأتي ذكره في محله. وأظن أن الإخلاف كان متكرراً والله أعلم. وعلى كل حال، فذكر أصيلا هنا غير مناسب إذ هي يومئذ في جهة الوطاسيين وتخومهم فما بال نصاراها يخرجون فراراً منها خوفاً من السعديين وليسوا مجاوري لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم؟ ثم كان بعد هذا بين أبي العباس السعدي، وأبي العباس الوطاسي من الحرب والسلم ما تقدم بيانه، كوقعة آتماي ووقعة أبي عقبة وغيرهما مما لا فائدة في إعادته.

حدوث النفرة بين الأخوين السلطان أبي العباس الأعرج وزيره أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

كان السلطان أبو العباس رحمة الله من الشهامة والصرامة واستفحال الأمر بال محل الذي وصفناه قبل، وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سنًا منه وكان تحت طاعته واقفاً عند إشارته، وكان السلطان أبو العباس يستشيره في أموره، ويقاوشه في مهماته، ويستعين بتجددته في الزحوف والمعارك، ويستضيء برأيه في الحوادث الحوالك، وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأي حازماً شهماً، فكانت كلمتهما واحدة، وأمرهما

جميعاً، إلى أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأفسدو الحال إلى المصافة والمقاتلة، وانقسم الجندي حزبين، وانصرفت كل طائفة إلى متبوعها وصاحب أمرها، وتقاتلا مدة، وكانت جل القبائل السوسية صاغية إلى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسيروه من نجايته وكفایته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله إلى آفال حسبيما مر، فاستفحى أمره وغلب على أخيه أبي العباس فقبض عليه واستولى على ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه، ثم أودع أخيه وأولاده السجن ووسع عليهم في الجرایات والنفقات، وأصبح ملكاً مستقلاً بعد أن كان وزيراً، وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة.

وفي «نشر المثاني»: أن قبض الشيخ على أخيه أبي العباس الأعرج كان سنة إحدى وخمسين وتسعمائة والأول أصح. ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده في حكم الثلث إلى أن قتل^(١) يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبما يأتي إن شاء الله. وكانت دولته من يوم بوييع إلى أن قبض عليه أخوه ثلاثة وعشرين سنة، وكان من حجايته: محمد بن علي الأنكرياطي اليملاطي، ومحمد بن أبي زيد المتزاروي، ومن كتابه: سعيد بن علي الحامدي رحمهم الله.

أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس وما كان منه

قال صاحب «درة العجال»: اختلف الناس هل بوييع لزيدان بن الأعرج بعد وفاة أبيه أم لا وقال شارح «زهرة الشماريخ»: كان زيدان بن أبي العباس سجلماسة ويوييع له بها فلم يتم أمره ونفي إلى أن توفي سنة ستين وتسعمائة.

(١) بل بعد قتل أخيه ثلاثة أيام لما وصل الخبر بذلك لمراكش.

**الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي المعروف
بالشيخ ابن الأمير أبي عبد الله القائم بأمر الله**

كانت ولادة السلطان أبي عبد الله محمد الشیخ سنة ست وتسعين
وثمانمائة، ويلقب بالشيخ وبأمغار، وهو الشیيخ بالبربرية، ويلقب من الألقاب
السلطانية: بالمهدی. لقبه به غير واحد من أئمۃ عصره، ونشأ في عفاف
وصيانة، وعني بالعلم في صغره، وتعلق بأهدايه، فأخذ عن جماعة من
الشیوخ، وبلغ فيه إلى درجة الرسوخ.

**فتح حصن فونتي وأسفى
وآزمور وما قيل في ذلك**

لما استقل السلطان أبو عبد الله الشیوخ بأمر السوسن واجتمعت كلمته
عليه صرف عزمه إلى جهاد العدو الذي بشغوره وخصوصه، وأرهف خده
لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه، فانتصر عليهم واستأصل شأفهم وقطع من
تلك النواحي دابرهم وحسم آفthem.

قال ابن القاضي: «كان الشیوخ رحمة الله ماضي العزيمة قوي الشکيمة
عظيم الہیة، كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة عالية، فعد قواعد الملك
وأسس مبانيه، وأحیی مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة، وكان له
سعد ویخت عظيم في الجهاد وید بیضاء في الإسلام، ففتح حصن النصارى
بالسوس يعني: حصن فونتي، بعد أن أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة، وكان
منصوراً بالرعب حتى تركوا له أسفى وآزمور وأصيلاً من غير قتال ولا إیجاد
عليهم» اهـ. ونحوه في تاريخ البرتغاليين، زاد مؤرخهم أن ذلك كان بإذن
طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا في أخبار الأعرج والجواب عنه،
وكان فتح فونتي سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما في الترفة، وفتح آسفى سنة

ثمان وأربعين بعدها كما في المرأة، وعند البرتغاليين أن ذلك كان سنة ألف خمسمائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجري.

وفي «الدوحة»^(١): «لما أخلى النصارى آزمور تسارع إليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس، والشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي دفين تانسيفت قرب مراكش، فقعدوا بها يحرسونها حتى يأتي مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع إليها العدو فإذا به قد رجع واقتتحمها عليهم وأسرهم إلى أن افتكهم المسلمون».

قال منويل: «كان فداوهما بألفي ريال ومائتي ريال بالشنية فيهما»، ولما افتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج، وكان أسيراً عند امرأة نصرانية، ناولته كتاباً للمسلمين وقالت له: «هذه كتب كانت عندي ولا حاجة لي بها فخذها إليك»، فأخذها وخرج بها في قفة على رأسه فكان من جملتها: كتاب «تنبيه الأنام» الموضوع في الصلاة على النبي ﷺ فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور أهـ.

بناء حصن آكادير

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي «في كتابه: «المنتقى المقصور»: كانت للأمير السلطان أبي عبد الله الشيخ مأثر حسنة منها: أنه أول من اخترط مرسى آكادير بالسوس الأقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتي على مقرية من آكادير المذكور وكان له في اختطاطه رأى مصيبة وفراسة تامة» اهـ.

(١) صوابه: النزهة.

**استيلاء السلطان أبي عبد الله محمد
الشيخ على مراكش وتجديد البيعة له بها**

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالأمر قد أقام بالبلاد السوسية مثابراً على جهاد العدو إلى أن قلع عروق مفسدته منها، وكانت مراكش في هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول في دعوته، اتقأه للوطاسيين وارتباة في أمره إلى ماذا يؤول، واستمر الحال إلى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا إلى وادي نول. والله غالب على أمره.

**نهوض السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ
لحرببني وطاس واستيلاؤه على
مكناسة وما اتفق له في ذلك**

لما استولى السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره. وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره. فجمع الجموع وتقدم بها إلى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلداً ومصرأً مصرأً إلى أن أتى عليها أجمع وكان أول ما ملك منها مكناسة الزيتون فإنه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتل كبير.

حصار السلطان أبي عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الوانشريسي رحمة الله

كان السلطان أبو عبد الله الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصاراً طويلاً، ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له: لا سبيل لك إليها ولا يباعك أهلها إلا إذا بايتك ابن الوانشريسي يعنيون: الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي رحمة الله، فبعث إليه السلطان المذكور سرّاً ووعلده ومتاه، فقال له الشيخ عبد الواحد: «بيعة هذا السلطان، يعني أبي العباس الوطاسي، في رقبتي ولا يحل لي خلعها إلا لمحض شرعى، وهو غير موجود»، وزعم بعضهم أن السلطان المذكور كتب إلى أهل فاس يقول لهم: «إني إن دخلت فاساً صلحاً ملأتها عدلاً وإن دخلتها عنوة ملأتها قتلاً» فأجابه ابن الوانشريسي بأبيات أغفلت له فيها منها قوله:

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا خصك المولى بفضل ولا أولى
كذا في «الترهة». قلت: وهذا البيت من أبيات قديمة والوانشريسي إنما تمثل به لا غير. فقد ذكر العلامة^(١) ابن خلدون في أخباربني صالح بن منصور الحميري أصحاب قلعة نكور لأول الفتح أن عبيد الله المهدى العبيدي صاحب إفريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح منهم يدعوه إلى أمره وكتب له في أسفل كتابه:

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عنى أرى قتلכם عدلاً
وأدعلوا بسيفي قاهرًا لسيوفكم وأدخلها عنوا وأملأها قتلاً

فأجابه سعيد بن صالح بأبيات من نظم شاعره الطليطي نصها:

(١) أصل ما ذكره ابن خلدون في «مسالك الباري» فقد ذكر القصة والشعر عند كلامه على قلعة نكور.

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا
ولا علم الرحمن من قولك الفصل
وما أنت إلا جاهل ومنافق
تمثل للجهال في السنة المثلثي
وهمتنا العليا بدين محمد
وقد جعل الرحمن همتك السفلي
فللعل الشيخ كتب لأهل فاس بالبيتين الأولين والوانشريسي كان مطلعاً
على القضية فأجابه بجوابهما.

ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد على الوانشريسي ودس إلى جماعة من المتلصصة بأن يأخذوه ويأتوا به إلى محلته محبوساً من غير قتل، وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخاري بجامع القرويين بين العشرين وينقل عليه كلام ابن حجر في «فتح الباري» ويستوفيه لأنّه شرط المحبس، فقال له ابنه: «يا أبا إتي قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتوك بك في هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة». فقال له الشيخ: «أين وقفنا البارحة؟» قال: «على كتاب القدر!» قال: «فكيف نفر من القدر؟ إذا اذهبينا إلى المجلس، فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين، أحد أبواب المسجد المذكور، فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذوا بإحدى عصادي الباب فضرب أحدهم يده فقطعاها، وأجهز عليه الباقيون فقتلوه بباب المسجد المذكور في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة.

قال الشيخ المنجور في فهرسته: واشتهر عن الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المدعو بأبي شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد في المنام بعد مقتله فسأله عن حاله فأنشأ يقول:

لقد عمني رضوان ربي وفضله
ولم أر إلا الخير في وحشة القبر
وإني أسأل الإله بفضله
ليحفظني يوم الخروج إلى الحشر
 وما بعد ذلك من أمور عسيرة
كتشر الكتاب والمرور على الجسر

استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس وقبضه على الوطاسيين وتغريبيهم إلى مراكش

ثم إن السلطان أبا عبد الله الشيخ جد في حصار فاس وألح عليها بالقتال إلى أن ملكها واحتوى عليها.

قال في «الدوحة»: لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له: «اشتر مني فاساً بخمسة دينار» فقال له السلطان: «ما أنزل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تأت به الشريعة» فقال: «والله لا دخلتها هذه السنة» فبقي أشهراً والأمر لا يزداد إلا شدة، فقال ابن السلطان، وهو الأمير أبو محمد عبد القادر ابن الشيخ لأبيه: «يا أبا عبد القادر ما قال لك الشيخ أبو الرواين، فإنه رجل مبارك من أولياء الله تعالى». ولم يزل به حتى أذن له في الكلام معه، فكلمة الأمير عبد القادر، فقال له: «ادفع المال» فدفعه إليه، فقال له: «عند تمام السنة يقضى الله الحاجة وأمرني بأمره سبحانه». ثم إن الشيخ أبو الرواين فرق المال من يومه ولم يمسك منه لنفسه جبة، ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور في الظهور إلى أن انقضت السنة فدخل فاساً كما قال» اهـ.

وقال صاحب «الممتع»: والشيخ أبو الرواين هو كان أحد الأسباب في تمكן السلطان المذكور من الملك وإخراجبني وطاس عنه، فإنه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادي: «يا حران جي. فإني قد أعطيتك الغرب!» وذلك قبل ظهور السعديين، ولم يكن «الناس يدرؤون ما يقول حتى ظهر الحران». وهو: أحد أولاد السلطان أبي عبد الله الشيخ، وهو الذي كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البلاد إلا ما فتح له على يده.

وكان دخول السلطان الشيخ إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع ويبعث بهم مصطفدين إلى مراكش عدا

أبا حسون منهم فإنه فر إلى الجزائر مستجيراً بتركها حسبما مر.

وقال اليفرنى : «لما دخل الشيخ حضرة فاس دخلها وعليه وعلى أصحابه النراعات الصفر وسمة البداؤة لائحة عليهم ، فحملوا أنفسهم على التأدب بأداب الحاضرة والتحلّق بأخلاقهم يعني حتى رسم فيهم ذلك» والله أعلم .

نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى تلمسان واستيلاؤه عليها

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركى على تلمسان ، وانقراض دولة بنى زيان منها سنة اثنين وخمسين وتسعين ، فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس في التاريخ المتقدم تاقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط ، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع أنهم أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه ، فيصبح بأهله وملوكيه أن يتركوه يغليون على بلادهم ، لا سيما وقد فر إليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله ، وهو أبو حسون الوطاسي ، فرأى الشيخ من الرأي وإظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه فنهض من فاس قاصداً تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر ، وقتل في محاصرتها ولده العران ، وكان ناباً من أنبياه وسيفاً من سيفوه ، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وتسعين ، ونفى الترك عنها ، وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي شلف ، واتسعت خطة مملكته بالمغرب ، ودانت له البلاد ، ثم كرت عليه الأتراك وأخرجوه من تلمسان ، فعاد إلى مقره من فاس ، ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعایاها على الترك وانحصار الترك بقصبتها ، فأقام مرابطًا عليها أيامًا فامتنتعت عليه ، وأفلج عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها إلى الترك على ما نذكره .

امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمتسبين والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصرين للشيخ خوفاً على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشاراتهم، والتبعده بما يتأولونه من عباراتهم، ألا ترى أن بيعة والده أبي عبد الله القائم لم تتعقد إلا بهم، ولا ولج بيت الملك إلا من بابهم، فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبي محمد الكوش، فأخلى زاويته بمراكمش وأمر برحيله إلى فاس.

وفي «الدوحة»: «لما امتحن السلطان أبو عبد الله الشيخ زوايا المغرب قيل لأبي علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الدعايع التي على وادي مضي من عمل القصر: «ألا تخشى من هذا السلطان؟»، فقال: «إنما الخشية من الله ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما، والباقي متترك لمن طلبه».

وكان السلطان المذكور يطالب أرباب الزوايا بودائع أمراءبني مرين ويتهمهم بها. وبعث خديمه يوماً إلى الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين مكناسة يطالبه بشيء من ذلك فوجده جالساً بناحية زاويته يضفر الدوم وإذا بطائر، لعله اللقلق سلح أمامه فما رفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتاً متطاير الريش، فلما رأى الخديم ذلك فزع وولي هارباً. قاله في «الممتع» والله تعالى أعلم.

وفادة الإمام أبي عبد الله الخروبي من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها

لما كان من السلطان أبي عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفنها للوفادة على السلطان المذكور في شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد، فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة إحدى^(١) وستين وتسعمائة في هذا الغرض، فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته، إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه.

وفي «المرآة»: «أن أبي عبد الله الخروبي قدم المغرب الأقصى مرتين في سبيل السفاراة بين ملوك المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، فأخذ عنه كثير من أهل المغرب الأقصى، وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمة الله» وفي قدمته الخروبي هذه إلى مراكش أنكر على الشيخ أبي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم، وقال: «إنه بدعة»^(٢) فقالوا له: «إن الشيخ الجزاولي كان يفعله» فقال لهم: «عله ياذن، والإذن له لا يعمكم، فإن الإذن للنبي يعم أتباعه، والإذن للولي لا يعم أتباعه» وأنكر عليه مسائل كثيرة، وبعث إليه رسالة أقذع له فيها وقد وقفت عليها^(٣) رحم الله الجميع بمنه. وتوفي الخروبي هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم.

(١) الذي في «الترفة» سنة سبع وخمسين وهو الصواب.

(٢) انظر «ممتخ الأسماع» فقد أشيع القول في مسألة حلق شعر التائب.

(٣) راجع فهرسة المرغيشي تجدتها هناك. قال في «الممتع» وقد أجاب أبو محلی الشائز الشهير الخروبي عن رسالته متصرّاً لشيخه القسطلي اهـ.

**قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش الترك
واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها**

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه علىبني وطاس وفرار أبي حسون إلى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها إلى أن قدم بهم مع باشاهم صالح التركمانى، فاستولى على فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة، ونفى أبي عبد الله الشيخ عنها حسبما مر الخبر عنه مستوفى.

**عود السلطان أبي عبد الله الشيخ
إلى فاس واستيلاؤه عليها**

لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل إلى مراكش صرف عزمه لقتال أبي حسون، فاستنفر قبائل السوس، وجمع الجموع، وزحف إلى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ، فقتل أبي حسون واستولى على فاس، وصفا له أمر المغرب، وقد تقدمت هذه الأخبار مستوفاة في محلها، وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة.

وفي «الدوحة»: أن دخول أبي حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة، وعود السلطان الشيخ إليها واستيلاؤه عليها كان في ذي القعدة سنة ستين أيضاً، والله تعالى أعلم.

مقتل الفقيهين أبي محمد الزقاق وأبي علي حرزوذ والسبب في ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس في هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضي الجماعة يفاس أبي محمد عبد الوهاب بن محمد ابن علي الزقاق لأنه اتهمه بالميل إلى أبي حسون.

ويحكى أنه لما مثل بين يديه قال له: «اختر بأبي شيء تموت» فقال له الفقيه: «اختر أنت لنفسك، فإن المرء مقتول بما قتل به» فقال لهم السلطان: «اقطعوا رأسه بشاقور» فكان من حكمة الله وعدله في خلقه أن السلطان المذكور قتل به أيضاً كما سيأتي.

وفي كتاب «خلاصة الأثر»: أن الشيخ الزقاق كان يقول: «من قتل سوسيأً كان كمن قتل مجوسيأً» فلما قبض عليه الشيخ قال له: «أنت زق الضلال» فقال له: «لا والله، بل أنا زق العلم والهدایة» ثم قتله.

وأمر أيضاً بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبي علي حرزور المكناسي لكلام بلغه عنه، وأنه كان يذكره في خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد إليه، ويقول في خطبته: « جاءكم أهل السوس الأقصى البعاد » ثم يذكر الشيخ ويقول: «**وَإِذَا قُولَّ سَعْنَيْ فِي الْأَرْضِ لِيُقْسِدَ إِنْهَا وَهُنَّاكَ الْعَرَثَ وَالشَّلَّ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ٢٥٦ وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقَّى اللَّهُ أَخْذَتُهُ الْعَرَةُ بِالْأَئْمَرِ فَحَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ وَلَئِسَ الْمِهَادُ ۝** » [البقرة: 205، 206] في كلام غير هذا. وكان مقتل الفقيهين المذكورين في ذي القعدة سنة إحدى وستين وتسعمائة.

ترتيب السلطان أبي عبد الله الشيخ أمر دولته وما قيل في ذلك

قال اليفرني: «كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعاً بتدبير أمر الرعية مستيقظاً في أمره حازماً غير متوقف في سفك الدماء» قال: «ويحكي أنه لما دخل فاساً دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداؤة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق بأخلاقهم». وذكر أن ملك السعديين إنما تأثر على يد رجل وامرأة، فأما الرجل: فقاسم الزرهوني، فإنه رتب للسلطان أبي عبد الله الشيخ هيئة المسلمين في ملابسهم ودخولهم وخروجهم وأداب أصحابهم، وكيفية مثولهم بين أيديهم وأما المرأة: فالعريفة بنت خجو فإنها علمت سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك، فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة، وازداد في عيون العامة رونقاً وحلوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية، لأن أهل الباية مسترذلون في عيون أهل الحاضرة، قالوا: ولم يزل السلطان أبو عبد الله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الإقامة بفاس.

قال في «المتنقي»: ومن مآثره: أنه بنى جسر وادي سبو، وجسر وادي أم الربع. وتقدم بناؤه حصن آكادير. والله تعالى أعلم.

وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائية

قد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحاً أو غير ذلك، وعلى القول بأنها فتحت عنوة فهي خراجية كما هو مقرر في كتب الفقه، وتقدم لنا أيضاً أن أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المؤمن بن علي، وتبعه بنوه على ذلك. وقفوا نهجهم بنو مرين وفي الظهير الذي كتبه السلطان أبو زيان المريري لابن الخطيب أيام مقامه بسلا شاهد بذلك. ولما جاء السعديون من بعدهم سلكوا هذا السبيل أيضاً. وقول اليفرني: إن أبي عبد الله الشيخ أول من أحدث النائية

بالمغرب يحمل على أنه أول من أحدثها على الوجه الآتي بيانه، وذلك أنه لما صفا للسلطان أبي عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرنومةبني وطاس منه التفت إلى ترتيب ملكه وتهنيب اعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا، فمن ذلك: أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسممة في لسان العامة بالنائية، ولم ينزع عنها شريفاً ولا مشروفاً، حتى أرباب الزوايا والمنتسبين، ومنهم أولاد الشيخ أبي البقاء خالد المصمودي، مع ما كان لأبيهم من الشهرة بالولاية والصيت في بلاده. وكان قدر هذه النائية صحفة من الشعير وعشرين مذاماً من القمح لكل نائية. وصاعاً من السمن وكبشاً لكل أربع نوائب، وكانت تفرض في زمان الشيخ على الكوانين، وتتوظف على حسب السكان، وتتدفع بأعيانها، وجري على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم، ولما جاء المنصور من بعدهم قوم تلك الأعيان بسرع الوقت وصارت تدفع دراهم، ثم ازداد ذلك إلى أن خرج الأمر عن القياس واتسع الخرق على الراقع، والله لا يظلم مثقال ذرة.

مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

قد قدمنا ما كان من غص السلطان أبي عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الأوسط، وأنه غزاهم مرتين، وقدم الإمام أبو عبد الله الخروبي ساعياً في الهداة فلم يرجع بطالق. وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا: «لا بد لي أن أغزو مصر وأخرج الترك من أحجارها» وكان يطلق لسانه في السلطان سليمان العثماني ويسميه بسلطان الحواتة. يعني لأن الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر في البحر، فأنهى ذلك إلى السلطان سليمان ببعث إليه رسلاً فهذا سبب المراسلة على ما في «التزهـة».

وأشبه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال: لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية إلى السلطان سليمان العثماني واستيلاء السعديين على ملك المغرب الأقصى كتب إلى الشيخ يهنته بالملك، ويلتمس منه الدعاء له على منابر

المغرب، وبعث إليه بذلك رسولاً في البحر، فانتهى إلى الجزائر ومنها قدم إلى مراكش في البر. ولما وصل إلى السلطان أبي عبد الله الشيخ أنزله على كبير الأتراك في محلته صالح باي المعروف بالكافية، وكان هؤلاء الأتراك قد انحاشوا إلى الشيخ من بقایا القادمين مع أبي حسون، فضمهم إليه وجعلهم جنداً على حدة، وسمّاهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين، وهو لفظ تركي معناه العسكر الجديد. ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووْجَد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حمى أنفه وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه، فطلب منه الجواب، فقال: «لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله وحيثند أكتب لسلطان القوارب» فخرج الرسول من عنده مذعوراً يلتفت وراءه إلى أن وصل إلى سلطانه وكان من أمره ما ذكره.

قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم للسلطان أبي عبد الله الشيخ رحمه الله

لما خرج رسول السلطان سليمان العثماني من عند السلطان أبي عبد الله الشيخ ووصل إلى الجزائر ركب البحر إلى القسطنطينية فانتهى إليها، واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الأعظم، وأخبره بما لقي من سلطان المغرب، فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان سليمان فأمره أن يهيء العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها، واتفق رأيهم على أن عينوا اثنين عشر رجلاً من فتاوّك الترك وبذلوا لهم اثنين عشر ألف دينار، وكتبوا لهم كتاباً إلى صالح الكافية كبير عسكر الشيخ، ووعدوه بالمال والمنصب إن هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه.

وفي «النزهة»: «أن صالحًا هذا كان من ترك الجزائر جاء في جملة

الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ» والله أعلم. ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر إليه عن توجيهه العمارة، وقال: «هذا أمر سهل لا يحتاج فيه إلى تقويم عمارة، وهذا المغربي الذي أساء الأدب على السلطان يأتي رأسه إلى بين يديك» فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة في البحر إلى الجزائر، ومنها يتوجهون إلى مراكش في البر؛ ففعلوا، ولما وصلوا إلى الجزائر هيؤوا أسباباً واشتروا بغالاً وساروا إلى فاس في هيئة التجار، فباعوا بها أسبابهم، وتوجهوا إلى مراكش، ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أُنذل لهم عنده ودبر الحيلة في أمرهم إلى أن توجهت له.

وفي «التزهة»: أن هؤلاء الأتراك خرجن من الجزائر إلى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم، ورغباً في خدمة الشيخ والاستئجار به. ثم إن صالح الكاهية دخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ وقال: «يا مولاي إن جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومتزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم إن شاء الله السبب في تملكها» فأمره بإدخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوهاً حساناً وأجساماً عظاماً فأكابرهم، ثم ترجع له صالح كلامهم، فأفرغه في قالب المحبة والتصرح والاجتهاد في الطاعة والخدمة، حتى خيل إلى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر، فأمره بإكرامهم وأن يعطينهم الخيل والسلاح، ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل، فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك في ذلك.

وصار الشيخ يبعث بهم إلى أشياخ السوس مناوية في الأمور المهمة ليتبصروا في البلاد ويعرفوا الناس. وكان يوصي الأشياخ بياكرا من قدم عليهم منهم، واستمر الحال إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة، وهو في بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له: آكلكال بظاهر تارودانت، فولجوا عليه خباءه ليلاً على حين غفلة من العس، فضرموا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه، واحتملوه في مخلة ملؤها نخالة وملحاً وخاضوا به أحشاء الظلماء وسلكوا طريق درعة وسجلماستة كأنهم أرسال تلمسان لثلا يقطن بهم أحد من

أهل تلك البلاد، ثم أدركوا بعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس، وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتى مراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السككاني. والكاتب أبو عمران الوجاني.

ولما شاع الخبر بأن الترك قتلوا السلطان واسترتاب الناس بجميع من بقي منهم بالمغرب أغلق إخوانهم الذين كانوا يتاروداتن أبوابها واقتسموا الأموال واستعدوا للحصار، ولما يربع ابنه الغالب باشا وقدم من قلس نهض في العساكر إلى تاروداتن للأخذ بشار أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة، ولما لم يقلل منهم على شيء أعمل الحيلة بأن أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع إلى فاس لتأثير قام بها. ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلاً والعيون موضوعة عليهم بكل جهة إلى أن شارفوا محلة السلطان الغالب باشا فعطض عليهم، ولما لم يمكنهم الرجوع إلى تاروداتن تحيزوا إلى الجبل وينوا به قياطفهم، وجعلوا عليها المتراثات من الأحجار وتحصنتوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة، فقاتلوا إلى أن فروا عن آخرهم ولم ي Roxذ منهم أسير، وقتلوا من محلة الغالب باشا ألفاً ومائتين. وأما الذين نجوا بالرأس فانهوا إلى الجزائر وركبوا البحر منها إلى القسطنطينية، فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم، وأدخله على السلطان سليمان فأمر به أن يجعل في شبكة نحاس، ويعلق على باب القلعة فبقي هنالك إلى أن شفع في إزالته ودفنه ابنه عبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور حين قلما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعينين له على ابن أخيهما المسلط كما يأتي.

وكان مقتل الشيخ رحمة الله يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة. ولما بلغ خبر مقتله إلى خليفته بمراكش القائد أبي الحسن علي بن أبي بكر آزناك بادر بقتل أبي العباس الأعرج المخلوع وأولاده ذكوراً وإناثاً كباراً وصغراءً خشية أن يخرجه أهل مراكش فيباغوه. ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنتهم الشيخ أبو عمرو القسطنطي الولي الشهير بمقرية من ضريح الشيخ الجزاولي وهي القبة التي قرب الضريح المذكور تسمى قبور الأشراف، وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ

فإنهم حملوا جثته إلى مراكش فدفنت بها قبلي جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها إلى الآن وما نُقش على رحامة قبره هذه الآيات:

وَظَلَّتْ لِحَدِّهِ مِنْهَا غَمَامَاتْ
حَيْ ضَرِيحًا تَغْمِدُهُ رَحْمَاتْ
وَاسْتَنْشَفُنَّ نَفْحَةَ التَّقْدِيسِ مِنْهُ فَقَدْ
بَحْرَ بَهْ كُورْتَ شَمْسَ الْهَدِي فَكَسْتَ
يَا مَهْجَةَ غَالِهَا غُولَ الرَّدِي قَنْصَأْ
دَكَتْ لِمَوْتِكَ أَطْوَادَ الْعَلَا صَعْقاً
وَشَيْعَتْ نَعْشَكَ المَزْجِي إِلَى عَدْنَ
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ عَاطِيهِ سَلَافَ رَضَاْ
فَقَضَى فَوَاقِعُ فِي التَّارِيخِ مِنْهُ حَلَّ

هَبَّتْ مِنَ الْخَلْدَلِي مِنْهَا نَسِيمَاتْ
مِنْ أَجْلِهَا السَّبْعَةِ الْأَرْضِينَ ظَلَمَاتْ
وَأَثْبَتَ سَهْمَهَا فِي هَا الْمَنِيَّاتْ
وَارْتَجَ مِنْ بَعْدِكَ السَّبْعَ السَّمُومَاتْ
مِنَ الْمَلَائِكَ الْأَحَانَ وَأَصْوَاتَ
تَدُورُ مِنْهَا عَلَيْهِ الْدَّهْرَ كَاسَاتْ
دارِ إِمَامَ الْهَدِيِّ الْمَهْدِيِّ جَنَّاتْ

بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته

كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الألقاب السلطانية بالمهدي ونشأ في عفاف وصيانة وعناني بالعلم في صغره وتعلق بأهدابه، فأخذ عن جماعة من الشيوخ، وبلغ فيه درجة الرسوخ، حتى كان يخالف القضاة في الأحكام، ويرد عليهم فتاویهم فيجدون الصواب معه، وقع ذلك منه مراراً، وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزاره علمه.

وقال في «المنتقى»: «كان السلطان أبو عبد الله الشيخ رحمة الله أدبياً متقدتاً حافظاً حدثنى شيخنا أبو راشد أنه كان ممتنع المجالسة والمذاكرة نقى الشيبة عظيم الهيئة ما رأيت بعد شيخي أبي الحسن علي بن هارون أحفظ منه للقطعات الشعرية وكثيراً ما ينشد:

النَّاسُ كَالنَّاسِ وَالْأَيَّامُ وَاحِدَةٌ وَالدَّهْرُ كَالدَّهْرِ وَالدُّنْيَا لَمْ يَغْلِبْ
وَكَانَ حَافِظاً لِلْقُرْآنِ فَهِمَا جَدَّاً، حَافِظاً لِصَحِيفَ الْبَخَارِيِّ، وَيَسْتَحْضُرُ مَا
لِلنَّاسِ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ فِي شَرْحِ ابْنِ حَجْرٍ: «مَا صَنَفَ فِي الإِسْلَامِ مِثْلُهُ» عَارِفَاً
بِالتَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ يَحْفَظُ دِيْوَانَ الْمَتَّبِيِّ عَنْ ظَهَرِ قَلْبِهِ، وَكَانَ يَحْضُرُ عَلَى

المشاورة ويقول: «لا سيما في حق الملوك» وينشد قول المتنبي:

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى
وكان يقول: «ينبغي للملك أن يكون طويلاً الأمل فإن طول الأمل وإن
كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لأن الرعية تصلح بطول أمله»، وكان
يقول: «من طول أمله أخذ تلمسان وسبة وغيرهما» انتهى.

وقوله: إنه كان يحفظ ديوان المتنبي، سببه ما ذكره في الدوحة قال:
أخبرني الوزير المعظم أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي محمد عبد القادر بن
السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف قال: «لما غدرت قبيلة المناجية
بجد السلطان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبي محمد عبد الله
ابن عمر بذلك فكتب إليه يقول: «أين أنت من قول أبي الطيب المتنبي:

غاض الوفاء فما نلقاه في عدة وأعز الصدق في الإخبار والقسم»
قال: «ففكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي حتى حفظه كله ولم
يعزب عنه بيت واحد» اهـ. وابن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطان
المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغرى الفقيه الفرضي الحاسب،
فقيه درعة وعالمه، وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس،
ولما عاد إلى درعة سأله فقهاؤنا كيف وجدت أهل السوس؟ فقال: «ووجدت
فقهاءهم على ضعيف الفتاوي، وقراءهم على عظيم الدعاوى، وعمتهم
على كثير المساوي».

ومن أشياخ السلطان المذكور: الإمام الشهير شيخ الجماعة بالصقع
السوسي أبو الحسن^(١) علي بن عثمان الثاملي ذكره في «المتنقى» وأثنى عليه،
ومن أشياخه: علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد اليسندي،
أخذ عنه علوماً منها: «التفسير». قال المنجور: «وكلت أنا قارئه بين يدي
أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له» قال: «ولما

(١) صوابه: أبو علي الحسن.

توفي الفقيه المذكور وذهب مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي بها لتخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المريني، فخرج السلطان إلينا وهو يبكي بصوت عال يفزع من سمعه، حتى رأينا منه العجب وما سكت إلا بعد مدة، لما كان يعلم منه من صحة الدين والتصح لخاصة المسلمين وعامتهم، «حضر جنازته»، وكانت وفاته رحمة الله سنة تسع وخمسين وتسعين، وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء.

ومن وزرائه: الرئيس أبو الحسن علي بن أبي بكر أصناك الحاجي، وأبو عمران موسى بن أبي جمدي العمري وغيرهم.

ومن قضايه بفاس: أبو الحسن علي بن أحمد الخصاقي، وبمراكنش: أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني رحم الله الجميع.

وكان للسلطان أبي عبد الله الشيخ عدة أولاد نجاء، ومن أنجبهم: أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القتيل على تلمسان، ومنهم: أبو محمد عبد الله الغالب بالله، وأبو مروان عبد الملك الغازي، وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الأمر بعد أبيهم، ومنهم: الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفي في حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعين.

وفي «نشر المثاني»: أنه قتل مخنوقا بأمر أخيه، عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعين، وعمره ستة فالله أعلم. ومنهم: عثمان وعبد المؤمن، وعمر وغيرهم.

قال المنجور في فهرسته: «حضرت يوما مجلس أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ، وقد حضر عنده أولاده الصناديد الأمراء: المولى محمد العران، والمولى عبد القادر، والمولى عبد الله، فدخل شيخنا الإمام أبو عبد الله اليستي فلما نظر إليهم حول أبيهم أشد بيت تلخيص المفتاح:

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بنى حوالى الأسود الحوارد
فأعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم».

الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب

باهه ابن السلطان محمد الشيخ رحمة الله

كانت ولادة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب باهه كما رأيته مرقوماً على الرخامة التي على قبره في رمضان سنة ثلث وثلاثين وتسعمائة، وكان رحمة الله أدعى العينين، مستدير الوجه عريضه، أسيل الخدين، مشرف الوجنتين، ربعة للفصر، ونشأ في عفاف وصيانة، وحفظ القرآن، وأخذ بطرف صالح من العلم، وكان ولی عهد أبيه، وكان يلقب من الألقاب السلطانية: بالغالب باهه لقبه به غير واحد من الأئمة. ولما وافته الأنباء بمقتل أبيه وهو يفاس بایعه أهلها ولم يتخلف عن يعته منهم أحد.

وذكر ساحب «زهرة الشماريخ»: أن الفقيه الميقاتي المعدل بمثار القرويين أبا عبد الله المزوار، وكان بصيراً بعلم الأحكام والحدثان، بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب، وقد ابهار الليل واسود ديجوره، رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط، وكانت بينه وبين ابنه أبي محمد عبد الله وصلة، فأسرع في النهاب إليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقاً فاستأذن الموكلين به في فتحه فأبوا، فقال لهم: «إنني جئت إلى الخليفة، يعني خليفة السلطان، في أمر مهم عنده، وإن لم تعلموا بمكاني الساعة لحكمكم منه غداً ما تكرهون، فأنذروا الخليفة المذكور به فحمل إليه، وسأله عن قضيته، فأخبره بما رأى ونعني إليه أباه، فلم يكن ذنب في ذلك وتهيا واستعد، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى وافته الأنباء بمقتل أبيه في تلك الساعة التي قال له المعدل المذكور، فصادفه الحال على أبهة واستعداد ولما بلغ أهل مراكش مبایعه أهل فاس له وافقوا عليها، فاستوسق له الأمر وتمهد له ملك أبيه. وكان ذلك كله في المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة.

إلى فاس ورجوعه منهزمًا عنها

قال ابن القاضي: لما ولى السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله.

وفي سنة خمس وستين وتسعمائة، في جمادى الأولى، منها، غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الأتراك، فخرج إليه السلطان الغالب بالله فالتقى بمقرية من وادي الدين من عمالة فاس، فكانت المبرة على حسن، فرجع منهزمًا يطلب صياصي الجبال إلى أن بلغ إلى باديس، وكانت يومئذ للترك، ورجع الغالب بالله إلى فاس لكنه لم يدخلها لرباه كان بها يومئذ، ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لأمر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة. والله تعالى أعلم.

بناء جامع المؤاسين بحضور مراكش والبركة المتعلقة به والممارستان وغير ذلك

قال اليفرنى: «وفي عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الأشرف بحومة المؤاسين من مراكش، والسقاية المتعلقة به التي عليها مدار المدينة المذكور، والممارستان الذي ظهر تفعه ووقف عليه أوقافاً عظيمة» قلت: وهذا الممارستان هو الذي بحومة الطالعة قرب السجن، وقد اتخد اليوم سجناً للنساء، قال: وهذا السلطان هو الذي جدد أيضاً بناء المدرسة التي بجوار جامع ابن يوسف المعمونى، وليس هو الذي أنشأها كما يعتقده كثير من الناس بل الذي أنشأها أولاً هو السلطان أبو الحسن المريني رحمة الله حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته، وشاع على الألسنة أن السلطان الغالب بالله توصل إلى بناتها بصناعة الكيمياء، وأن الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي علمه إياها حين تلمذ له كما سيأتي.

قال اليفرنى: «وهو كتب، فإن المنقول عن الشيخ المذكور إنكارها،

وما كان ليفتح على مسلم باباً عظيماً من أبواب الفتنة وسبباً بليغاً من أسباب المحنّة، لأن هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتنة، وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها لوجه ثلاثة؛ أولها: إنها من المستحبّلات كما ذكره ابن سيناً مستدلاً عليه بقوله تعالى: ﴿لَا تَبِدِّلْ لِي خَلْقَ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٥) وكما أنه ليس في قدرة المخلوق أن يتحول القرد إنساناً والذئب غزالاً كذلك ليس في قدرته أن يصير الرصاص فضة، والنحاس ذهباً يعني، لأن ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال. ولقد تناولت رجلان فيها فقالا مجوزها: «أتذكر ما تشاهده في الصبغ وتصيير الجسد الأحمر أصفر والأبيض أسود؟ فقلل مانعها: «لا انكر ذلك، لأن الصبغ ليست تغيير أصل، وإنما انكر أن ثوب الصوف الأبيض ترده صناعة الصبغ قطناً أو حريراً أحمر أو أخضر، وأما الصبغ فلا شك أن النحاس يصير أبيض ولا يخرجه ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف. ثانية: سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة في الخارج كما ذهب إليه أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله إذ قال: «ثلاث متفق على وجودها في الغالب، وقد اتفق على عدم رويتها أهل المشارق والمغارب: الكيماء، والعنقاء، والغول. وأخبارها كلها على وجه السمع والإسنادات وحكايتها كالموضوعات عن العجمارات والجمادات». ثالثها: سلمنا أنها موجودة في الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها.

وقد سئل عنها الشيخ أبو إسحاق التونسي رحمه الله فقيل له: «أحلال هي إذا كانت خالصة؟» فقال: «لو دبر النحاس أو غيره من الأجسام حتى صار ذهباً خالصاً لاشك فيه فمتي لم يقل بائعه لمبتاعه هذا كان نحاساً أو جسداً من الأجسام فدبّرته حتى صار ذهباً كما ترى لكان غاشياً مدلساً.» قال: «ومتي ذكره لم يشتري أحد منه ذلك بفلس، ويقول: فكما دبرته حتى صار ذهباً فكذلك يدبّره غيرك حتى يرجع إلى أصله. فمن لم يبين فيها فهو داخل

في قوله عليه الصلاة والسلام: «من غشنا فليس منا» فتكون صناعتها حراماً وقيل لبعض الفضلاء: «لم لم تتعمل بهذه الصناعة فإنها تسلى العاطر؟» فقال: «قيل للحمار: «لم لم تجتر؟» فقال: «أكره مرض الباطل» وأنشد:

فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن فيتناولها بعد

اه ما نقله اليفرني ملخصاً مهذباً، وهو الحق الذي لا عوج فيه ولا أمت. ثم قال: وبالجملة فما شاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لا أصل له، ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الأشراف بعد ما بني مدة ويقال: إن موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم.

فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بنى راشد منها

تقدّم أن مدينة شفشاون حرستها الله بناتها بنو راشد من شرفاء العلم، وكانتوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غماره والهبط، ولما توفي مختطفها الأمير أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها. قال في «المراة»: ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر ابن السلطان محمد الشيخ السعدي بجيوش عمه السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله، وصاحب شفشاون يومئذ الأمير الفاضل أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي الحسن علي بن موسى بن راشد، فلما اشتد عليه الحصار خرج فيمن إليه من أهله وولده وقرباته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون في مسلك وعر صعبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثانية من صفر سنة تسع وستين وتسعين، وساروا إلى ترعة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور. واستقر الأمير أبو عبد الله بالمدينة المنورة إلى أن مات بها رحمة الله.

حصار البريجة المسممة اليوم بالجديدة

قد قدمنا ما كان من بناء البرتغال لمدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية، وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز إليها السلطان الغالب بالله جيشاً كثيفاً، واستنفر لها قبائل الحوز، وعقد عليهم لابنه محمدالمعروف بالمسلوخ قتيل وادي المخازن، وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل، واستورز له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبي زيد عبد الرحمن بن تودة العماني، وجعل إليه أمر الحرب، وابن السلطان صورة، فزحف إليها وحاصرها أربعة وستين يوماً وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها.

وفي «النזהة»: «ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التي قرب آزمور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل في الغد بقيتها ولا يبقى للกفر بها أثراً فكتب إليه السلطان الغالب بالله ينهاه عنها، فتراجع الصارى إليها بعد أن ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها» اهـ.

وقد وقفت في التاريخ البرتغالي الموضوع في أخبار الجديدة، واسم مؤلفه لوبيز مارية، على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها ويسطها، وتتبع الواقع فصلاً فصلاً ويوماً يوماً، وأنى من ذلك بما يزيد على الكrama، فكان من جملة ما قال: «إنه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوهم وأخذ في تجهيز الجيوش إليهم أتاهم بعض المتنصرة» قال: «وهو عبد أسود فأخبرهم بأن السلطان مستعد لحربيهم، وكانوا عازمين على التوثق من هذا الماجوس فأذلت منهم قلعوا أن إظهاره للتتصير كان مكيدة، ثم أخذوا في الاستعداد واشتروا من عند قائد آزمور ألفي سيف هكذا زعم» قال: «وفي اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنتين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين إلى حوز الجديدة» وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربي الذي قدمناه قال: «فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثة ألفاً والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف بالبلدروش وكانوا يومئذ جنداً للسعديين، وكان معهم

عشرون مدفأً عشرة كبيرة، وعشرة صغيرة، وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميموناً، وكان معهم العلم الكبير الأبيض ورایات آخر ملونة، وتقدموه إلى الجديدة فحاصروها حصاراً شديداً وحاربواها حرباً هائلة، وصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفاً كافياً. وكانت الجديدة يومئذ في غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمين من النصارى على ما ينبغي وأرسل الترك عليهم أنواع الحرائيات، وملكوا المثارزات التي كانت حول السور بعد أن هلكت عليها نفوس من الفريقين، ثم صنع النصارى للMuslimين عندها مينا البارود مرتين، ففي الأولى كانت المينا تسعة براميل فقط منهن سبعة فأهلكت خلقاً من المسلمين والنصارى وفي الثانية كانت تسعة عشر برميلاً أمام السور فنفطت بالMuslimين وأتلفت منهم عدداً بعضاً منهم طار في الهواء وبعضاً تحت التراب.

وكان رماة المسلمين ينالون منهم نيلاً عظيماً واعترف النصارى لهم بجودة الرمي بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكري على السور اخطفته رصاصة في آخر موضع من بدنه من الرأس أو الصدر.

قال لويس المؤرخ: «ولقد قدم في بعض الأيام من أشبونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم: أروني كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصادركم لهم، قال: فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة ثارت دماغه كان صاحبها كان يتنتظره، وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب إلى منزله، فعوضه منه المسلمين القبر» قال: «فما كان النصارى بعدها يقدرون أن يظهروا على السور إلا في النادر، ولما طال عليهم الحصار ندب كبيرهم جماعة منهم للخروج إلى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسيز منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتاح أو مقيد وملامدة الإقامة» قال: «فخرجوا في ذلك لهم ليلاً وساروا ساحتى بلغوا ساحل طيبط، وهي يومئذ خالية، وكان يقربها محلة لقائد آسفي فلما طلع الفجر تقدموه إلى البر وأرسوا فلكلهم إلى جانب بعض الأحجار هنالك بحيث يخفى على العارفين بالساجل ثم كعنوا هنالك فلما كان وقت الإسفار إذا برجل من محلة آسفي أتى على فرسه إلى

شاطئ البحر لبعض حاجاته فلم يرده إلا النصارى قد أخذوا به وأخذوا بلجام فرسه، وجعل بعضهم فم مكحلته في صدره، فلم يملك المسلم من نفسه شيئاً، ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه إلى الفلك أسيراً، ولججوا به في البحر، ولما بعدوا عن البر شيئاً ما رمى أحدهم الفرس برصاص فقتله، ثم أسرعوا إلى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سألوه عن خبر الجيش المحاصر لهم فأخبرهم بأنهم ينجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فإن لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك». قال: «وكان ارتحال المسلمين من الجديدة في سابع مايه العجمي من السنة المذكورة فعل النصارى لذلك عيداً وأحدثوا في كنائسهم صلوات لم تكن قبل ذلك بإشارة باباهم صاحب رومة».

ومما حكاه هذا البرتغالي فيما كان يجري بين أهل آزمور وبينهم من الحرب، وذلك بعد هذا الحصار بمنة يسيرة: أنه كان يآزمور امرأة حسنة وخطبها رجل من أهل البلد سماه لويس إلا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأطلقه اسمه الميلودي^(١) لأن الحروف التي ذكر تقرب منه، قال: فامتنعت عليه فراودها أياماً واشتد كلفه بها فلم تزدد عليه إلا تمنعاً فبعث إليها ذات يوم يرغبها في نفسه، ويدلي عليها بما ثراه التي من جملتها الشجاعة. حتى قال لها: «إن شئت أن آتيك برأس أعظم نصراني بالجديدة وأشجعه فعلت» ولعلها كانت موتورة لهم فقالت له: «إن آتني به تزوجتك» فذهب الرجل المذكور إلى قائد آزمور ولم يسمه لويس وعرض عليه أن يكتب إلى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بأن يعين من جانبه رجلاً من شجاعتهم

(١) الذي في الترجمة الإقرامية مولاي حدو ولعل المترجم هنا رأى كلمتي مولاي، وحدو متصلتين خطأ فظنهما كلمة واحدة مستقلة وتوهم أن المؤرخ البرتغالي لم يحسن النطق بها وأن أصل الكلمة الحقيقي ميلودي والمعنى له في ذلك لأن الحروف التي في مجموع مولاي وحدو قريبة من لفظ ميلودي مع أنهما كلمتان مستقلتان في الحقيقة إحداهما: مولاي والثانية: حدو اهـ.

ليبارزه إن شاء، فأجابه القائد إلى مراده، وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة، وهذا الموضع هو الذي كانت تقف فيه رسيل آزمور إذا قدمت لغرض، فخرج إليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به إلى صاحبه، فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم ما فيه فقام رجل منهم وقال: «أنا صاحبه» وهذا الرجل سماه لوزير، وقال: «كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة ممتليء الأعضاء أسمرا اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل آزمور قبل ذلك فكتب صاحب الجديدة إلى قائد آزمور إنا قد أجبناك إلى ما دعوت، وقد أعجبنا ذلك، وها نحن قد عينا لصاحب قرنه فلتعينوا لنا اليوم والساعة التي تكون فيها الملاقة، فاتفقا على يوم معلوم، وفي ذلك اليوم سار قائد آزمور في أصحابه ووجهه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور إلى الجديدة، فاتهروا إلى الموضع الذي جرت العادة أن يقف فيه المسلمين، وخرج قائد النصارى في جماعته، وشرطوا للمبارزة وكيفتها شروطاً منها: أن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة ولا يلتقي إلا المتيارزان وحدهما بمرأى من الفريقين، ومنها أن مساحة الموضع الذي يكون فيه مجالهما خمسون شبراً وسطاً من الفريقين، وإن من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقاً للآخر، وأعطوا خطوطهم بذلك. ولما حان وقت البراز خرج عدлан من جانب المسلمين حتى انتهيا إلى النصراني فقتله لينظروا ما عليه من السلاح وما معه، لأن من جملة الشروط أن لا يتبارزا إلا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصراني سواهما» قال لوزير: «وكان أصحابهم المذكور يحسن الضرب بكلتا يديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل إلا باليمين فرضي، ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا إلى المسلم فقتله لم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضاً غير أنه قد علق على ذراعه تماثم كثيرة مخروزة في الجلد فقال له الشاهدان: «لا بد أن تتزع

هذه التمام لأن صاحبنا ليس عنده شيء من هذا، وأيضاً فيمكن أن تقيك هذه التمام بعض الواقعية» فقال لهم: «لا نزعها لأن مثل هذا لا يتنى به في الحرب، ولا يعني في الظاهر من السيف والرمح شيئاً وإنما فيها أسماء الله ولا يحسن بي أن أطرحها في هذه الحالة التي أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب مني مع اسم الله تعالى وربما يكون سبباً في خذلاني» فرجع النصرانيان إلى قائدhem وأخبراه بالقضية فقال: «لا بد من نزعها» فعادا إليه، وزعم لويس أن المسلمين وافقوا على نزعها وقال له العدalan: «إن الحق مع النصارى لأننا كشفنا صاحبهم كشفاً تماماً، وراوده القائد أيضاً، فأصر على الامتناع معتبراً بما سلف، ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمين إلى بلدhem ولم يكن براز» قال لويس: «وعذ النصارى ذلك غالباً وجعلوا بصيرون ويخرجون البارود» قال: «وكان سور الجديدة مكسوباً بالنساء والصبيان واغتاظ قائد آزمور فسجين المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين».

قلت: من تأمل وأنصف علم أن الفشل إنما هو من جانب النصارى لأن تلك التمام من حيث الظاهر لا تغنى شيئاً، وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقد النصارى، بل ولا يسلموه، فلم يبق إلا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاة. ثم قال لويس: «وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فابلي فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محله من الشجاعة» اهـ، «والحق ما شهدت به الأعداء» وإنما ثبتت هذه الحكاية بطولها لغرابتها، ولما استحملت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الإيمانية فنأسه سبحانه وتعالى أن يعلى منار الدين ويكتب كيد الجاحدين والمعتدلين آمين.

وفي سنة سبعين وتسعمائة ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي قضاء فاس فطالب مدته.

وفادة السلطان الغالب باهله على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السعالي رضي الله عنه

حکی صاحب «الممتع»: «أن السلطان أبو محمد عبد الله الغالب باهله قال للأستاذ أبي عبد الله الترغی^(١): «إني أجد في نفسي إرادة وطلبًا للشيخ فامض فاطلب لي شيخاً فذهب يطوف على مشايخ المغرب، وكانوا إذ ذاك متواقيين، حتى أتى على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى الجزوی، ثم السعالي، فوجده شيخاً جليلًا سنياً متواضعاً زاهداً ظاهر الورع، حسن الأخلاق، باهر الكرامات، واضح الطريقة، جامعاً لمحاسن الخلال والأوصاف، فرجع إليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه، حتى أتى على الشيخ المذكور، فقال: «وهو ولی، ثم ولی، ثم ولی، ثم ولی» سبعاً فقال له: «كأنك تدلني عليه، وأنه مطلوبی، وأنه المقدم على غيره» فقال له: «لا أدلك عليه ولا عندي ما أعرف به تقديره، غير أن هذا الذي ظهر لي» فازمع السلطان الغالب باهله الرحلة إليه، فلما بلغ الشيخ المذكور مجيئه السلطان إليه خرج يتلقاه، وقد هيأ له النزل وما يصلحه، وأعد له ما يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيضة، وقدم إليه الشمر الجيد واللبن الحليب، ولما خرج للقاء أتاه بعضهم بفرس، وكان من عادته أن لا يركب، وإذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه، بل يستصحبه معه ويعمله له حتى يرجع، ففعل ذلك، ولقي السلطان ورجح به معه وأنزله عنده فمكث في ضيافته ثلاثة أيام، ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة إلى الله تعالى، وسأله مع ذلك تعهيد الملك، واعتذر إليه بأنه لا يمكنه العيش بدونه، ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه، فقال الشيخ: «يا عرب، يا ببر، يا سهل، يا جبل، أطيعوا السلطان مولاي عبد الله، ولا تختلفوا عليه». ثم بعد الثلاث انصرف السلطان إلى محله، فبقى مدة وهو مسكن ممهد الملك في عافية.

(١) الترغی باللغة الممتنة ثم الراء والغین نسبة إلى ترغة مرسى قديمة على نحو أربعين كيلومترًا من تطوان. انظر ترجمته في «الممتع» صفحة 130.

ثم أتى الترك إلى بوغاز طنجة وسبته فخافهم وتشوش منهم كثيراً، ولم يهنا له عيش، فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم. فقال: «دعوني منكم حتى أستقي من رأس العين» ثم أبرد بريداً إلى الشيخ. فلما انتهى إليه سمعه يقول: «يا ترك ارجعوا إلى بلادكم، وبما مولاي عبد الله هناك الله في بلادك بالعافية» فتقدم الرسول وسلم على الشيخ، وبلغه سلام السلطان، ثم انقلب من فوره بعد ما ورخ وقت سماع مقالته. فلما بلغ إلى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا يتظرون ما يكون فإذا الخبر قد ورد على السلطان بأن الترك قد ارتحلوا وانصرفوا إلى بلادهم، وإذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة.

ثم إن الشيخ قدم مراكش في بعض الأيام زائراً من كان بها من أهل الله تعالى فرغب إليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه، ويصنع لهما طعاماً وشرط على نفسه أن لا يطعمهم إلا الحلال، ولا يطعمهم ما فيه شبهة، وحلف للشيخ على ذلك فأفسفه، ولما حضر الطعام وضع الشيخ بيده عليه ولم يصب منه، فلما خرج قيل له: «مالك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لا يطعمكم إلا الحلال؟» فقال له: «من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوماً، ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة» أهـ.

ومما ينخرط في هذا السلك: أن السلطان المذكور كان له اعتقاد في الشيخ أبي عمرو القسطلي، وكان يعظمه غاية، وكانت عنده مظللة له من سعف النخل يتنقى بها الحر تبركاً بها، ولما توفي الشيخ أبو عمرو المذكور، وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة، حضر السلطان المذكور جنازته وحثا التراب على قبره بيده.

ومن أخبار السلطان المذكور: أن الشيخ أبي محمد عبد الله بن حسين المغاربي كان ظهر بمراكن وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فأرسل إليه السلطان المذكور: «إما أن تخرج عني أو أخرج عنك» فقال

الشيخ ابن حسين: «بل أنا أخرج» وخرج من فوره إلى تامصلوحت فكان من أمره ما كان.

استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب في ذلك

قد تقدم لنا في أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولوا على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة، واستمروا بهما إلى أن انتزعهما الترك من أيديهم. ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطبع الترك في الاستيلاء على المغرب الأقصى أغري السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الشغور الهبطية وسد أنقابها دونه.

قال في «النזהة»: ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك العژائز وأساطيلهم لا ينقطع ترددتها عن حجر باديس ومرسى طنجة، يعني البوغاز، وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس، ويخليها لهم من المسلمين، فتقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلاً إليه، فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها، ونشوا قبور الأموات وحرقوها، وأهانوا المسلمين كل الإهانة، ولما بلغ خبر نزولهم عليها ولده محمد، وكان خليفته على فاس خرج بجيشه لاغاثة المسلمين، فلما كان بوادي اللين بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم، اهـ.

وذكر اليفرني أنه وجد هذه الأخبار في أوراق مجھولة والله تعالى أعلم.

فتنة الفقيه أبي عبد الله الأندلسي ومقتله

كان الفقيه أبو عبد الله محمد الأندلسي، نزيل مراكش، متظاهراً بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيراً من العامة فتبعوه، وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضي الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهري، ويتفوه بمقالات شنيعة في الدين، فأمر السلطان الغالب باله بقتله: فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصو صبوا عليه، ووَقَعَتْ فتنة عظيمة بمراكش بسببه إلى أن قُتل وصلب على باب داره ببرياض الزيتون من المدينة المذكورة. وكان ذلك أواسط ذي الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة^(١).

ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم

قال في «الدوحة»: «كان الشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعلات وبعد صيته وكثرت أتباعه فغلوا في محبته وأفقرطوا فيها حتى نسبه بعضهم إلى النبوة، قال: «وفشا ذلك الغلو على يد رجل من من صحابه يقال له: ابن عبد الله فإنه تزندق وذهب مذهب الإباضية على ما حكى عنه، واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلال العرب وأهل الأهواء من الحواضر، وتعرف هذه الطائفة باليوسفية» قال: «ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدةعة سوى هذه الطائفة، وسمعت بعض الفضلاء يقول: إنه قد ظهر ذلك في حياة الشيخ أبي العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال: «من قال عنا ما لم نقله ينتليه الله بالعلة والقلة، والمموت على غير ملة».

(١) الصواب أن ذلك وقع سنة 984 انظر «دورة الحجال» في ترجمة أبي عبد الله الأندلسي ص 167 وفي «الدوحة» ص 81: وكان قتله بأمر من السلطان محمد المتوكيل بن الغالب لا من الغالب كما عند المؤلف.

قال صاحب «الدوحة»: «ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين، وهؤلاء المبتدعون ليسوا من أحوال الشيخ في شيء، وإنما فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أنتمهم، وإنما أصحاب الشيخ كأبي محمد الخياط، والشيخ الشطبي، وأبي الحسن علي بن عبد الله دفين تافلات وأنظارهم من أهل الفضل والدين، وإلا فالآئمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعرف له بالولاية والعلم والمعرفة» اهـ.

وقال في «المراة» ما نصه: والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهدایة، وكان كثير التلقين، فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبي: «أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء» فقال له: «قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقنعوا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر» قال الشيخ الخروبي: «فوجدته أوسع مني دائرة».

قال صاحب «المراة»: «وانتسبت إليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراة وهو بريء من بدعهم فما كان إلا إمام سنة وهدى مقتدى به في العلم والدين قد نزهه الله وظهر جانبه، وقد أظهروا شيئاً من ذلك في حياته فتبرأ منهم، وقاتلهم وبلغ المجهود في تشريدهم» قال: «وحذثني شيخنا أبو عبد الله النجفي أن الشيخ أبي البقاء عبد الوارد الصوتى لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم إليه وقع في نفسه من ذلك شيء فقيل له: «إن الشيخ أبي محمد الخياط من أصحابه» وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعينه لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسسة عليه إلا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر، والله يفضل من يشاء ويهدي من يشاء.

احتياج النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور

من مراstash وما وقى الله تعالى من شرها

كان بقصبة مراكش جماعة من أسرى النصارى من لدن أيام أبي العباس الأعرج وأخيه أبي عبد الله الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلوة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة، فحدثهم نفسم الشيطانية بأن يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه، فحضروا في خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملأوها من البارود ووضعوا فيها فتيلًا تسري فيه النار على مهل كي ينقلب الجامع بأهله وقت الصلاة. فنفطرت المينا وانهارت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور، وانشق مناره شقاً كبيراً ولا زال ماثلاً به إلى الآن، وكان ذلك مبلغ ضررهم، وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا. وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب باهله رحمه الله

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي في شرح «درة السلوك»: «توفي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه» اهـ. وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة بالضيق، أعاذنا الله منه، وذكر غيره أنه توفي في شوال بسبب تكلفه للصوم فعدت عليه العلة المذكورة. وشاع على السنة الناس أنه بات يصلّي ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته ميتته وهو ساجد، وذلك كذب، ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الأشراف وقبره معروف. ومما كتب بالنقش على رخامة قبره هذه الأبيات:

أيا زائرٍ هب لي الدعاء ترحماً فلاني إلى فضل الدعاء فقير

وقد كان أمر المؤمنين وملوكهم إلى وصيتي في البلاد شهير ولم يغرن عنني قائد وزیر وزادي بحسن الظن فيه كثير فهو بنيل العقوبة منه جدير إلى ما يظن العبد بي سيصير وها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة تزودت حسن الظن بالله راحمي ومن كان مثلـي عالماً بحناته وقد جاء إن الله قال ترحماً وحـكى أن ابـنه أبا عبد الله المعـروف بالـمسـلـوخ لما قـرأ هـذه الأـبيـات عـاقـبـ نـاظـمـهـاـ وـقـالـ لـهـ:ـ «ـإـنـ فـيـ قـولـكـ:ـ مـلـقـىـ بـحـفـرـةـ دـسـيـسـةـ وـتـلـوـيـحـاـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ:ـ «ـالـقـبـرـ رـوـضـةـ مـنـ رـيـاضـ الجـنـةـ أـوـ حـفـرـ النـارـ»ـ فـهـلاـ قـلـتـ بـلـقـعـ أـوـ نـحـوـهـ»ـ.

بقية أخبار السلطان الغالب بالله وسيرته

كان السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بأحوال الملك وتأن في الأمور، ولما ولـيـ الخـلافـةـ لأنـ الجـانـبـ وـخـفـضـ الـجـنـاحـ وـسـارـ بـسـيـرـةـ حـسـنـةـ حتـىـ صـلـحـتـ الرـعـيـةـ وـازـدـانـتـ الدـنـيـاـ،ـ وـأـنـعـشـ النـاسـ حتـىـ كانـ يـقـالـ:ـ ثـلـاثـ عـيـنـاتـ هـمـ عـيـونـ الزـمـانـ:ـ السـلـطـانـ الـمـوـلـيـ عـبـدـ اللـهـ،ـ وـالـشـيـخـ أـبـوـ مـحـمـدـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ حـسـيـنـ الـمـغـارـيـ،ـ وـالـشـيـخـ أـبـوـ السـرـورـ عـيـادـ السـوـسيـ.

قال اليفرني: ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الأعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمن التلمساني إلى قاضي الجماعة أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني يقول فيه: «ولا شك أن مولاي عبد الله مجـمـعـ علىـ عـدـالـتـهـ وـبـيـعـتـهـ»ـ وقد أخـبـرـنـيـ الثـقـةـ مـنـ أـصـحـابـ الشـيـخـ الجـامـعـ أـبـيـ العـبـاسـ أـحـمـدـ بـنـ مـوسـىـ السـمـلـالـيـ أـنـهـ قـالـ:ـ «ـمـوـلـاـيـ عـبـدـ اللـهـ يـاقـوتـةـ الـأـشـرـافـ هـوـ صـالـحـ لـاـ سـلـطـانـ»ـ وقد اشتهر بين الأنام وعلى السنة الخاص والعـامـ أـنـ السـلـطـانـ الغـالـبـ بالـلـهـ كـانـ عـدـلـاـ صـالـحـاـ وـوـقـعـ فـيـ الرـسـالـةـ

التي كتب بها ابن أخيه السلطان أبو المعالي زيدان بن منصور إلى الفقيه أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاجي ما ظاهره يخالف ذلك، ويؤذن بأنه كان كغيره من الملوك، ونص المحتاج إليه من تلك الرسالة مخاطباً للفقيه المذكور يقول: «وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى السعدي كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته، وقد كان على عهد مولانا عبد الله برد الله ضريحه، وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه، وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه، وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل، وكان شرد منه إلى زاويته المرابط الأندلسي وولد آصناك وأمثالهم، وكان الشيخ يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب، ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته. وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره، ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سبباً لفتح الفتنة، وكان قواد المذكور مثل وزير ابن شقراء، وعبد الكريم بن الشيخ، وعبد الكريم بن مؤمن العلج، والهبطي، والزرهوني، وعبد الصادق بن ملوك، وغيرهم من لا يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمموا في شرب الخمور واتخاذ الق bian ويسقط الحرير وغير ذلك من آلات الفحضة والذهب، وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين، والشرقي، وأبو عمرو القسطلي، وأبو محمد بن إبراهيم التامناري، والشيخاني، وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعى هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم، فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة، ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الأمر وقادرة الأجناد من ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع إليهم في تدبيره» اهـ القدر المحتاج إليه من الرسالة المذكورة.

قال اليفرني: قويمثل هذا ما ذكر بعضهم: أن السلطان الغالب بالله أعطى حجر باديس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك عنه، ومثله ما ذكر عنه أيضاً: أن قائد ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من الغد فكتب إليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك، ونظيره أيضاً قضيته مع أهل غرناطة

وأطال فيها هذا البعض المنشول عنه بما استنكرت من ذكره هنا، قال: «وهذه أمور شنيعة إن صع أنه فعلها ولست أدخل في عهدها لأنني إنما رأيتها في أوراق مجاهلة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعودية وظنني أنها من وضع بعض أعدائهم لحظة من قدرهم وإخراجه إياهم من النسب الشريف، ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة، فلذا تجنبت منهم كثيراً من الأخبار التي لا تظن بأولئك السادة رحمهم الله، فقد قال الشيخ تاج الدين السبكي رحمة الله في طبقاته: «إن المؤرخين على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أغراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصباً أو جهلاً أو اعتماداً على نقل من لا يوثق به» قال: «فعلى المؤرخ أن يتقي الله تعالى» اهـ. إلا أن الملوك لا يستغرب في حفهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم، ويستهونوا عظام الأمور لتطييعهم الرعية ساعة، كيف لا وشرع أثذتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقي سفينته قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى، والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الأمة بمته وفضلهم» اهـ. كلام الفرنسي رحمة الله.

ومن وزراء السلطان الغالب بالله: ابن أخيه الأمير الأجل الأديب الأحلب أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أ Nigel الوزراء والطفهم مسلكاً وأخفهم روحـاً. وله عارضة في النظم والنشر.

ذكر الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسي في كتابه: «الأعلام» من ماضى وغيرـ، من أهل القرن الحادى عشر» ما صورته: «قدم الوزير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدي من مراكش إلى فاس، ومعه الفقيه قاضي الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميـيـ، والفقـيـه الإمام أبو العباس أحمد المنجور، فلما تبدـت لهم معـالـم فـاسـ الجـديـدـ، «وتـلـظـى لـلـشـوقـ فـي جـوـاتـهمـ أـوارـ».

«وابـرـحـ ما يـكـونـ الشـوقـ يـوـمـاـ إـذـ دـنـتـ الـدـيـارـ مـنـ الـدـيـارـ»
وأنـشـدـ الـوزـيرـ المـذـكـورـ لـفـسـهـ اـرـجـالـاـ:

أـخـلـاتـيـ هـذـاـ الـمـسـتـقـىـ وـرـبـوـعـهـ وـهـذـيـ نـوـاعـيـرـ الـبـلـادـ تـنـوـعـ

وذلك المصلى مطرح الشوق والأسى
وقال القاضي الحميدي ارتجالاً:

ول تلك منازل الديار تلوح
بهن غوان طرفهن جموج
يمسن كاملود من الروض يانع
شذاهن من حول الديار يفوح
قال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالاً أيضاً:

ويرفلن في الحالات يختلن في الحال
وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
لإقبال حب طال منه نزوح
ولما بلغت الآيات إلى الأستاذ أبي العباس أحمد الزموري قال مذيلاً:

تأمل سنا الحسناء تحت قبابها
كشمس غدت تحت السحاب تلوح
تحلت ريوغ المستقى بجمالها
وأنت إلى تلك القباب تروع
وي بعضهم جعل البيتين الأولين للمولى الأديب أبي محمد عبد الواحد بن
أحمد الشريف السجلماسي، وكان كاتباً للوزير المذكور، ويجعل موضع
أخلاقي أملاي، والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم، والمستقى بصيغة
اسم المفعول اسم بستان معروف.

ونظير هذا ما ذكره الأديب المذكور في أعلامه المذكور. قال: كان
الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف في بعض الأسفار،
وأرسلت السماء بغيثها المدرار، فقال الوزير المذكور:

لله أشكو غداة السفح إذ ركضت
أيدي المطابا وحادي الرياح يحدونا
فأجابه الكاتب المذكور:

باسهم الودق لا ينفك يرمينا
والغيم في الأفق قد أرخي ذوابه
قال الوزير:

معالم الرشد لا خربت يهدينا
فطلت الخيل في الأمواج سابحة
قال الكاتب:

والشوق يحدو بنا والحال يقصينا
والنفس في قلق لبين مألفها

قال الوزير:

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا حتى غدا الطير فوق السرح يغشينا
وأخبار هذا الوزير ونواصره كثيرة، وهو الذي أخرجبني راشد من مدينة
شفشاون حسبما مر، وكانت وفاته في العشرين من جمادى الثانية سنة خمس
وسبعين وتسعمائة.

ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضاً: القائد عبد الكريم بن مؤمن بن
يحيى العلوج الجنوي، وعبد الرحمن بن تودة، وقاسم الزرهوني، وأحمد
الهبطي. ومن ولاة مظالمه: أبو عمران موسى بن مخلوف الكنوسى، وهو
والى الشرطة وكان فقيهاً مشاركاً.

وذكر بعضهم: أن الشيخ الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السماللي
كان في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله^(١) قد انحضر الناس لزيارته
بزاورته، فوقف أبو عمران المذكور يندوّد الناس عنه ويقول: «رحمكم الله من
زار خرج» فسمعه الشيخ فقال له: «لا تقل ذلك وقل: من جار خرج» ومن
كتاب السلطان المذكور: محمد بن عبد الرحمن السجلمامسي. ومحمد بن
أحمد بن عيسى وغيرهما. ومن قضايه بمراكش: الفقيه قاضي الجماعة أبو
القاسم بن علي الشاطبي، وبفاس أبو عبد الله الغوفي، وأبو مالك عبد
الواحد الحميدي رحمهم الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكّل على الله ابن السلطان عبد الله الغالب بالله ورحمه الله

لما توفي السلطان الغالب بالله بحضوره مراكش كان ابنه محمد هذا
بنفاس، وكان ولـي عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش، واستأنفوا له

(١) الذي في «القواعد» أن الموقوف عليه هو السلطان محمد الشيخ بتارودانت والذي كان يندوّد
الناس هو صاحب شرطته الأمير أبو زكريا بن الغازى انتظر ذلك في النصيحة التي
وجهها المؤلف أبو زيد التمارتى لأبي حسون المعروف بأبي ديمعة لما قام بالرسوس أهـ.

البيعة، وكتبوا بها إليه، فوصلت إليه وهو يغاص أواially شوال سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فإيده أهل فاس وتم أمره.

قال ابن القاضي: أمه: أم ولد، وكتبه: أبو عبد الله، ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة: بالمسلوخ لأنه سلخ جلد وحشى تبناً كما سياتي.

وكان مما وقع في أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبي غاص من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء، وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى سنة اثنين وثمانين وتسعمائة، وفي هذه الواقعة استشهد الشيخ أبو مهدي عيسى بن الحسن المصباحي دفين الدعاع على وادي مضي من عمل القصر، فإنه حمل بعد استشهاده إلى الموضع المذكور فدفن بزاية قبر أبيه في الروضة التي هنالك.

واستمر أمر أبي عبد الله المتوكل منتظمًا إلى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة، فقدم عليه عميه عبد الملك ابن الشيخ بجيشه الترك فنشر سلكه ويدد ملكه على ما ذكره. ويقال: إنه كان أضمر الفتاك بعميه أحمد وعبد الملك ففرا منه إلى ناحية الترك على ما سياتي. قالوا: وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والشعر، وكان مع ذلك متكبراً تياماً غير مبال بأحد، ولا متوفقاً في الدعاء عسفاً على الرعية، ومن شعره قوله:

فقم بنا نصطحب صهباء صافية
وانهض إليها على رغم العدا قلقاً
ومن شعره أيضاً قوله:

ساروا فسار فؤادي إثر ظعنهم
ولخلفوني نحيل الجسم حيراناً
لا افتر ثغر الشري من بعد بينهم ولا سقى هاطل ورداً وريحاننا
وكان خليفة بمراكش: القائد ابن شقراء، وحاجبه: أحمد بن حمو الدرعي، وكتابه: يونس بن سليمان الشامي، وعلي بن أبي بكر، وغيرهما، رحمهم الله تعالى.

الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم باشہ ابن محمد الشيخ وأولية أمره وماله

كان أبو مروان عبد الملك بن أبي عبد الله الشيخ السعدي، وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد: بالمنصور، مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما، فلما توفي وولي الأمر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد إلى تلمسان خوفاً على أنفسهما منه، فأقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصار نالثة الأثافي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الجزائر، ومنها ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية متظارحاً على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمة الله، فأمده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتي.

ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع إلى بقية أخبار السلطان أبي مروان المعتصم بالله لأنها تبني على ذلك فنقول: أعلم أن أمربني أبي حفص أصحاب تونس كان قد مرج في هذه المدة وتداعى إلى الاختلال، وكان خير الدين باشا التركي المقدم ذكره في أخبار تلمسان قد استولى على تونس في حدود الأربعين وتسعين وغلب عليها صاحبها الحسن بن محمد الحفصي، ففر الحسن المذكور إلى طاغية الإصينيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها إلى تونس، فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادي، وتقدموا إلى تونس فملكونها، وأنهزم خير الدين إلى الجزائر، وشارك النصارى الحسن بن محمد في إمرة تونس، واستباحوا أهلها قتلاً وأسراً ونهباً، يقال: إنهم قتلوا من أهل تونس المثلث، وأسرعوا المثلث، وأبقوها المثلث، وكل المثلث ستون ألفاً هكذا عند صاحب الخلاصة الندية، ثم ملكوا الموضع المسمى: بحلق الوادي وليس هناك وادٌ عنيب وإنما هو جونٌ دخل من البحر في البر وعليه مرسى تونس، ثم بنى النصارى في الملحق المذكور حصناً عادياً أقاموا في بنائه نحو ثلاثة وأربعين سنة، بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد.

ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو: حميدة. وملك الحضررة مدة وقاتل نصارى حلق الوادي فامتنعوا عليه، ثم غزاه علي باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها، فذهب أحمد إلى طاغية قشتالة مستغيثاً به شأن أبيه من قبله، هذا كله ونصاري الحلق لا زالوا متمكنين منه أي تمكين، فأمد الطاغية أحمد المذكور بأسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه.

ولما وصل الأسطول إلى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة في الحكم، فأنكر أحمد ذلك وأنف منه، وذهب إلى صقلية فبقي بها إلى أن مات وحمل إلى تونس. وكان هنالك آخره محمد بن الحسن فرضي بالمقاسمة ودخل بالنصارى إلى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصراني بها، وانتهت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتکدر المشرب وتفرق الجمع، وارتبطت خيل العدا بالجامع الأعظم وألقيت ما فيه من نفائس الكتب بالطرق ونبش قبر الشيخ أبي محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه إلا الرمل حماية من الله له، وحاشا أن تعدو الأرض على جسد مثله، وأرسل محمد بن الحسن إلى الناس بالأمان واستمالهم النصراني بعد بكاذب الرفق، فأقاموا بدار مذلة وهوان.

واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثماني فأعظمه، وجهز العمارة للحرين مع الوزير سنان باشا يقال: كانت أربعيناثة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية، وهي إسطنبول، غرة ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعين، ووصلوا إلى حلق الوادي في الرابع والعشرين منه، وكان حيدر باشا صاحب القيروان، ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم، فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصوصبوا عليه، وتقدموا إلى الحصن الذي بحلق الوادي فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة، أعني سنة إحدى وثمانين وتسعين، واستلهموا من به وغنموا ما فيه، والتجأ محمد بن الحسن الحفصي وأنصاره من النصارى إلى البستيون، وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس، فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه

عنوة. وقتلوا من به، وامتلأت أيديهم من المغانم، وطهر الله بهم البلاد، وكانت إحدى الوقائع الجليلة القدر، الباقية الذكر، وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه إلى السلطان سليم فأعتقله في يد قلة أحد حصونه حتى هلك، وانقرضت بمهلكه دولة بنى أبي حفص التي هي بقية الموحدين.

إذا علمت هذا، فاعلم أن استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر، لأن وفاته كانت في آخر رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة كما مر، وفتح تونس كان في جمادى الأولى من السنة المذكورة. ووقع في «النزهة»: أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وهو غير صواب، والله تعالى أعلم.

مجيء السلطان أبي مروان عبد الملك بن الشيخ السعدي بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب

اعلم أنه وقع في «النزهة» وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانوا في ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفي أبوهما وولي أخوهما الغالب بالله لحقاً بتلمسان فأقاما بها مدة ثم انتقلا إلى الجزائر، فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولايته ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثماني في أن يمده بجيش ليملك المغرب، فتناقل عنه العثماني إلى أن بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح، وعاد إليه بالبشرة فأسعفه، وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدماً على وفاة الغالب بالله كما مر، اللهم إلا إذا كان عبد الملك وقد على العثماني مستعدياً على أخيه الغالب بالله، وفي أثناء ذلك توفي وولي ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحاً، وأما ما في «النزهة» مما يقتضي تأخر فتح تونس عن وفاة الغالب بالله فغير صواب كما مر.

ولنذكر ما حکوه من ذلك فنقول: لما بُویع السلطان أبو عبد الله محمد

المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر، فركبا البحر إلى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمة الله، ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية، وزعم بعضهم أن التي كانت معهما مسعودة الوزكية، وهي أم أحمد منها، فانتهيا إلى القسطنطينية وتعلقا بكراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم، ودخلت أمهما داره، وطلبوها منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغرب، ويقوموا فيه بدعوه، فتناقل عنهم مدة إلى أن كان الغزو إلى تونس فكتب السلطان سليم إلى أهلالجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم لحصار تونس مع العمارة الموجهة من قبله، فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي، وهو صاحبالجزائر، أن يجعل لهما رئاسة قرصان منهما يتوجهان فيه للجهاد معه، فأعطاهما غليوبطة فيها ستة وتلائون رجلاً فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكبالجزائر. هكذا وقع في سيادة هذا الخبر، وهو يقتضي أنهما كانوا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية، فلعلهما عادا إليها من عند السلطان سليم إلى أن سافرا في جملة عسكرالجزائر والله تعالى أعلم، ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركيبين يتوجهان بكتاب الفتح إلى السلطان سليم، فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما في الذهاب معهما بالغليوبطة ليأتيا بأمهما التي تركاها هنالك، فلم يزالا بالرئيس المذكور حتى أسعفهما. فكان من قدر الله تعالى أن هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم، ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا للمركيبين أثراً فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا إلى القسطنطينية قبل المركيبين بثلاث.

وأتصل خبرهما بالصدر الأعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس، وقصا عليه الحديث من البدء إلى التمام، فأعلم السلطان سليم بما بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فأخبراه، وسألهما عن كتاب الفتح فقالا: «إن أمير العمارة قد بعث به مع مركيبين صحبتاهما إلى أن فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك».

ولما رأيا من السلطان سليم تنازاً واهتزازاً لكلامهما طلبوا منه في بشارتهما أن يبعث معهم العساكر إلى المغرب، وشفقاً في إتزال رأس والدهما ودفعه فقبل شفاعتهما، ثم أمر بهما إلى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما، وبعث إليهما بالأم التي كانت هناك وأرجأ أمرهما إلى قدم الخبر اليقين، وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح، وظهر صدق الملك عبد الملك وأحمد، فحيثند أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالاً وسلاحاً وزاداً وكتب لهما فرماناً للدولاتي صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الأقصى.

ولما قدمما على الدولاتي بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا: علينا الرجال وعليهما المال، وهذه عادتنا مع السلطان، ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الآغا والوكيل وأهديا إليهم ورغباً منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه في وجهتهما تلك إلى أن يبعثنا به إليهم من المغرب، فسهلا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج إليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه إلى أن يرجع، وأشهدوا عليهما بذلك في دفتر فقبلاً وأعطوا خطوطهما به، ثم نهض عبد الملك وأخوه إلى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما، وكتب عبد الملك إلى شيعته بالمغرب يعرفهم قدمه ويعدهم وينهيهم إلى أن كان من أمره ما كان.

وساق اليقرني هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال: «لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشرارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني قبلت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطيتها السلطان المذكور والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهب معها إلى المغرب، فأعطياها ذلك، فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتتمكن ما كان بيد آبائه فطالب به أهل الجزائر بالراتب، فقال لهم: أسلفوني وعلي القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة، وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف».

وقال في شرح «الدرة»: «إن عبد الملك طلب من رئيس الترك أن يعينه

بحصة منهم توصله إلى تخم بلاده ليدخلها إذ الجندي كله جند أبيه لا يمكن أن يقاتلوه ويضرروا في وجهه لتعظيمهم إياه فأسعفه على مراده، وأرسل معه عصابة وحصة قليلة، فأقبل بهم حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالركن من أحوال فاس، فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه، ولما التقى الجماعان نزع رئيس جند الأندلس سعيد الرغالي إلى عبد الملك، وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤوس أجناده وبعد طائعهم، ويعود عاصيهم، فلما سمع المتوكل بما فعله جند الأندلس فت ذلك في عضده وفشل ريحه وأيقن بالنكبة ظناً منه أن جنده كله سيفعل فعل الرغالي، فكان ذلك سبب جزعه وفراوه من المعركة وسبب خراب ملكه وإقامة ملك عمه، ويقال: إن بعض الجندي لما سمع بأن القائد جرمون وأولاد عمران نزعوا إلى عبد الملك أيضاً جاء إلى المتوكل وقال له: «إن القائد ابن شقراء قد غدر وفر إلى عبد الملك» وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه، فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزاً، وانتهت خزائنه، وأوقد فيها النار، ونفط ما كان بها من البارود حتى رأى من رؤوس الجبال.

ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فأخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه إلى مراكش لا يلوى على شيء فلحق به القائد ابن شقراء بوادي النجاة على مقرية من فاس وأغلظ له في القول ولامه على عدم التأني والشتت، وكان أمر الله قدرأً مقدوراً.

استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك

لما انهزم المتوكل بالركن وأجلل إلى مراكش تقدم عمه أبو مروان إلى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ثلاثة وثمانين وتسعين من باب الفتوح، وبعد أن دخلها وبايده أهلها أقام بها أياماً ثم طمحت نفسه إلى اتباع ابن أخيه إلى مراكش، ولما عزم على النهوض إليه

طالبه الترك بأن يردهم إلى بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه، وهم يسمونه بلغتهم: البقيش فيذل لكل واحد منهم أربعينات أوقية، واستسلف المال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله، فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهن عشرة من الأنفاس، منها: النصف الكبير الذي له عشرة أفواه، وزادهم من تحف المغرب وطرفه ما سلى به نفوسهم، وركب لزداتهم بنفسه إلى نهر سبو، ثم رجع إلى فاس.

وفي هذه المدة قبض على قاضيها الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي لأمر نقمه عليه وأودعه السجن، فبعث الفقيه المذكور أولاده إلى الشيخ الصالح أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله، فكتب إليه الشيخ أبو النعيم يحضره على الاستشفاع بالنبي ﷺ والاستمساك بحبله لأنه باب الله الأعظم فقبل القاضي إشارته، وتوجه إلى ربه بكليته، فأتاه الفرج من حيث، رحم الله الجميع بمنه.

نهوض السلطان أبي مروان إلى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن أخيه إلى السوس وما نشا عن ذلك

ثم إن السلطان أبي مروان نهض من فاس في جنده الذي أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف إليه من جند ابن أخيه وتقدم إلى البلاد المراكشية قاصداً حريه وتشريده عنها، ولما سمع ابن أخيه بخروجه إليه وقصده إيه تهياً لمقابلاته وسار إلى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادي شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضاً على المتوكل، وفر برأس طمرة ولجام، وأجلف كعادته إجفال النعام، وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ، فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه إلى مراكش فر عنها إلى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائباً عن أخيه، وأخذ له البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبي مروان فدخلها يوم الاثنين

تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين وتسعمائة وأقام بها أياماً، ثم خرج في طلب ابن أخيه فعميت عليه أبناه وسقط بين سمع الأرض وبصرها، فعاد أبو مروان إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان من أمره ما ذكره.

استخلاف السلطان أبي مروان لأخيه أبي العباس أحمد على فاس وأعمالها

لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم إليه آخره أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها، فأجابه إلى ذلك وولاه عليها ظناً منه أن أمر المغرب قد صفاله، وإن المتوكل لا يعود إليه، وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي حاضراً للطلبة والخطبة، فأنكر ذلك ولم يره صواباً، وقال: «لا ينبغي لكما أن تقدعا حتى يحكم الله بينكم وبين ابن أخيكم، ففاظ ذلك أحمد وظن أنه من سوء رأي عبد العزيز فيه وبفضله لجانبه، فأعرض عن مقالة الوزير المذكور، وذهب إلى فاس خليفة عليها، وبقي السلطان أبو مروان بمراكش.

وفي هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لأخيه أحمد برسالة يقول فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَهْلِ وَصَاحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيْمًا، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ الْمُعْتَصِّمِ بِاللَّهِ، الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيهِ مَرْوَانَ عَبْدَ الْمُلْكِ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ الشَّيْخِ الشَّرِيفِ الْحَسَنِيِّ أَيْدِيهِ اللَّهُ وَأَعْزِ نَصْرَهُ وَأَسْعَدْ زَمَانَهُ الْمَبَارِكِ وَعَصْرَهُ وَأَبْقَى بِمِنْهُ فَخْرَهُ مِنْ إِمْلَاقِهِ أَيْدِيهِ اللَّهُ وَنَصْرَهُ، إِلَى أَخِيهِنَا الْأَعْزَى الْأَحْظَى بَابَا أَحْمَدَ حَفَظَهُ اللَّهُ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَمَّا بَعْدُ فَاعْلَمُ أَنِّي لَا أَحْبُ أَحَدًا بَعْدَ نَفْسِي كَمْحِبِّي لَكَ، وَرَغْبَتِي فِي انتِقالِ هَذَا الْأَمْرِ بَعْدِي إِلَيْكَ لَا لَغْيَرِكَ، غَيْرُ أَنِّي أَعْتَادَ مِنْكَ التَّرَاجِي فِي الْأَمْرِ حَتَّى أَنْكَ لَا تَبَالِي بِعَظِيمِ الْأَمْرِ وَلَا تَعْتَبِرُهُ، إِلَى أَنْ يَتَطَرَّفَ إِلَى مَا لَا يَتَلَافَى جِبْرَهُ، مِنَ الْأَمْرِ الَّتِي تَكَادُ لَوْلَا لَطْفَ اللَّهِ تَذَهَّبُ بِهَا الْمُلْكُ وَتَهْدُ أَرْكَانَهُ، وَيَلْعُجُ الْعَدُوُّ مَعَهَا مِنَاهُ وَمَرَادَهُ، مِنْ ذَلِكَ التَّرَاجِي إِهْمَالُكَ أَمْرُ الْجَنْدِ الَّذِي

بالعرائش، وإغفالك له مع ما يترافق عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة إليه من المؤونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك، وجعلت تقابل خطابهم بالإهمال وعدم العبالاة، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك أبعث إليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل إن شاء الله فيقمع التدبير فيما يحتاجون إليه زائداً على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا تقبل منك عنراً في هذه المسألة التي لا تحتاج إلى الإهمال، ولا بد ولا بد، فقد بلغنا أن صاحب النصاري يقرب أصيلاً في خمس عشرة مائة من النصاري، وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أرديمة الصغار، ويرجع ساعة رؤيته إلى عادته من الذل والفرار، فاتتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة، فإن الساعة لا تقتضي إلا الحزم، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم، والسلام، اهـ.

ظهور أبي عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه إلى مراكش واستيلاؤه عليها

كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره من مراكش يجول في جبال السوس ويتنقل في قبائلها وأحياناً إلى أن اجتمع عليه طاقفة من الصعاليك وتأشب عليه ما يشبه أن يكون جيشاً فاستهولتهم منه الأضاليل وقادهم قود الملك الضليل وجاء بهم إلى مراكش. فسمع به السلطان أبو مروان فخرج للقاء فخالفه المتوكل وسلك طريقاً غير طريقه، وفجأاً غير فجه، وقصد مراكش فدخلها⁽¹⁾ باتفاق أهلها ونصره وكتبوا له البيعة إلا أنه لم يتمكن من القصبة،

(1) سنة 84 وفي هذه السنة كانت فتنة أبي عبد الله الأندلسي ومقتله كما ذكره المؤلف فيما سبق. انظر الدوحة صفحة 81.

لأنَّ السُّلطان أباً مروان كان قد ترك بها أخيته السُّتْ مريم في نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنتوا بها وبلغ الخبر أباً مروان باستيلاء الموكِل على مراكش فرجع عوده على بدنه إلى أن وافى الحضرة، فحاصره بها وكتب إلى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها، فأتاه به أحمد مسرعاً.

وما انتهى إلى مراكش اجتمع بالوزير أبي فارس الوزكيتي فقال له: «أوقفت على الرأي؟ أول الفكرة آخر العمل!» فباتت لأحمد نصيحته وزال ما كان يختجل بصدره عليه.

ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم الموكِل شيعته من أهل مراكش وفر إلى السوس فبقي أهل مراكش متـادين على الحصار إلى أن اتفق السُّلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فأدخلوه من بعض الأسوار والأنقاب، ولما فر الموكِل إلى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أثارَ الله فيها النصر للمنصور، منها: وقعة تيزرت التي أنسدَه فيها وزيره الكاتب أبو الحسن علي بن منصور الشيشيـمي الـبيـتين اللـذـين قالـهـما فيـهـ الكـاتـبـ أبو عبد الله بن عيسى وهـما:

هو الغيث والبحر الغطـمـطـمـ فيـ النـدىـ
وليـثـ إـذـاـ جـدـ الطـعـانـ هـصـورـ
يـفـوـقـ السـهـامـ عـزـمـهـ وـانـبـاعـاـثـهـ
ويـقـصـرـ عـنـهـ فـيـ الشـبـاتـ ثـبـيرـ
فـأـجـابـهـ أـحـمـدـ الـمـنـصـورـ بـيـتـيـ أـبـيـ فـارـسـ الـحـمـدـانـيـ وـهـماـ:
وـنـحـنـ أـنـاسـ لـاـ توـسـطـ عـنـدـنـاـ
لـنـاـ الصـدـرـ دـوـنـ الـعـالـمـيـنـ أوـ الـقـبـرـ
تـهـونـ عـلـيـنـاـ فـيـ الـمـعـالـيـ نـفـوسـنـاـ
وـمـنـ خـطـبـ الـحـسـنـاءـ لـمـ يـغـلـهـ الـمـهـرـ
وـمـنـهاـ الـوـقـعـةـ الـتـيـ بـعـدـهاـ بـأـسـاطـيـنـ الـمـنـصـورـ وـهـوـ فـيـ نـحـوـ ثـلـاثـةـ أـلـافـ
وـالـمـوـكـلـ فـيـ نـحـوـ سـتـينـ أـلـفـاـ وـمـعـ ذـلـكـ هـزـمـهـ الـمـنـصـورـ.

قلت: كانَ أَحْمَدَ الْمُنْصُورَ هَذَا مَجْدُودًا، مَحْظُوظًا مَسْعُودًا، بِحِيثُ أَرِيتُ سُعادَتَهُ عَلَى شَجَاعَتِهِ، وَمَا كَانَ أَخْوَهُ عَبْدُ الْمُلْكِ يَسْرِي إِلا فِي ضَوءِ طَلَعَتِهِ وَيَمْنَ نَقْيَبَتِهِ، فَلَذَا كَانَ يَقْدِمُهُ فِي الْحَرَوبِ وَيَسْتَكْفِي بِهِ فِي نَوَازِلِ الْخَطُوبِ، وَمَنْ سُعادَتَهُ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي ذَهَابِهِ إِلَى الْعُثْمَانِيِّ بِخَبْرِ الْفَتْحِ وَتَقْدِيمِهِ

قبل الكتاب بثلاث حتى تمنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سبيلاً في استيلائهم على المغرب، وستسمع في أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال إن شاء الله. وأما أمر المتكول فإنه بعد توالي الهزائم عليه فر إلى جبل درن وتغل في قنته ثم فر منه إلى باديس فأقام بها مدة ثم ذهب إلى سبتة ثم دخل طنجة مستصرحاً بعظم البرتغال، والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المقال.

الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبي عبد الله محمد بن عبد الله السعدي لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال، وأسمه سبستيان، بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون الناء القريبة من الطاء، وهو طاغيتهم الأعظم، وليس قائد الجيش فقط على ما هو المحقق في تواريختهم، وتطارح عليه وشكراً إليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم بالله وطلب منه الإعانة عليه كي يسترجع ملكه. وينتزع منه حقه، فأشاكاه الطاغية ولبني دعوته وصادف منه شرهاً إلى تملك سواحل المغرب وأمصاره، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزم، وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج إلى بلاد الإسلام.

ومن المتواتر في تواريخته: أن كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغريب ببيضة البرتغال وتوريطها في بلاد المغرب وقبائله، فقسم عن سماع قولهم ولح في رأيه، وملك الطمع قلبه، وأبى إلا الخروج فأسعقوه وخرج من طنجة في جيش، قال ابن القاضي في «المتنقى المقصور»: «عدهه مائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً»، وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن» يقال: إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفاً وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل. وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه، قال بعضهم: وكان عدد الأنفاس التي يجرؤنها مائتين،

وقد صدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين، وإدارة رحى الهوان على الدين، فعظم ذلك على الناس وأمتلأ صدورهم رعباً وقلوبهم كرباً، وبلغت القلوب الحناجر، وانقادت بها نيران الهواجر، وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتغال إلى بلاد الإسلام رسالة بعث بها إلى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوي رأيه يغمض عليهم بها في نكث بيته ونقضها، ومباعدة عمه من غير موجب شرعي، وقال لهم: «ما استصرخت بالنصارى حتى عدلت النصرة من المسلمين» وقد قال العلماء: «أنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه». وتهددهم فيها وأبرق وأرعد. وقال: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله» وسمى النصارى: أهل العذرة واستنكف من تسميهم نصارى، فأجايه علماء الإسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفاً حرفاً: «الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلوة والسلام على سيدنا محمد خير أئيائه وإرسله، والرضى عن الله وأصحابه، الذين هجرروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به، حتى أمس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

ويعد: فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنّة، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب، قاتلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب، لورجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنت المحجوج والمصاب، فقولك: خلعننا بيعتك التي التزمتها، وطوقتها أعناقنا وعقدناها، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع، وإنما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه، وعلى سبيل الحق وتحقيقه، وستشرح لك ذلك ونبيته، ونسطره لك بالأدلة الشرعية التي ترقية وتزيينه، نعم كنت سلطاناً بما عقد لك والدك من البيعة، وترك لك من الأموال والعدد والمحصون مما لم يتھياً مثله لأحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم، فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده، حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله ومحصون بلاده،

وأسسوا لدين الله قواعد وأركانًا، وملكوا من المغرب بلادًا معتبرة وأوطانًا، فلما وصل ذلك إليك ألقى إليك العباد أعتها، وملكتك أزمتها، غير مبدلين ولا مغيرين، ولا باعرين ولا منكرين، إلى أن قام عليك عملك بحجته التي لا يمكنك جحدها، حسبما ثبت كما يجب عقدها، فخرجت مبادرًا له بدفعها، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها، وحامل راية عهدها، وعمك في فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندًا من جنودك، أو يدافع ما تحت لواء من آلوبتك وبنودك، فما هو إلا أن جرى القتال، وحضر النزال، رجعت على عقبك هاربًا هروب مطرود بقصاصن، وجنودك تناديوك ولا ت حين مناص، فتركك عددك ومحلك بكل ما فيها، وخلفتها لعدوك ينهياها ويسبيها، وهررت عن مدينة فاس المحروسة وسكنها ينادونك: لمن تركتنا وإلى من تكلنا؟ فلم تلتفت إليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الأموال والعدد الوفرة والرجال والأسوار المرتفعة المانعة، والمدينة المشهورة الجامحة، فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تزيد أن تمتد إلى الحرير والأولاد، والطارف والتلايد، ولا دافع عن الضعفاء والمساكين إلا الله تعالى الذي قال في مثلهم: ﴿وَمَنْ أَصْنَدَ فِيمَا لَهُ قِيلَاء﴾ [النساء: 122]، ﴿لَا يَسْتَطِعُونَ جِلَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، [النساء: 98] فما أمكنهم بعد هروبك عنهم وإسلامك لهم فوضى مهملين إلا النظر في أمرهم، وإعمال الفكر في التدبير على أنفسهم، في بينما هم على ذلك إذا بعثك بجنوده على باب مدinetهم قائمًا بحجته، سالكًا في ذلك سبل أبيه رحمة الله ومحجته، حسبما تقرر ذلك عندكم وظاهر، ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر، إذ كان مولانا محمد الجد الأكابر عهد لأولاده مولانا أحمد، ومولانا محمد الشيخ إخوانهم، لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلا الأكابر فالأكابر، فالالتزاموا بذلك إلى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع، فقاتله على ذلك حتى تم له الأمر وانتظم، فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده، فلم ينزعه أحد في ذلك إلى أن ألقى والدك رحمة الله ذلك، وعهد إليك فلم ينزع عهتم أحد، فأبى الله إلا الحق فأعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك، فإن سلمت هذا فأي حجة تدلني بها وأي طريق

تعتمد عليهما؟ وإن أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجذك من قبله لشبوتها لعمكم مولانا أحمد، إذ لا حجة حينئذ لجذك في القيام على عملك، فخلافته صحيحة لبيعة جذك له، فلم يبق إلا التغلب الذي تدللي به في مسألة عملك وفي قيامه عليك، فإن كنت ت يريد أن تسقط حجته بالتأغلب عليك فحجتك أبين في السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك، إذ المدعوم شرعاً كالمعدوم حسناً، فلم يبق بينكم إلا: «والملك بعد أبي ليلى لمن غلباً» فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا العبد رحمة الله، وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك إذ هو أكبركم في هذا التاريخ.

فإن قلت: إن ما عقده العبد غير صحيح، قلنا: فقد ذكر الإمام الماوردي رحمة الله ورضي عنه في كتاب الأحكام السلطانية له في باب عقد الخلافة: أن عبد الملك بن مروان رتبها في الأكبر فالأكبر من بنيه فلم ينزععه أحد في ذلك.

فإن قلت: فعل عبد الملك ليس بحججة، قلنا: سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجة، إذ لا يمكن أن يسكنوا على باطل، وإنكار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الإجماع الذي هو حجة الله في أرضه، وكان أيضاً من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الإمارة ما نصه: قال رسول الله ﷺ: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيمة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان ابن فلان، ألا ولا غادر أعظم غدرأ من أمير عامّة»، قال القاضي: أبو الفضل عياض رحمة الله في كتاب إكمال المعلم على شرح فوائد مسلم: «يعني لم يحظوهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذي تقلده من أمرهم» وفي الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه: «ما من أمير استرعاه الله رحمة ثم لم ينصح لهم إلا لم يربح رائحة الجنة، وإن ربحها ليوجد من مسيرة خمسة وعشرين عاماً». وفي «إكمال» نفسه قال القاضي: «والذي عليه الناس إن القوم إذا بقوا فوضى مهملين لا إمام لهم فلهم أن يتلقوا على إمام يباعونه، ويستخلفونه عليهم يتصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود».

فلما أسلتمهم وأضحوها بغیر إمام وعمك يدلي بحججه التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي ﷺ وكلام السلف الصالح، وأيسوا من رجوعك إليهم، ويقروا فوضى مهملين لم يسعهم إلا الرجوع إلى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها إلا على وجه المكابرة، فاطمأن الناس وسكنوا وافتتحت السبل وأقيمت الحدود وارتقت اليد العادية.

فإن قلت: كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك قلنا: إنما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي لأن القتال على الحدود الشرعية إنما يكون بعد نصب إمام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضاً جحدها إيه. ثم وصلت إلى مراكش الغراء التي تجبي إليها الأموال من البوادي والأمسار، وتشد إليها الرحال من سائر الأقطار، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور، وأنواع الفرح والحبور، فوجدت خزائنهما تدرج ملئاً من كل شيء، فأما أسوارها ورحاها فهي كما قيل: تربة الولي، ومدرج الحلبي، وحضررة الملك الأولى، والبرج النير الجلي، فحللتها وتمكنت من أموالها وخزائهما، ووافقت أهلها بما نكثوا ولا غدروا، ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا أنكروا، فطلبت أيضاً قتال عمك وجدت جنوداً لا يجمعها ديوان حافظ، ولا يعهدها لسان لافت، فخرجت إليه تجر أعنفة الخيل وراءك كالسيول، والرماء قد ملأت الهضاب والتلول، فما كان من حديثك إلا أن وقع القتال وحضر النزال، بادرت هارياً محكمًا للعادة، تاركاً للرؤساء من أجنادك والقادة، فحلت بهم الخطوب والرزايا، واحتطفتهم أيدي المنيايا، فتركتك أيضاً محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك، ثم أسرعت هارياً إلى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها، ولا قال لك أحد لست بيعلها فعملوا على القتال معك والتمنع بأسوارها الحصينة، والحضار داخل المدينة، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعmantك ونساءك، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس، ولا راجل ولا فارس، فيالها من مصيبة ما أعظمها، ومن داهية ما أعضلها. ولولا

فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت إليهم أيدي السفلة من الفسقة فأي حجة تبقى لك بعد هذا؟ وأي كلام لك بين الرجال يا هذا؟ ثم جاءك عمك أيضاً بما سلف من الحجج فوجد أهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادمة، فأنقذهم الله به أيضاً فبایعوا عمك بما سلف من الحجج، واطمئنوا وسكنوا، ثم هربت للجبيل عند صاحبه^(١) فصرتما في نهب أموال الرعية وسفك دمائهم، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحکم القرآن، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الأمان والأمان فانت وهم في استيلائك عليهم وظلمك إياهما كما قيل.

إن هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي ﷺ: «أنا خصيم من ظلم ذميأ يوم القيمة» ثم خربت العامر، وأفسدت ما شيدت الأسلاف للإسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الأقصى ذلك أيقنوا أنك إنما قصدت خراب الإسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت، كما قيل، : «في خلف كجلد الأجرب».

فإن قلت: إن أولئك الخلف لم يبایعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه، قلنا: لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من أهل الشام، وفيهم من قد علمت من الناس، والإجماع على صحة بيعته: وسمى من تخلف عنها: باعياً لقول النبي ﷺ لumar: «تفتنك الفتنة الباغية» فقتله أصحاب معاوية رضي الله عنه، والحديث من أعلام بيته عليه الصلاة والسلام، والقاعدة: أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعمول عليه، ولا يعد خلاف من خالقه خلافاً وهذا كله بالنظر إلى ما كان من حديثك قبل التحزم مع عدو الدين، والأخذ

(١) المقصود به هو الشيخ أبو عبد الله بن محمد واسعدون الذي التجأ إليه المتكفل بعد فراره انظر «الدودحة» صفحة 84 «وطبقات الحضيكي» في حرف العيم «والمعتَن» و«الصفوة» وقد ذكرت ترجمته في هذا المؤلف الأخير استطراداً في ترجمة تلميذه سيدي أحمد المعروف بالشيخ وكانت وفاة ابن سعدون هذا عام 987 بعد غزوة وادي المخازن بستة.

في التخليل العظيم على المسلمين، فإنك اتفقت معهم على دخول آصيلاً، وأعطيتهم بلاد الإسلام، فيا الله ويا رسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها، وعلى المسلمين فتقتها، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تمالك أن أقيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم لأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه: «**إِنَّمَا الَّذِينَ مَأْمَنُوا لَا تَنْجُونُو إِلَيْهِمْ وَالْمُصَدِّقُ أَوْلَاهُمْ بِعِزْمِهِمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مُنْتَهٍ**» [المائد: ٥١]. قال أبو حيان رحمة الله: أي لا تنصر وهم ولا تستنصروا بهم وفي كتاب القضاة من توازيل الإمام البرزلي رحمة الله: أن أمير المسلمين يوسف بن نافع بن الأبيه المتنواني رحمة الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم، وهم ماهم، في استنصراب ابن عباد الأندلسى بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعيته على المسلمين فأجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد في عقدها ابتداء، وأنه متى طرأ الكفر وجوب العزل، وناهيك بقول النبي ﷺ: «عليكم بالسمع والطاعة» وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلي في وجوب خلعك، وسقوط بيعتك، فلم يبق لك إلا منازعة الحق سبحانه في حكمه، «**وَمَنْ يُشَاقِقَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكُلَّبَكَ اللَّهُ شَيِيدُ الْيَقَابِ**» [الأنفال: ١٣].

وأما قوله: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدو واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى. وقولك: رجعت إليهم حين عدلت النصرة من المسلمين فيه محظoran يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله والثاني: أنك استعنت بالكافر والشجاعة جاء إلى النبي ﷺ. فوجده بحرة الوبرة «موضع على نحو أربعة أميال من المدينة» فقال له: «يا محمد، جئت لأنصرك» فقال له النبي ﷺ: «إن كنت تؤمن بالله ورسوله» فقال: «لا أفعل» فقال له عليه الصلاة والسلام: «إنني لا أستعين بمنشرك» وما سمعته من قول العلماء رضي الله عنهم في

الاستعانة بهم إنما هو على المشركين بأن نجعلهم خدمة لأرباب الدواب لا مقاتلة، فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: «السان العاقل من وراء قلبه» وفي قولك: يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجه لك دليلاً على جواز الاستعانة بالكافر على المسلمين، وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضاً والعياذ بالله.

وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت في الحديث: «يتكلم أحدكم بالكلمة تهوي به في النار سبعين خريفاً».

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحملة دينه من العرب والجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان. وأشرف عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: «لا دين إلا دين محمد ﷺ» ومن قائل يقول: «سترون ما أصنع عند اللقاء»، ومن قائل يقول: «وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُتَكَبِّرِينَ» [العنكبوت: ١١] ومن قائل يقول: «إنما قصد التشفي بال المسلمين إذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الأفعال القبيحة» إلى غير ذلك فجزاهم الله عن الإسلام خيراً. ورضي عنهم وبارك فيهم، فللله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان، فلو لم يكن منهم إلا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافياً في صحة إيمانهم وعظيم إيقانهم فقد بلغ نور غضبهم الله سبحانه ساق العرش والحب في الله والبغض في الله من قواعد الإيمان.

وقولك أيضاً: متبرئاً من حول الله وقوته، فإن لم تفعلوا فالسيف. فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط. أنت سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها رأية، ثم زال نبوه الآن بالكافر بهذه أضحوكة فتأملها.

وأما ما نسبته لإمام دار الهجرة فكفاك عجزاً إن لم تعين لنا نصاً جلياً نعتمد عليه فيما تحتاج به إلا أنك كثرت به سواد القرطاس مغرباً بذكره لا مغرباً بنصه.

وما نسبته للحنفية من أكل الميّة عند الضرورة وتسويغ الغصّة بخمر، فهو مما نصّ عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للنصّيبان، فعدولك عن ذلك إلى الحنفية إما قصور، وإما إلغاء لمذهب مالك رضي الله عنه، وهو النّجم الثاقب.

وأما قولك: أنتم أهل بغي وعند فلا نسلم لك ذلك إلا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلتنا معنا حتى ترى أسلنك أم لا . فأما إذا هربت عنا وتركتنا فالحجّة عليك لا علينا، على أنك في كتابك تفسّق الكل بذلك وتکفره، وقد قال العلماء رضي الله عنهم: «من يقول بتکفير العامة فهو أولى بالتكفير» وذلك معزو لزعمي العلماء الفاضلي أبي الوليد بن رشد، والقاضي أبي الفضل عياض، وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان، وكيف وقع لأمرائهم المستنصررين بالكافر على المسلمين، هل حصلوا على شيء مما قصدوا، أو بلغوا شيئاً مما أملوه؟ على أن أكثر العلماء حكموا بردتهم فقاتلهم الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

وقد افتخرت في كتابك بجمع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم، وأني لك هذا مع قول الله تعالى: ﴿أَلَيْوْمَ أَكْلَتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَمْتَثَلْتُ عَلَيْكُمْ نَعْمَى وَرَوَيْسَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ وَسَيَا﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَيَأْكُلُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَرِدَ ثُرَّةً وَلَوْ حَكَرَةً الْكَافِرُونَ﴾ [الترية: ٣٢] وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لن تغلب هذه الأمة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لايات الدنيا» وعنده رضي الله عنه أنه قال: «سيقاتل آخر هذه الأمة الدجال» وعنده رضي الله عنه أنه قال: «سألت ربِي ثلاثة فأعطاني اثنين ومنعني واحدة، سأله أنا لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أنا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها، وسألته أنا يجعل بأسمهم بينهم فمنعنيها». والكل عليك وإياك يعني .

وما ذكرته عن عمك: فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستتصارك بالكافر عقد ألوبيه المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من حملة القرآن مائة ختمة، وصحّح البخاري، وضجوا عند ذلك بالتهليل

والتكبير، والصلوة والسلام على البشير النذير، والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين، والفتح الشامخ المبين، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء افتتحت لذلك، وقضى ما هنالك، وبلغه كتابك الذي كان هذا جواباً عنه وهو بوسط تامستنا معه من جنود الله وأنصاره وحمة دينه ما يجعل الله فيه البركة، ولو لا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الإسلام والمباهاة بها، والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها، إذ لا اعتماد له أيده الله عليها، وكذلك هم لا اعتماد لهم إلا على حول الله وقوته ونصره وتأييده، والناس على دين الملك، وقد قاتلت وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية، فأي نحس وشوم حلا بديار الروم، فإن جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد، ارجع إلى الله أيها المسكين، وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله، ولا يدرك على الله مقاله، وهذه نصيحة إن قبلتها، وموعدة إن وفقت إليها، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو حسينا ونعم الوكيل، والسلام» انتهت الرسالة.

وكان خروج محمد بن عبد الله بجيشه البرتغال وفصوله به من طنجة في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة، قال في «المراة»: «إنهم لما خرجوا إلى بلاد الإسلام ضربوا محلاتهم بالفحص، على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر، وكانت أصيلا قد تصيرت إليهم قبل ذلك بأشهر، يعني بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم، فعاين أهل القصر الهاكلة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها، وفشا التفاق لأجل السلطان محمد بن عبد الله الذي معهم ولأجل بعد صريخ المسلمين، فإن السلطان أبي مروان المعتصم بالله كان إذ ذاك بمراكن، فاستبطوا وصول الخبر إليه، ثم مجئه بعد ذلك، فلم يبق لهم تدبير إلا القرار، والت hazırlan بالجبل وغيرها، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي رحمة الله، وكان إذ ذاك بالقصر، لرجل من أصحابه: «ناد في الناس أن الزموا بلادكم ودوركم، فإن عظيم

النصارى مسجون حيث هو، حتى يجيء السلطان من مراكش، وإن النصارى غنية لل المسلمين، ومن شاء فليعطي خمسين أوقية في النصراني» يشير إلى مبلغ قيمة النصراني في الغنية، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضاً أهـ.

وقال في «التزهـة»: «إن النصارى لما بـرزوا من طنجـة شـنوا الغـارة على السـواحل، فأعلمـ أهلـهاـ السـلطـانـ أـبـاـ مـرـوـانـ، وـكـانـ بـمـرـاـكـشـ، وـشـكـواـ إـلـيـهـ كـلـبـ العـدـوـ عـلـيـهـمـ، فـكـتـبـ السـلـطـانـ أـبـوـ مـرـوـانـ مـنـ مـرـاـكـشـ إـلـىـ الطـاغـيـةـ: «إـنـ سـطـوـتـكـ قدـ ظـهـرـتـ فـيـ خـرـوجـكـ مـنـ أـرـضـكـ، وـجـواـزـكـ العـدـوـةـ فـإـنـ ثـبـتـ إـلـىـ أـنـ نـقـدـمـ عـلـيـكـ فـأـنـتـ نـصـرـانـيـ حـقـيقـيـ شـجـاعـ. وـإـلـاـ فـأـنـتـ كـلـبـ اـبـنـ كـلـبـ» فـلـمـ بـلـغـهـ الـكـتـابـ غـضـبـ، وـاسـتـشـارـ أـصـحـابـهـ هـلـ نـقـيمـ حـتـىـ يـلـحـقـ بـنـاـ مـنـ خـلـفـنـاـ مـنـ أـصـحـابـنـاـ، فـقـالـ لـهـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ: «الـرـأـيـ أـنـ نـقـدـمـ وـنـمـلـكـ تـطاـوـيـنـ وـالـعـرـاـيـشـ وـالـقـصـرـ وـنـجـمـعـ مـاـ فـيـهـاـ مـنـ الـعـدـةـ وـنـتـقـوـيـ بـمـاـ فـيـهـاـ مـنـ الـذـخـاـرـ» فـأـعـجـبـ ذـلـكـ الرـأـيـ أـهـلـ الـدـيـرـانـ وـلـمـ يـعـجـبـ الطـاغـيـةـ. وـكـتـبـ السـلـطـانـ أـبـوـ مـرـوـانـ لـأـخـيـهـ أـبـيـ الـعـبـاسـ أـحـمـدـ، وـكـانـ نـائـبـهـ عـلـىـ فـاسـ وـأـعـمـالـهـ، أـنـ يـخـرـجـ بـجـيـوشـ فـاسـ وـأـحـواـزـهـ وـيـتـهـأـ لـلـقـتـالـ، ثـمـ كـتـبـ إـلـيـهـ أـيـضـاـ فـيـ شـانـ مـؤـنـةـ الـجـيـشـ كـتـابـاـ يـقـولـ فـيـهـ: «مـنـ عـبـدـ اللـهـ الـمـعـتـصـمـ بـالـلـهـ الـمـجـاهـدـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ أـبـيـ مـرـوـانـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ أـبـيـ عـبـدـ اللـهـ مـحـمـدـ الشـيـخـ الشـرـيفـ الـحـسـنـيـ أـيـدـ اللـهـ أـمـرـهـ وـأـعـزـ نـصـرـهـ إـلـىـ أـخـيـنـاـ الـأـعـزـ الـأـنـجـبـ بـابـاـ أـحـمـدـ اـبـنـ مـوـلـانـاـ الـوـالـدـ حـرـسـ اللـهـ كـرـيمـ إـخـائـهـ سـلـامـ كـرـيمـ وـرـحـمـةـ اللـهـ وـبـرـكـاتـهـ أـمـاـ بـعـدـ: فـإـنـاـ كـتـبـنـاـ إـلـيـكـمـ مـنـ مـحـلتـنـاـ السـعـيـدةـ بـتـامـسـنـاـ وـلـاـ زـانـدـ بـحـمـدـ اللـهـ إـلـاـ الـخـيـرـ وـالـعـافـيـةـ وـالـنـعـمـ الـضـافـيـةـ، هـذـاـ وـإـنـهـ سـاعـةـ وـصـولـهـ إـلـيـكـمـ تـخـرـجـونـ مـنـ الـخـدـامـ لـعـمـالـةـ مـكـنـاسـةـ وـقـيـلةـ آـزـمـورـ وـأـلـاـدـ جـلـولـ مـنـ يـفـرـضـ عـلـيـهـمـ عـلـفـ مـحـلتـنـاـ الـمـتـصـورـةـ وـمـؤـنـتـهـاـ وـيـأـمـرـهـ بـرـفـعـهـ وـإـبـلـاغـهـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ سـلاـ، وـقـدـرـ ذـلـكـ صـحـفـةـ شـعـيرـ، وـعـشـرـونـ مـذـأـنـاـ مـنـ القـمـعـ لـكـلـ نـائـبـهـ وـصـاعـ مـنـ سـمـنـ وـكـبـشـ لـكـلـ أـرـبـعـ نـوـائبـ، وـوـكـدـ عـلـيـهـمـ رـعـاـكـ اللـهـ أـنـ يـعـتـنـىـ بـذـلـكـ، وـبـيـاصـالـهـ إـلـىـ الـمـكـانـ الـمـذـكـورـ مـنـ غـيـرـ عـطـلـةـ وـهـذـاـ مـاـ وـجـبـ بـالـإـعـلـامـ إـلـيـكـمـ وـالـلـهـ يـرـعـاـكـ بـمـنـهـ وـالـسـلامـ» أـهـ.

ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية، وذلك بعد ما وصل إلى القصر: إني رحلت إليك ست عشرة مرحلة أما ترحل إلى واحدة، فرحل الطاغية من موضع يقال له: تاهدارت، ونزل على وادي المخازن بمقرية من قصر كنامة، وكان ذلك من السلطان أبي مروان مكيدة، ثم إن الطاغية تقدم بجيشه، وعبر جسر الوادي ونزل من هذه العدو فأمر السلطان بالقنطرة أن تهدم، ووجه إليها كتيبة من الخيال فهدموها، وكان الوادي لا مشروع له سوى القنطرة، ثم زحف السلطان أبو مروان إلى العدو بجيشه المسلمين، وخيال الله المسمومة، وانضاف إليه من المتقطعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة، وأقبل الناس سراعاً من الآفاق، وابتدرروا حضور هذا المشهد الجليل، فكان من حضره من الأعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وغيره.

قال في «المرأة»: «كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين، وأظنه الميسرة، من عسكر المسلمين في مقابلة النصارى دمرهم الله، قال: فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمين عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، والشيخ لم يتزلزل، ولم يلتفت منذ توجه إلى قتالهم حتى فتح الله عليهم» اهـ.

ولما التقت الفتتان وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحمى الوطيس وأسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفي السلطان أبو مروان رحمة الله عند الصدمة الأولى، وكان مريضاً يقاد به في محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابق أنه لم يطلع على وفاته أحد إلا حاجبه مولاه رضوان العلوج، فإنه كتم موته، وصار يختلف إلى الأجناد ويقول: «السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً أن يلزم الرأبة، وفلاناً يتقدم، وفلاناً يتأخر».

وقال شارح «الزهرة»: لما توفي السلطان أبو مروان لم يظهر الذي كان سائس المحفة موته، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو، ويقول للجند: «السلطان يأمركم بالتقدم إليهم». وعلم أيضاً بموته آخوه، وخليفة أبو

العباس أحمد بن الشيخ فكتها، ولم يزل الحال على ذلك، والناس في المناصلة والمقاتلة ومعانقة القواضب، والاصطلاء بinar الطuman، واحتساء كؤس الحمام إلى أن هبت على المسلمين ريح النصر، وساعدتهم القدر، وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر، فولى المشركون الأدبار. ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولا تحيط فرار، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتغال غريباً في الوادي، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا إلا آثارها فخشعت نفوسهم، وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار، فكان ذلك من أكبر الأسباب في استئصالهم، وأعظم الجحائل في اقتناصهم ولم ينج منهم إلا عدد نذر وشريحة قليلة.

وقال في «المتنقى المقصور»: «كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة الواقائع الشهيرة حضرها جمٌ غير من أهل الله تعالى حتى إنها أشبه شيء بغزوَة بدر. حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب البكري عن يثرب به أن الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستيق إلى النصارى ليتهز في الفرصة فما يصله حتى يجده ميتاً». اهـ.

ويبحث في القتلى عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقادِل لهم إلى مصارعهم فوجد غريباً في وادي المخازن، وذلك أنه لما رأى الهزيمة فرنجياً بنفسه وأضطر إلى عبور النهر فتورط في غدير منه وغرق فمات، فاستخر جه الغواصون وسلح وحشى جلدته تباً وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد.

ومنْ وجد صريعاً في القتلى يومِذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عسكر السريفي الشفشاوني صاحب «الدوحة»، فإنه كان هرب مع المسليخ، وكان من بطانته، فدخل معه بلاد العدو، فوجد بين جيف النصارى قتيلاً، وتكلم الناس في أمره، حتى قيل: إنه وجد على شماليه مستدير القبلة، وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الإمام الشهير أبي محمد عبد الله الهبطي رحمة الله في منظومته التي نظم فيها أصحاب أبيه معتقداً عن ابن عسكر المذكور ومشيراً إلى توهين ما قيل فيه:

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر محمد آخر الدهاء عسكر

وإن يكن أتى بذلك ظاهر فعرضه من الشكوك ظاهر رأيته في النوم ذا بشارة وهيئه حسنة وشارة وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين من لعنة جمادى الأولى ستة سنتين وثمانين، ويوافقه من التاريخ الميسيحي اليوم الرابع من أغسطستة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة.

قال في «المتنقى»: وكان مقدار زمان المقابلة خمساً وأربعين درجة وقيل: اثنين وخمسين على ما حدثني به بعض المقيمين.

وقال في «المرآة»: وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالغرب إذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة إلا أن الغنيمة لم تقسم، وإنما انتهتها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبحث المعنوي. وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيرها. وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ.

وقد حضر الشيخ أبو المحاسن هذه الغزوة وأبلى فيها بلاء حسناً وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشيء وبلغت قيمة النصرانى ما ذكره الشيخ، وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبي مروان قبل هزيمة النصارى، وكان مريضاً، فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتم بأمر الغنيمة قتم له ما قصد.

وقد ساق منويل في تاريخه خبر هذه الواقعة مساقاً حسناً فقال: لما استولى عبد الملك السعدي المدعو عند أهل المغرب بمولاي ملوك على ملك المغرب، وطرد ابن أخيه مولاي محمد المعروف بالأكحل يعني: المسلح، ذهب أولاً إلى إصباتيا، وتطارح على طاغية الإصباتيون فيليب الثاني في أن يعيشه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل أشبونة وتطارح على طاغية البرتغال سبستيان فأجابه، وذهب إلى خاله طاغية الإصباتيون فيليب المذكور آنفاً وطلب منه الإعانة على ما هو بصلده، فوعله بأن يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش، لأنه كان يرى أنها تعدل سائر

مراسي المغرب، ثم أمده بعشرين ألفاً من عسكر الإصبنيلو، وكان سبستيان قد ساق معه اثنى عشر ألفاً من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان، ومثلها من الألمان، ومن متطوعة الإصبنيلو وغيرهم عدداً كثيراً، وبعث إليه البابا صاحب روما بأربعة آلاف أخرى؛ وبألف وخمسينات من الخيول واثني عشر مدفعاً وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء إلى قادس.

ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشققت إليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه في الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل في أرض المغرب فصم على ذلك كله، وجاء إلى قادس ومنها خرج إلى طنجة.

وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا إلى بلاد المغرب، وزحف إليهم السلطان عبد الملك في عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفاً وزيادة، ومدافعين أربعة وثلاثين مدفعاً، وقاد الجيش: أبو علي القوري، والحسين العلوج الجنوي، ومحمد أبو طيبة، وعلي بن موسى، وأخوه أحمد بن موسى، الذي كان عاملاً على العراش، فجاء في جمعه إلى السلطان عبد الملك وانضم إليه، ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم، ثم استدعى النصارى إلى القتال، ونصب لهم علامته، فأحجموا وكان قصدهم المطاولة، وقصد السلطان عبد الملك المناجزة، وذلك لأن محمد المسلوخ قد دس إليه من سمه.

قال منويل: ولما أحسن عبد الملك بذلك، وأنه لا محالة هالك، بذل نفسه للقتال ليموت في الجهاد، وكان المسلوخ يتريص كي يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة في عسكر المسلمين، لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤة يطاؤلون بها فألجمتهم ذلك إلى المناجزة، ولما انتشت الحرب هلك عبد الملك للحين.

قال منويل: وكان أمر هذا الرجل عجباً في الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضح سبائته على قمه، كأنه يشير إلى جيشه أن يسكنوا عن الخوض في وفاته حتى يتم أمرهم، ولا يضطربوا، وكذلك كان، فإنهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفراً لا كفاء له، فكانوا يذبحونهم مثل

الكباش ودهش النصارى وتكتسبت جموعهم، وترامت أمعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب، وزادهم دهشًا أن بعض طواييرهم كان ينادي صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو، ووقدت النار في بارود النصارى فنفط، وانهزموا إلى وادي المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقي أسره المسلمين.

وزعم أن سبستيان هلك تحته في ذلك اليوم أربعة أفراس، وكان شاباً حدثاً، وقال لأصحابه: «إن تروني ترونني أمامكم وإن لم تروني فإننا في وسط العدو أقاتل عنكم» قال: وأبدأ وأعاد في ذلك اليوم إلى أن خر قتيلاً، وبقي مذكوراً عند البرتغال يسمرون بأخباره، وذكره شعراء الأوربة في أشعارهم، ولا زالوا يذكرونه إلى الآن.

وخلقه في ملكه الطاغية الريكيي البرتغالي فهو الذي ولد بعده وافتدى جنائزه من المسلمين ونقلها إلى سبتة فبقيت هنالك إلى أن هلك الطاغية الريكيي، وتولى على البرتغال طاغية الإصينيول فيليب الثاني، فصار ملك الدولتين معاً، وهو حال سبستيان آخر أمه نقل جنائزه من سبتة إلى أشبونة، ثم أرخ منويل الواقعة بالتاريخ العربي والعجمي موافقاً لما مر فهذا ما ذكره في هذه الواقعة.

قال في «التزهة»: توفي السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ في زوال اليوم المذكور، وبایع الناس أخاه أبو العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتي إن شاء الله.

قال في «درة الحجال»: «فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد، وهم: أبو مروان بن الشيخ، وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ، والطاغية سبستيان، وأقام واحداً وهو أبو العباس المنصور» اهـ.
قلت: وفي إهلاك ثلاثة وإقامة الواحد إشارة واضحة لإهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم والله تعالى أعلم.

ولما بلغت الهزيمة إلى الطاغية الأعظم، أعني القائم بالأمر بعد سبستيان لأن التحقيق أنه كان الأعظم يومئذ لما مر، بعث إلى المنصور بعد استقلاله

بالملك وعوده إلى فاس كما سيأتي يلتمس منه الفداء فيمن بقي بيده من الأسرى، فأجابه إلى ذلك وحصل له بسيبه أموال طائلة. وذكر بعضهم أن الأسرى لما ذهبوا إلى بلادهم قال الطاغية: «لم لم تأخذوا تطاوين والعراشق والقصر قبل أن يصل ملكهم؟» فقالوا له: «امتنع من ذلك الأمير الذي كان علينا». فأمر بهم فأحرقوا جميعاً.

مضحكة: قال في «النزهة»: «ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائن المذكورة وفني من فني منهم ورأى أساقفهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكترة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويختلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله» اهـ.

وقد وقفت على تاريخ بعض مؤرخي الفرنج الإنجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الواقعة وصرح بأنها كانت سبب هلاك البرتغال وتلاشي دولتهم وبطلان كرسي سلطنتهم حتى استضافهم إليه طاغية الإصينيول بعد نحو ستين وصيрем من جملة رعيته، ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتغال قتلوا في ذلك اليوم ما نصه: «وكان ذلك يعني الواقعة المذكورة وقعة هائلة ويوماً مشؤوماً. وبالجملة فقد قتل في ذلك اليوم سائر أشراف البرتكميسين ولم يختلف منهم أحد فلما بطل كرسي سلطنتهم قام وقتله فيليبيس الثاني ملك إسبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها» اهـ كلامه. إلا أنه ذكر أن السبب في استغاثة السلطان محمد بن عبد الله بالبرتغال هو تغلب الإصينيولين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط، ولعله تصحف عليه لفظ الإصينيولين بالإصينيولين، إذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان إنما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثماني والله أعلم.

وقد ألم بهذه الواقعة أيضاً لويس مارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة لكنه لم يسطها على عادته في السكوت عن ما يكون من الظهور في جانب المسلمين وإشاعة ما يكون من ذلك في جانب النصارى بل

والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال في وصفها كلاماً هذه ترجمته: «وقد كان مخبواً لنا في مستقبل الأعصار العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقللت هو العصر النحس البالغ في النحسوة الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال وانطفأ مصباحهم بين الأجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء وأضمر محل إيان الغنى والربح وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب» اهـ. فهذا كلام هذا البرتغالي قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هي ليعتبر به من يقف عليه «والحق ما شهدت به الأعداء».

ولما تمت للسلطان أبي العباس المنصور البيعة بوادي المخازن طالبه الجيش بأرزاقهم واستنجزوا أعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لأنهم جعلوها نهبي ولم يقتسموها على الوجه الشرعي كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعين وجراة الناس على الغلو. فسامحهم فيها وسامحوه في عطائهم.

ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات إلى الآفاق بهذا الفتح المبين فكتب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين لل المغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليهم من إظهار الدين وهلاك عبد الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم في نحرهم فوردت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهتدين له بما فتح الله على يده حسبما ذكره بعد إن شاء الله.

بقية أخبار السلطان أبي مروان وسيرته

قال ابن القاضي: «كان سبب وفاة السلطان أبي مروان رحمة الله أنه سقي سماً، وذلك أن قائد الترك الذين كانوا معه، واسمه رمضان العلچ، بعث إلى بعض قواده أن يتلقاه بکعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه، وقصد بذلك قتله، وذلك بعد أخذته به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوا من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمة الله» اهـ. ولما توفي حمل إلى مراكش فقبر بها، وكانت مدة

خلافته أربع سنين، ومن حجاته: القائد رضوان العلوج. وكتابه: محمد بن عيسى، ومحمد بن عمر الشاوي، وقضاته: قضاة ولد أخيه.

وكان يتزينا بزي الترك ويجرى مجراهم في كثير من شؤونه. وكان ينهم بالليل إلى الأحداث وربما كان يظهر ذلك، وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفة على قاس كما مر، وكانت له فيه محنة تامة، وكان يظهر أنه ولد عهده ويرشحه لذلك كثيراً حسبما أفصحت عنه رسائله التي كان يبعث بها إليه.

ولتفكر ما كان في هذه الملة من الأحداث:

فهي ستة ثمان وعشرين وتسعمائة كان الوباء بالمغرب كما قدمنا.

وفي ستة ثلاث وتلاتين وتسعمائة نزل مطر غزير بمراكش حتى امتلأت منه الآبار وتهدمت الدور وصار الناس يئرون بعام الآبار.

وفي ستة إحدى وستين وتسعمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي من أولاد أبي السباع ودفن بزاويته على ضفة وادي تافسيفت من أعمال مراكش، وقبره مزار مشهورة وعليه بناء حليل.

وفي ستة ثلاث وستين وتسعمائة توفي الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله ابن محمد الصتهاجي الطنجي المعروف بالهبطي، وكانت وفاته في ذي القعدة من السنة المذكورة، وكان رحمة الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن فوائده ما حكاه عنه في «الدوحة» قال: «سألت شيخنا الإمام أبي محمد عبد الله الهبطي عن الشيخ أبي محمد الغزواني، وكان من أصحابه، فقلت له: يا سيدي ما لسائل المشايخ من أصحاب الشيخ الغزواني كأبي الحجاج التليدي وأبي البقاء البالصوتي وأبي الحسن علي بن عثمان وغيرهم يصرحون بقطانية الشيخ وينسبونك أنت إلى التقصير في حقه حيث لم تقل بما يقولونه؟»، فقال لي رضي الله عنه: «قد علمت معنى الشهادة في الشرع ما هي؟»، قلت: «نعم»، فقال لي: «كيف لي أنأشهد لأحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحققه ولم يكشف لي عنه فإن فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له: «وأي شهادة تشهد في الشيخ؟»

فقال لي: أشهد أنه من العارفين بالله تعالى وأنه كان يجتب بالحال أكثر مما يجتب بالمقال» انتهى. قلت: وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتغرون به حتى يكونوا منه على بصيرة، وتتجدد كثيراً من عقله وراء لسانه يتقولون على الله في غيبه وبخططون خطط العشواء وينسبون المقامات والأحوال لمن ليس منها في قبيل ولا دبر نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنته.

وفي سنة أربع وستين وتسعمائة في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كشفت الشمس الكسوف الكلبي العظيم.

وفي سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهله وجباله، وأفني كماته وأبطاله واتصل أمره إلى ستة ست وستين بعدها.

وفي سنة إحدى وسبعين وتسعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولي ثم السملالي الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبي فارس عبد العزيز التابع، والشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي ثم الملياني.

وفي سنة ست وسبعين وتسعمائة ليلة عيد الأضحى منها توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصنهاجي ثم الفرجي الدكالي المعروف بالمجدوب الولي المشهور دفنه مكتنasa الزيتون، كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب آزمور ثم رحل هو ووالده إلى مكتنasa فمات بها.

وفي سنة سبع وسبعين وتسعمائة بعد صلاة الجمعة من أول يوم من المحرم منها زلزلت الأرض زلزالاً شديداً وفزع الناس لذلك، وفي هذه السنة في الحادي والعشرين من ربيع الأول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله بن حسين من شرفاءبني أمغار دفنه تامصلوحت وقد تقدم ما جرى بينه وبين السلطان الغالب بالله.

وفي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وذلك أواخر شوال منها الموافق لأواسط مارس العجمي حدث بالمغرب جراد كثير؛ وفي أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهوداً، ثم ظهرت في أيام ابنه محمد بن عبد الله أعلام حمر في الجو من الناحية الشرقية تبعتها في الأرض أجناد الترك التي

جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كما مر. وفي أيام السلطان أبي مروان المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب وطلع أياماً ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى أثره كان خروج البرتغال من طنجة ووقة وادي المخازن كما مر؛ والله تعالى أعلم بغيه.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي وأوليته ونشاته

كانت ولادة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبي عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، وأمه: الحرة مسعودة بنت الشيخ الأجل أبي العباس أحمد بن عبد الله الوزكيتي الوارززاتي، وكانت من الصالحات الخيرات وستأتي بقية أخبارها.

وذكر في «المتنقى» قال: مرض المنصور في صغره مرضًا شديداً حتى أيس منه، فرأته أمه في النوم شخصاً يقول لها: أزيريه الشيخ أبي ميمونة فإنما أصابته عين فأزارته إياه فرعوني، وكان أبوه المهدى يتباهى على أنه واسطة عقد أولاده.

قال في «مناهل الصفا»: حدثني الشيخ المسن القائد أبو محمد مؤمن ابن الغازي العمري أن المنصور أقبل يوماً في حياة أبيه، وهو صبي والمجلس غاص بالأكابر، فاندفع يخترق الصفوف، قال: فصاح بي المهدى إذ ذاك، وأنا أصغر القوم، فقال: «يا مؤمن، ارفعه فسيتفعل أو ينفع عقبك» فابتدرت حمله، وكان كذلك، فإن المنصور لما أفضت إليه الخلافة كان القائد مؤمن ابن الغازي عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية.

ونشأ المنصور رحمة الله في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافته لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمام إلى أن تم أمره. حدثنا الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن

محمد بن علي الجزوئي الدرعي أنه اجتمع بعض أهل المكاشفة بمصر فسألوه عن السلطان أبي عبد الله الشيخ وأولاده، قال: فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لأنَّه كان أصغرهم سنًا يومئذ. فقال لي: «بقي منهم من لم تذكره» فقلت له: «أحمد» فقال: «ذاك واسطة عقدهم ووجه صفتهم» فكان كذلك.

وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالي: «الما أخذ المهدى البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جداً، وقال له: «إن الفائدة فيه» أو كما قال. وهكذا كان ينبه على أنه واسطة عقد أولاده: وكان المنصور رحمة الله يحدث أنه رأى النبي ﷺ في النوم، وأنواره تشرق، قال: فوقع في نفسي أن أسأله عن نصيبي من الخلافة فكاشفي عليه الصلاة والسلام بما في خاطري، وأجباني بما حرق لي نيلها، ثم أشار لي بأصابعه الثلاثة الشريفة ضاماً للإيهام منها إلى السبابية والوسطى وقال أمير المؤمنين» اهـ.

وقال الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التامناري في كتابه «الفوائد الجمة بأسناد علوم الأمة»: «أخبرني الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغى صاحب «الحسبة» بتارودات أنه رأى في منامه كأنه في حلقة يسرد فيها صحيح البخارى بموضع من دار الخلافة بها، وأبو العباس المنصور يومئذ بها، وذلك قبل ولادته، قال: فرأيت في طرة الكتاب هذا اللفظ: «ورى الزند» فكنت أتأمل معناه فالتفت فإذا برجل انعزل ناحية على طنفسة فوقع في نفسي أن أسأله فأتته بالكتاب وقلت له: يا سيدى، ما معنى هذه الكلمة التي في طرة الكتاب؟» فقال لي: «قل لمولاك أحمـد: أنا الذي أوريت زندك ما دمت على الحق فإن عدلت عنه فأنا بريء منك». قلت له: «ومن أنت يا سيدى؟» فقال لي: «رسول الله ﷺ»، لم يمض إلا قليل حتى ولـي الخلافة وحمدت سيرته، قال أبو زيد: «وناهيك بـزند أوراء النبي ﷺ وهذا يدل على أن ولاية الإسلام لا تتعقد إلا بأمر النبي ﷺ وقد اشتهرت المرائي بذلك».

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب «ابتهاج القلوب في مناقب الشيخ المجذوب»: «أن الشيخ الصالح أبا عبد الله الملقب بـكدار ابن الشيخ أبي ذكرياء يحيى بن علال المالكي البوخصبي رأى النبي ﷺ يوماً فشكى إليه أولاد مطاع لما رأهم عليه من الفساد في الأرض، فقال له النبي ﷺ: «يأتיהם أَحْمَدٌ»، فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فأخذهم وفل جمعهم» اهـ. وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة.

وكان رحمه الله طويل القامة ممتلي الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلع، برأس الثنایا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المتنزع، لطيف الشمائل.

وكانت بيته بعد الفراغ من قتال النصارى بـوادي المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة، واجتمع عليها من حضر هناك من أهل الحل والعقد، ثم لما قفل المنصور من غزوه تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن، ثم بعث إلى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبـواديه فأذعن الكل للطاعة، وسارعوا إلى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة.

قال الفشتالي: لما كانت وقعة وادي المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الأمر للمنصور كتب إلى صاحب القدسية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثماني وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من إظهار الدين وهلاك عبد الصليب واستتصال شأفتهم، فوردت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهتئين له بما فتح الله على يده: وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر، ثم تلته أرسال طاغية البرتغال، وهو الريكي القائم بأمرهم بعد هلاك سبستيان، وليس خاله وإنما خاله طاغية الإسبانيون فيليب الثاني الذي جمع الملوكتين معاً بعد هلاك الريكي المذكور وبعد وقعة وادي المخازن بثلاث سنين فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم إلى فاس على الكراريس والعجل، فعجب الناس منها

عجبًا بليغاً، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وكان من جملة ما فيها ثلاثة ألف دكات من ريال الفضة، وأما الطرف التفيسة والأثاث الرفيع فشيء لا يحصى، ثم وردت أرسال طاغية الإصينيول صاحبة قشتالة بهدية عظيمة منها الياقات الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج آبائه، وصنديق مملوء من الدر الفاخر، وقضب الزمرد وغير ذلك، وتكلم الناس فيما بين الهدابين أعني هدية البرتغالي وهدية الإصينيولي أيهما أعظم، ولم يهتد أهل العقل والمعرفة إلى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت أرسال السلطان مراد العثماني ومعهم هدية وهي: سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن، ثم قدمت أرسال طاغية أفرانسسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود متراوفة بباب المنصور، والأرسال تصبح وتسمى على اعتاب تلك القصور، إلى أن لم يبق أحد ممن تشوف النفوس إليه وحيثنة اطمأنت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار.

وفي جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة مرض المنصور مرضًا مخوفاً وطال به حتى كادت الأمور تختل ثم تداركه الله على يد الحكم الماهر أبي عبد الله محمد الطيب، ولما أبل من مرضه أحسن إلى الطيب المذكور ونشر عليه يوم خروجه من الخلع ما لا يحصى، وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً، وفي ذلك يقول الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي المعروف بالتابعة:

وضجت لشکوى جسمك الشمس والبر
وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر
أفاق بها من غمة البدو والحضر
وعاد إلى إيانه ذلك البشر
يهني ويدعى أن يطول لك العمر
وعادت إلى الإيتاع أغصانها الخضر
إذا أغبر وجه الأرض واحتبس القطر
قديمًا فخافت أن يعاودها الضر
تسيء الكمة البيض واللدن السمر

تردى أذى من سقمك البر والبحر
وبات الهدى خوفاً عليك مسهدًا
فلما أعاد الله صحتك التي
تراثت لنا الدنيا بزينة حسنها
وصار بك الإسلام في كل بلدة
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها
ولا غرو إن صامت على سوط الندى
لبيت أبي العباس أنفست عجائفها
لشن صدئت بيض المعالي لقد غدت

بقيت لهذا الدين تحمي ذماره ويرحميك رب العرش ما بقي الدهر

عقد المنصور ولایة العهد لابنه محمد الشیخ المدعاو المأمون

قال الفشتالي: لما أبل المنصور من مرضه المذكور وعاد إلى حاله من الصحة أجمع رأي أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعين من يلي الأمر بعده ويكون ولی عهده، وكان المنصور مهيباً لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون الباڈي لذلك القائد المؤمن بن الغازى العمرى لما له من الإدلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور: «يا مولانا، الله تعالى حفظ الإسلام ببابلakk من هذا المرض وعصم الدين ببابقائه عليك وقد بقي الناس في أيام سقمك في حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القساورة من تجتمع كلمة الإسلام عليه، ويشار بالخلافة إليه، لكان أولى وأليق بسياسة الملك، وإن ابنك الأبرأ أبا عبد الله محمد المأمون حقيق بذلك، وجدير بسلوك تلك المسالك، لما فيه من خلال الخير وحصل السعادة، زيادة على ما هو عليه من التيقظ في أموره والحزن في شؤونه، وقد ظهرت للناس محاسن سيرته، واطلعوا على جميل سيرته» فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به، فقال له: «سوف أستخير الله في ذلك فإن يكن من عند الله يمضه» قلت: هذا الذي حکاه الفشتالي على لسان القائد مؤمن في حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستفعل عليه من أحوال المأمون بعد هذا إن شاء الله، ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالباً، لا سيما إذا كان من يعتنون بذلك مخدوماً لهم ومنعماً عليهم، فلا ينبغي لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه إلا بعد التثبت والتبصر والله تعالى الهايدي إلى الصواب بمنه. ثم لبث المنصور بعد هذه الإشارة أيام يستخير ربه في ذلك ويستشير من يعلم أهليته للمشورة من أهل العلم والصلاح، فلما انقضت أيام الاستخاراة وتواترت الآراء على حسن تلك الإشارة، جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس

وغيرهم من أشياخ القبائل بوجوه الناس من أهل الحاضر والبادىء، وأوصى بالعهد لولده المذكور أبي عبد الله محمد المأمون، وذلك يوم الاثنين منسلخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

وكان المأمون إذ ذاك خليفة أبيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث إليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويما يبع بحضورته، ولم يقنعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب، ولما بعث إليه خرج المنصور بعسكره إلى تانسيفت خارج مراكش ثاني عشر صفر سنة سبع وثمانين وتسعمائة، ولم يزل بعسكره هناك متلوماً ومنتظراً لقدوم المأمون إلى أن قدم غرة جمادى الثانية من السنة المذكورة، فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان، ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافى القدم فعفر وجهه بين يدي والده ثم قبل رجله، والمنصور على فرسه واقفاً بين الصفين، فدعا له بخير وأظهر الفرح بمقدمه، وكان المأمون قد عبا جيشه تعيبة لم ير مثلها ورتبهم ترتيباً حسناً في لباسهم وسائر أمورهم، فسر المنصور بذلك، وبعد أيام من بلوغه أمر به فأجلس في سرادقه الأعظم الذي لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتي، وأمر أهل الحل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بحضورته، وقام الشعراء فأفصحوا عن وصف الحال، وغمر المنصور الناس بالنوال، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً، وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع إلى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم غرضه الذي قصده.

ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب في ذلك

قال الفشتالي: لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الأجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ، وهو ابن أخي المنصور، وفر إلى جبل سكسيبة وشق العصا ودعا إلى نفسه، فانثالت عليه أوشاب من البربر وغيرهم، ونجم أمره وأثرت في إذن الرعية جمعته، فبعث إليه المنصور قائد الرعية أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن بجة فناوشة

القتال بجبل سكسيوة فهزمه، وفر إلى جبل هوزالة فتحزبوا عليه، وقويت بهم شوكته، وأخذ يشن بهم الغارات على أهل درعة إلى أن ضاقوا به ذرعاً فشكوا أمره إلى المنصور فبعث إليه قائده الذي ذكر فلم يزل في مقابلته ومقاتلته إلى أن شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه إلى الصحراء، واستقر به الرحيل بها عند عرب الودايا منبني معقل فلم يزل عندهم إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره.

حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني وتلافي المنصور لذلك

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور إلى السلطان سليمان العثماني وتظارحهما عليه حتى أمدلاهما بالجيش الذي كان سبباً في تملكهما المغرب، ولما صفا الأمر لعبد الملك أهلل جانب العثماني ولم يكتبه بشيء ولا عرج عن ساحته، ثم لما ملك المنصور وكتب إلى النواحي بخبر وقعة وادي المخازن كتب إلى السلطان مراد في جملتهم فبعث السلطان المذكور إلى المنصور بالهدية التي تعلم ذكرها وكان المنصور استقلها وأنف منها، فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضوره، وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سبباً للنفرة، وكان وزير البحر للعثماني، واسمه الرئيس علي علوج، يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سلطانه ويدركه ما كان من أبيه الشيخ من القدر في ولاية الترك والطعن عليهم، وقال له في ذلك: «قد ضاع صنيعك في هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك» ولم يزل يقتل له في التروة والغارب وبيهون عليه أمر المغرب حتى أذن له في توجيه العمارة إليه ومتنازلته والأخذ بأفاقه إلى أن يستأصل أمر المنصور ويخدم جمرته، ويقال: إن السلطان مراداً أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة إلى الجزائر ف تكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر في البر إلى المغرب، فأأخذ الوزير في التأهب لذلك واتصل الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل

النجلizer، فارتاحل إلى فاس من حينه وشحن الشور وملأ المراسي، وكان على أهبة وكمال استعداد، وبعث أرساله إلى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافيًّا لما فرط واعتذارًا عما سلف. وكان من جملة أرساله القائد الأنجد أبو العباس أحمد بن ودة العمراني، والكاتب الشهير أبو العباس أحمد بن يحيى الهاوزالي، فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى، وبينما هم في أثناء الطريق على نبع البحر لقيهم الوزير علوج في أسطوله قاصداً ديار المغرب عازماً على منازلة المنصور به، فلما رأهم سقط في يده، وأيقن بخيته مسعاه، فرام صدهما عما قصداً إليه وأيأسهما من تدارك الأمر، وقال لهما: «إن الخرق قد اتسع على الواقع ولو كان لصاحبيكم غرض في المسألة ما بقي أصحابنا بأيوابه كالكلاب والبادي أظلم»، فلم يزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة إلى أن صرفه عن رأيه ورده معه، وترك الهاوزالي يبلغ الرسالة والهدية ظنًا منه أنه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام، وابن ودة الذي كان عنده مذنة لكمال التدبير ومثافته الملوك رده معه، فلما انتهى الهاوزالي إلى السلطان مراد ودخل عليه أظهره من نبله ولطف مخاطبته ما خلب به قلب السلطان المذكور، واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهنه على مخدومه، ولا يفید غلبة خصمه، فقبل السلطان مراد الاعتذار، وتقبل الهدية بقبول حسن، وكتب مع الهاوزالي إلى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور، فرجع بها الهاوزالي بطيء سروراً، ولم يغب عن علوج إلا نحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملك، فقرع لها علوج سن التدم، وأسف على تفريطه في الهاوزالي وتركه، وبعث السلطان مراد رسلاً مع الهاوزالي إلى المنصور يلومه على التراخي في أمور الملوك فلما قدموه عليه أكرم وقادتهم وأحسن نزفهم وردهم مكرمين إلى مرسليهم، وبعث معهم الفقيه الإمام قاضي الجماعة بحضورة مراكش أبي القاسم ابن علي الشاطبي، والقائد الأنجد أبي زيد عبد الرحمن بن منصور الشيشاني المربيدي، فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح، ورتب الشاطبي كلاماً بلغاً أعرب فيه عن فضل الدولتين، وقرر فيه حق أهل البيت وأطري

المنصور وحضر فيه على اتحاد كلمة الإسلام، وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه، ثم بعد أيام أحسن إليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين إلى مرسليم.

وقال صاحب «خلاصة الأثر»: كان المنصور موادعاً لسلطين آل عثمان فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون إليه بالمكاتيب والخلع السنوية حتى إن السلطان مراد بن سليم كتب إليه أثناء مكاتبيه: «لك على العهد أن لا أمد يدي إليك إلا للمصالحة، وإن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة» وكانت رسالته دائماً تأتي إلى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زماناً طويلاً ويتعبدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الأديب محمد الأمين الدفتري، فقد ذكر صاحب «خلاصة الأثر» أن هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب ويبعث بها إلى المنصور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة، وقد ذكر صاحب «خلاصة الأثر» في ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظروه.

ولما تكامل هذا الغرض، وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الأرسال في أحسن الأحوال عاد المنصور إلى مراكش، وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرئ البخاري بين يديه سرداً على عادة الخلفاء في ذلك، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة.

إيقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك

قد قدمنا في أخبار الدولة المرinية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ما كان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها. ولما أدرت دولت بنى مرين واستولى على ملکهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدى انحاشوا إليه وأظهروا الخدمة والنصيحة، فلما جاء أبو حسون الوطاسي بجيش الترك حسبما شرحناه قبل أوقعوا الهزيمة على المهدى لأبي

حسون كما مر، فلما غلب المهدى على المغرب وصفا له أمره خلعهم من الجنديه، ووظف عليهم الخراج، ومحا اسمهم من ديوان الخدمة. ونقل أعيانهم إلى مراكش واتخذهم رهائن عنده، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المنصور فرأى جلادهم يوم وادي المخازن وحسن بلاطهم، فاختار التصف منهم ورده إلى الجنديه، وأبقى نصفهم الآخر في غمار الرعية ونقلهم إلى آزغار فاستوطنه حيناً من الدهر ثم عاثوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبواهم وضايقوها بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور، فضرب عليهم سبعين ألفاً غرامه، فلم يزدادوا إلا عتوا وشدة، فأرسل إليهم ليعثروا طائفة منهم إلى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحيثند بعث إليهم القائد موسى بن أبي جمدي العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاءهم رجاله. ثم حكم السيف في رقابهم، واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم، ولانت للغامز قتالهم.

استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكورارين وتوات وغيرهما

لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه إلى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما اتضاف إلى ذلك من القرى والمداشير، إذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر إلى ما يراد منهم، فسنج للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم إلى أمر الله فبعث إليهم القائد أبي عبد الله محمد بن بركة، والقائد أبي العباس أحمد ابن الحداد العمري المعقلبي، في جيش كثيف فقطعوا إليهم القفر من مراكش، وانتهوا إليهم على سبعين مرحلة منها، فتقدموا إليهم أولاً بالدعاء للطاعة والأعدار والإذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أيامًا، ثم كان الظهور لجيش المنصور فأرقوها بهم وأثخنوا فيهم إلى أن أذعنوا للطاعة. وصاروا في حزب الجماعة، وأنهى خبر الفتح إلى المنصور

فسر بذلك سروراً عظيماً وقال الشعراء في ذلك وعم الفرح بلاد المغرب، وكان ذلك سنة تسعين وتسعين وتسعمائة وبعد هذا تشوفت نفس المنصور إلى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها ما نذكره إن شاء الله.

òððí úäÒ Áð ÆÒüúl úlÖià Òúéåúïè éÖ ÍÍúÓí
ÒüÒÓí Íl ül úÄðë úéÆúÍö éÖ ÓÅú úðúñöö

اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المتوسط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه، وتنفصل بهم من جهة الشرق أمم أخرى تعرف بصورة بصادين أو سينين مهمليتين مضمومتين، ثم بعدها أمم أخرى يقال لها: مالي، ثم بعدها أمم أخرى تسمى كوكو ويقال: كاغو، ثم بعدها أمم أخرى تعرف بتكرور ويقال لهم أيضاً: سغاي، ثم بعدها أمم أخرى تدعى كانم وهو أهل مملكة برنو المجاورة لافريقيا من جهة قبليتها. ثم بعدها أرض التوبية المجاورة لبلاد مصر وهكذا إلى آخر الشرق أمم لا يحصيهم إلا خالقهم.

فاما أهل مملكة غانة فقد كانوا في صدر الإسلام من أعظم أمم السودان أسلموا قديماً وكان لهم ملك ضخم، وكانت حاضرة ملوكهم هي غانة وهي: مدینتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ذكرها صاحب «نزهة المشتاق»، وصاحب «المسالك والممالك» وغيرهما.

وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريسي في «شرح المقامات الحريرية» ما نصه: غانة بلد من بلاد السودان وإليها ينتهي التجار يعني من المغرب، والمدخل إليها من سجلمامسة ومن سجلمامسة إليها ذهاباً مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة إلى سجلمامسة إياياً مسيرة شهر ونصف دون ذلك. وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز إليها من سجلمامسة بالأمتعة والأنفال فتبع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملأً يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها،

حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المغازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل. فأثمان أحمال الثلاثاء جملأ يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد فيطرون المراحل للخفة، قال: «وغانة بلد مملكة السودان وانتشار الإسلام في أهلها وبها مدارس للعلم وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصيّبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر فيشترون بها خدماً للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة، والإماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح» اهـ.

وقال ابن خلدون: «كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلوين يعرفون ببني صالح».

وقال صاحب «نزهة المشتاق»: «أنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد» اهـ.

ثم إن أهل غانة ضعف ملوكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة واستفحَل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر، وزحف إليهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمنوني فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه حسبما مر ذلك في أخبارهم، فلما رجع الأمير أبو بكر إلى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر، واقتضى منهم الآثار وحمل الكثير منهم من لم يكن أسلم قبل ذلك على الإسلام فدا نوابه، ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورون لهم واستعبدوهم وصيروهم في جملتهم. ثم إن أهل مالي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك واستطاعوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدي أهل غانة، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها إلى ملوكهم وصارت دولة مالي متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرض التكرور في الشرق واعتزل سلطانهم وهابتهم أمم السودان. ومن

هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبي بكر، وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبي الحسن المريني من المهاادة والمواصلة ما تقدم ذكره. وكان مع السلطان منسا موسى المذكور الأديب الشاعر أبو إسحاق الطوبيjen^(١) الأندلسي الذي بني له القبة المرعية العجيبة الصنعة البديعة التقش والتخريم التي أجازه عليها باثنى عشر ألف مثقال من التبر وغير ذلك مما مر ذكره في أخبار الدولة المرينية، وكان منها أيضاً السلطان ماري زطة الذي هادى السلطان أبي سالم المريني وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم، قالوا: وكان هذا السلطان مسرفاً مبذراً بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم وكاد أمر سلطانهم يختل حتى لقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان من الذخائر الموروثة عندهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً من الذهب العين متقولاً من المعدن كذلك من غير علاج ولا تصفية بالنار، فكانوا يرونه من نفس الذخائر وأكبر الغرائب لن دور مثله في المعدن، فعرضه منسا زطة على تجار مصر المتربدين إلى بلده فاشتروه منه بأبخس ثمن. ثم أصابته علة النوم وهو مرض يطرق أهل ذلك الإقليل كثيراً وخصوصاً الرؤساء منهم بحيث يعتاده غشي النوم عامه زمانه حتى لا يكاد يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من الأوقات ويضر بصاحبه غاية ويتصل سنته إلى أن يهلك، ودامت هذه العلة بهذا السلطان سنتين ثم هلك منها سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم توارث بنوه الملك من بعده فكانوا في تراجع وانتفاض إلى أن انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول، وظهرت دولة آل سكية من أهل مملكة كوكو ويقال كانوا.

قال الإمام التكروري في كتابه «نصيحة أهل السودان»: إن آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكونا كثيراً من بلاد السودان، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث، وكان الحاج محمد المذكور رحل في أواخر المائة التاسعة إلى مصر والحجاج

(١) الطويجين تصفير طاجين هكذا ضبطه صاحب النفح انظر ترجمته ج ١ ص 461.

يقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ، فلقي بمصر الخليفة العباسي، إذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائماً بها يومئذ، حتى محاه السلطان سليم العثماني أيام تغلبه على مصر سنة ثلث عشر وعشرين وتسعمائة، فلما اجتمع الحاج محمد سكبة بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان، وأن يكون خليفته هناك، ففوض إليه الخليفة العباسي النظر في أمر ذلك الإقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين، فرجع الحاج محمد سكبة إلى بلاده، وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهاج أهل السنة، ولقي بمصر أيضاً الإمام شيخ الإسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطي فأخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام، وسمع عليه جملة من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصايه ومواعظه، فرجع إلى السودان ونصر السنة وأحيى طريق العدل، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره، ومال إلى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال، ويرى جسد الرشاد من الداء العضال، وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأنّة الدين محباً للعلماء مكرماً لهم يفسح لهم في المجلس ويوسّع عليهم في العطاء ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيئاً خفيفاً من المغارم وظفه عليهم، وزعم أنه ما فعل ذلك حتى استشار الإمام السيوطي شيخه، ولم يزل على سيرته المذكورة إلى أن اختزنته المنية، فقام بالأمر بعده ولده داود بن محمد فأحسن ما شاء وتبع طريقة أبيه إلى أن لحق بربه ومضى لسبيله، فقام بالأمر بعلمه ولده إسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه، ولم يكن في أمره بالذميم، واستمر حاله على الانتظام إلى أن غزته جيوش المنصور فنتقضت ملكه ونشرت سلكه، وانقرض عليه أمر آل سكبة بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان. وسنذكر كيفية ذلك.

وأما مملكة التكرور وكانت فقال ابن خلكان ما نصه: «كان بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكروز وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب إلى أب ولا أم وإنما كان اسم بلدة بتواحي غابة فسمي هذا الجنس

باسم هذه البلدة، وتكرر اسم للأرض التي هم فيها وسمى جندهم باسم أرضهم «اه».

قلت: وكان من كاتم الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكامي الأسود الشاعر وهو الذي دخل على يعقوب المنصور الموسى فأنشده:

أزال حجابه عني وعيشي تراه من المهابة في حجاب
وقربيني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

وأهل كاتم هم أهل مملكة برزنو المجاورة لافريقيا من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية في المائة السابعة وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لأهل مالي معبني مرين.

قلت: ومن أهل برزنو الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد الله البرزنوی شیخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع في مناقبه كتاب «الذهب الإبريزی».

واتصل أمر أهل برزنو على الانتظام إلى أن كان من أمرهم مع المنصور ما ذكره، وكل هؤلاء الأمم كانوا على دين الإسلام قديماً كما رأيت، وكان فيهم العلماء والصلحاء والأدباء والشعراء كما علمته آنفاً وتعلمه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السوداني في تقييده المسمى «بمعراج الصعود»: «أن أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنوا وكنتي وبرزنو وسغاي ما سمعنا قط أن أحداً استولى عليهم قبل إسلامهم ومنهم من هم قدماء الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس أو قربه وكأهل برزنو وسغاي» اهـ. وقد علمت أن أهل غانة تقدم إسلامهم على هذا التاريخ والله تعالى أعلم. ولترجع إلى ما كنا بصدده من أخبار المنصور فنقول:

وصول هدية صاحب برنو إلى المنصور بحضوره فاس وما نشا عن ذلك من بيته له والتزام طاعته

كان المنصور رحمة الله مسعوداً محظوظاً كما أشرنا إليه سابقاً، وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سبباً في مبaitته له والدخول في طاعته. وكان من خبر ذلك ما حكاه في «مناهل الصفا» قال: «وفي سنة تسجين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان، وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتیان العيد والإماء وكساء السودان وطرفه، وكان من ذلك عدد كثير يناظر العترين، فوافى المنصور بعسکره على رأس الماء من ساحة فاس، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلاة، جلس نصره الله تعالى بالقبتين التوأمین المضروبيتين أمام السياج المحيط بقبابه، وهو آفراك، واستوقف الموالي والممالیک سماطین من التوأمین إلى القبة العربية، ثم منها إلى فساطط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه إلى باب المعسکر القبلي، وأتى بالرسول يختار السماطین حتى نزل بالديوان، وكان الملا من أكابر الدولة وصدر المملكة جلوساً وكرسي المملكة وسرير الخلافة منصوباً به، والمهابة قد أخرست الألسن وأخشعـت القلوب والأبصار، فجلس الرسول هناك ملياً، ثم توجه به على سبيل الترقى إلى القبة العربية فجلس بها، ثم جاء الإذن الكريم بإيصاله إلى مقر أمير المؤمنين بالتوأمین فوق فوج بين يديه وتشرف بالنظر إلى طلعته السعيدة فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعترف للمملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطوعية ما أوصاه به مرسله، ثم توجه به إلى معسکر ولی العهد وناتج الإسلام وكافل الأمة بعد والده المولى الأمیر أبي عبد الله محمد الشیخ العاملون بالله، وكان لصف معسکر أمیر المؤمنین برأس الماء، فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدھشة ومحللة هائلة فوق موقف الحيرة، واستدرج إلى أن وصل لقباب ولی العهد ومضاربه، وكان قد قعد له

يفسقسطاط جلوسه أفحى قعود. ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هناً وحبي وفدى وانصرف عنه إلى محل نزوله بالقصبة من فاس، وأدر عليه من الإنعام والإكرام مالم يكن له في حساب.

وكان من أغراض الرسالة التي أنفذها بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البنادق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار، وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالإصطنبول السلطان مراد العثماني يطلب منه المدد لجهاز كفار السودان فأخفق سعيه ولم يحصل على طائل، فوجده في هذه النوبة إلى ملك المغرب يطلب منه المدد، ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتبالين واضح فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر إليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الإعراب عن مقاصدهم من فرسان الإنشاء والكتابة، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة، وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدوين قطري توات وتيكورارين، وأمل أن يجعلهم ركاباً للبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التي وجه إليها عساكره بعد ذلك، فبلغت مملكة مالي عظيم السودان إلى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتد به على صاحب بربو ورجع الرسول إلى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسي من ملابس الخلافة وأسباب آخر. ولما بلغ الرسول والقى المعدنة إلى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضورته ودار خلافته من مراكش، فازال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء إلى التي هي أقوم وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته التبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد إليها، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزّل على جده الصادق، أن الجهاد الذي يتحلّونه ويظهرون العييل إليه والرغبة فيه لا يتم لهم

فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه إذ هو الكافل لهنّة الأمة، ووارث تراث النبوة، وقيضه الله لحماية بيضة الإسلام، وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام وأئمّة السنّة الأعلام، وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته، وعلق لهم أيديه الله الإمداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالالتزام بالرسول، وزعم أيضاً عن سلطانه بالقبول والإجابة، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة إذ ليس بيلدهم من يحسن الإنشاء، ويوفي الغرض لثلا يخلو بشيء من الشروط التي شارطتهم عليها أمير المؤمنين فأثنّاها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها: «الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق منارة يسامي في مطالعها النجوم، وأزاح بها عن شمس الهدایة المنيرة غياب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم، وحي على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم، وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والإمامية الحسينية العلوية التي صرفت الوجه إلى قبليها المشروعة، واستبان الحق بتبلج الصباح في مبaitتها والانقياد لدعونها المسموعة، ونسخ بدولتها الغراء دول العيف التي هي بسيف النبوة المصلت مقطوعه، وبسان السنّة مدقوّعه، وقوض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشّرع الصحيح مرفوعه، وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التي هي على مشافة الله ورسوله تابعة ومتبوعة، وخلع بظهورها على أعطاف الحنفية السمحنة رداء العز الفضفاض واستل بتائیدها للدين محمدي سيف الأنفه والامتعاض، وأشار للأعادى من يأسها المرء عبسان العجية النضاض، وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتها العجاري على حصا عدلها الرضااض، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والأقطار تمهيداً أزال عن حكمه الاعتراض، وجلا بأنوارها المتألقة سلف الجهالة التي ادلهم جوها وغيم، وأسعد الوجود بيمّنها الذي لبث في أكتاف مجدها وخيم، وقضى لهاب بتراحم الأرض ومن عليها إن شاء الله إلى عيسى ابن مریم، والصلة

والسلام على مولانا محمد الذي تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعة، ونهج للدين القريم طريقة الحق المثلثى ومادته الشارعة، وسُوّغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرية الزلال وموارده العذبة ومشارعه، نبي الرحمة وشفيع الأمة، وعلى آله وأصحابه الكرام، أئمّة الهدى ومصابيح الظلام، والدعاء لمولانا الإمام العلوي الهمام، أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، نجل سيد المرسلين وخاتم النبيين، وسليل الوصي والسبطين، وبعد، فإنه لما أذن الله في ليل الجهالة أن ينجاب، وفي شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب، وفي العز الخلق الجلباب أن يعود إلى الشباب، وفي النجاح والاستقامة أن يفتح لهاها الباب، وفي الإمارة أن تستند إلى السنة والكتاب وتعلق من الشرع بأسباب، تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارات الأنوار المضيئة للأغوار والنجود بطلع شمس الخلافة النبوية، والإمامية الهاشمية العلوية، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها، وارتفع إلى حيث السها والفرقدین منارها، وتبلج بالأصباح نهارها، ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها، وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها، وانتشرت في الآفاق والأقطار على بعد والقرب آثارها، وهزت عطف الرمان انتشاء مناقبها وأخبارها، وفاض ببركتها على أكتاف المعمور يمها الزاخر وتيارها، خلافة يتمي إلى النبوة عنصرها، وتنسب من رسالة الوحي أسطرها ويناط بعروتها الوثقى خنصرها وإمامتها على وليها والله نصيرها، والسبط بذرها الذي حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء، والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، إماماً ألقى الله له في القلوب حبّاً جميلاً، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلاً، وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعي لخلقها وعباده كفيلاً، وانتقضى من بأسه ويسالته لحماية حمى الشريعة حساماً صقيلاً، مولانا أمير المؤمنين وخليقه الله في الأرضين وسليل خاتم النبيين ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين، والممنون بإمامته المقدسة على العالمين، بحر الندى والباس وعصمة الله للناس، أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبي العباس، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين، وأئمّة

الطيبين الطاهرين، وطيب بأنفاس المغفرة لحودهم، أجمعين، إمام تهتز لذكره أعطاف المنابر، وتقلد من شريف دعوته أبيه من نفس الجواهر، وتستضيء البلاد باكليل شرفه الزاهر، وتسكن العياد تحت ظل رحمته الوارف الوافر، أبقى الله أيامه الغر بقاء يصحب النصر دوامه، وخلد له ولأعقبه هذا الأمر الكريم إلى يوم القيمة، ولما طلت أيده الله على هذه الأصقاع الزنجية طلائع إمامته النبوية وخلاقته، ولاحظ في سمائها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وأنافته، وتلألت لمجد الآيات البينات التي تشهد له بتراث الرسالة، وتقضى له على الإسلام وعلى الأنام بحكم الولاء والكافلة، وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بإمامته والانقياد لدعوته وتقليد بيته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم، كما قال عليه السلام: «لا تزال الخلافة في قريش ما يقي منهم الأنسان» وكما ورد في صحيح الخبر: «إن الخلافة في قريش والقضاء في الأنصار وفي الجبنة الأذان» ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان، فلا ناكر أن ليس في المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان، فنهض بدليل الشرع أنه إمام الجماعة حقاً المستوفي شروطها، والوارث للخلافة النبوية والحرirsch على بيضة الإسلام أن يحوطها، وأن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دعي، ومحاوله دون إذنه المشروع بدعى، فتعين لذلك أن الرجوع إلى الحق فريضة، واستبان بما تقرر وعلم أن إمارة لا تلافي في الشروع محلها المشروع منبورة ومرفوضة، وعروتها لذلك مقصومة ومنقوضة، فانتدب لهذه الآثار صحيح الأخبار وصرف إلى رضى الله العتية ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الرأبة ومتنه الغاية، الرئيس أبو العلاء إدريس أكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق، على حضرة الإخلاص والتصديق، وأخذت بزمامه السعادة إلى حيث الفوز برضاء الله ورضاء رسوله حقيق، والتأييد صاحب ورفيق، وروض الآمال أنيق، وراح الراحة والاطمئنان عتيق، إلى تقلد إمام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديساً وتشريفاً التي تؤسس إن شاء الله على تقوى من الله ورضوان، وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمن، وأثر أسعده الله أن يؤذني

فرضها المعدود من فروض الأعيان، وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع العام إلى القاضي والدائن، وينشر سنتها المشروعة في صفعه وما يليه من الأصقاع والبقاء بالسودان تقلداً يستضيء إن شاء الله بأنواره، ويستشرف به للعز المكين على مناره، ويحمد به للجهل جذوة ناره، وتتظم به في اتباع الحق زمر أنصاره، ويجلتلي به صورة إنسانه، ويستوجب من الله عوارف صنعه وإحسانه، ويرهف به للعدو على العزمات حد سيفه وسنانه، ويقريع به لرضا الله بباب القبول، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول، ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوة، ويعود له به الزمان للشباب والفتورة، ويرفع به منار الإمارة على قواعد الشع الوثيقة، ويعدل به في كل الأحوال عن المجاز إلى الحقيقة، وتتبين له به وهي المقصد الأسمى والخاتمة الحسنى، الأسوة الحسنة يمامي بنى العباس السفاح والمنصور، ويحيى سنتهما التي نقلها ثقات الأعلام والمصدرون، في مبايعتهم الإمام الخليفة المهدي الأكبر سليل سيد المرسلين وجد مولانا أمير المؤمنين الذي رأى إمام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق، وفي منصب الإمامة على شرطها أعرق، ويسيرها ومنبرها أليق، فتأكد للمتدبر أكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب المتينة العزم والقصد، وأنجز له فيما أراده صادق الوعد، وساعد نيته الصالحة فيه السعد، فبايعه أعلى الله يده على الأمان والأمانة، والعفاف والديانة، والعدل الذي يشيد للمجد أركانه، مبايعة شاعه على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه وجموعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثائق، وبجميع الأيمان الصادقة الأيمان، أعطوا بها صفة أيديهم، ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم، وأمضوها على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة إمضاء يدينون به في السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشدة، والأزمان المشتبدة، والتزموا شروطها طوعاً، واستوعبواها جنساً ونوعاً، بنيات منهم خالصة صادقة، وعدة من الله لهم بالخير سابقة، وسعادة بالحسنى لاحقة أبرموا عقدتها، وأحكموا وعدها وعهدها، على حكم الكتاب والسنّة والجماعة، والأخذ بسنتها أعقاباً عن أعقاب، وأحقاباً أثر أحقاب، إلى يوم القيمة

واقتراب الساعة، لا يلحق عقدها الكريم فسخ، ولا يعقبه بحول الله نسخ، ولا يتطرق إليه نقض ولا نكث، ولا يشوّه بشوائب الشبهات ببحث، وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفيضة، والأيمان الازمة المغفلة هو وأتباعه إجماعاً شرعياً، وحتموه على أنفسهم حتماً مقتضياً، واعتقده اعتقاداً أبداً، وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفراداً وأزواجاً، وحداناً وأفواجاً، وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة للصدور، قائلين: بالله الذي لا إله إلا هو الملك القدس العليم بالخفيات، والخبير بالأجال والوفيات، وبجميع الرسل الكرام والأنباء، وملاذة الرحمن في الأرض والسماء، وعلى أنهم إن حادوا عن هذا السبيل وانقادوا لدعاه داعي التغيير والتبدل، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسته، فهم برآء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمه، ومستوجبون لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته، وبعداء من رحمته، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيمة لأمته، وأنهم خالعون لرقيقة الإسلام، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام، أعلناها بهذا إعلاناً تعصده النجوى وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى وأحكامه الازمة لكلمة التقوى، استرضاء الله وللخلافة النبوية، والإماماة العلوية، ورياضة للنقوس على بيتها المباركة الميمونة التقيبة، واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوية، مستسلمين إلى الله بالقلوب الخاشعة، ومتضرعين إلى بابه الكريم بالأدعية النافعة، في أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم، والعهد الصميم، بدأ وختاماً، وأن يمنحهم بركته التي تصحبهم حالاً ودوماً لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، أشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء إدريس أسعده الله وأكرمه، وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعماة من الهجرة النبوية انتهى.

ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافة أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه إلى بلاده بجواب مرسله، ولم يلبث أن رجعه سلطانه ثالثة ووجه معه هدية ورسالة، وخاضن القفر إلى دار الخلافة، فوصل إلى بلاد تيكوارين وهناك اعترضته منيته فاعتُلَ وهلك، فأشخص أولو الأمر

الذين بتذكره الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه، فوصلوا بها إلى حضرة أمير المؤمنين يمراكش، وقدموا إليه رسالتهم وهديتهم فتقبّلها بقبول حسن، وتم السرور وعظم العجور، واستقامت للمنصور الأمور.

بعث المنصور ورسوله بالدعوة إلى آل سكبة وكيفية ذلك

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبي العلاء صاحب مملكة يربو ما قدموا لأجله رغم المنصور إلى أصحابهم مكرمين، وانتخب رسولًا عارفًا مجرّدًا من لهم بصيرة بأحوال السودان فبعثه معهم عيناً يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها، وبعث معه رسالة إلى السلطان إسحاق بن خاود من آل سكبة صاحب مملكة كاغو، من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذي يتغاضي بين المغرب والسودان، ومنه يحمل الملح إلى أقطار السودان، وظيفاً، بأن يجعل كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالاً من الذهب العين لكل حمل، تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لأن ذلك بحر لا ساحل له.

وكان المنصور لم يكتبه في ذلك حتى استفتى علماء إياته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه، ويعث إلى المنصور بتلك الفتوى مع الرسالة الموجة بها مع الرسول، وكانت من إنشاء العلامة الأديب مفتى الحضرة المراكشية المولى أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي، لأن كاتب الإنشاء أبي قارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي كان مريضاً يومئذ، ولما فرغ الشريف المذكور من إنشائها بقي عليه الصدر فلم يدر كيف يقول في مخاطبة إسحاق سكبة ولا كيف يمدحه، وهل يتغول في المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحرير في ذلك إلى المنصور بما نصه: «أيدكم الله ونصر

أعلامكم إن مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تلعثم فيه لساني، ووقف عن خوض لجته بناني، لأن الناي عن هذه المحاجة قد مد بيدي وبينها حجاباً، وأغلق في وجهي باباً، فلا آمن من أن أفتحم الواقع في تفريط أو إفراط، وخير الأمور لو علمته الأوساط، لكن لا سبيل إلى معرفته إلا بعد علم الطرفين، والعبد محجوب عن ذلك دون مين فترك - أيدكم الله - الصدر لمن هو به مني أقعد، وتحامت عقده لمن هو له أعقد، أبي فارس عبد العزيز الذي فاضت عليه أنواركم، وأضاءت له سبل هذا المخبر أقماركم، وإلا قرعت هواتف لسان الحال سمعي بقول القائل:

يا باري القوس برياً ليس يحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها

ولما بلغت رسالة المنصور إلى السلطان إسحاق سكية واطلع عليها شق عليه ذلك وماطل في الجواب، وحيث أبطا الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم إيجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر إلى السودان، فهذا هو العامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها، ولما فتح تيكورارين وتوات قوي عزمه على ذلك، وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما نذكره إن شاء الله.

مفاوضات المنصور الملا من أصحابه في غزو آل سكية وما دار بينهم في ذلك

قال الفتالي رحمة الله: لما رجعت أرسال المنصور إليه من عند إسحاق سكية وأعلمه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية، والمنصور أمير ناحية، وأنه لا تجب طاعته عليه، شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقي أهل الرأي والمشورة فاجتمعوا، وكان يوم اجتماعهم يوماً مشهوداً، فقال لهم المنصور: «إني عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو

ويبعث الجيوش إليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحدد الرعية، ولأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الإسلام ويشتند ساعد كتيبته، مع أن صاحب أمرهم والمتولي لسلطتهم اليوم معزول عن الإمارة شرعاً، إذ ليس بقريشي ولا اجتمعت شروط السلطة فيه العظمى» فلم نثر المنصور ما في كنانته وأبدى ما في خبيثته وعرض ما في عيوبه سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء، فقال لهم: «أسكنتم استصواباً لرأيي أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي؟» فأجاب كلهم بلسان واحد ورأي متافق: «إن ذلك رأي عن الصواب منحرف وأنه بمهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوفة فكيف بالملوك، وذلك لأن بينما وبين السودان مهماته فيحأ تقصير فيها الخطأ، وتحار فيها القطا، وليس فيها ماء ولا كلاً، فلا يتأتي السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذرعاً، وأيضاً فإن دولة المرابطين على ضخامتها، ودولة الموحدين على عظمها، ودولة المرinيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك، ولا تعرضوا لما هنالك، وما ذلك إلا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها، وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول فإن العناصر لا يكون أعقل من الأول» فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم، قال لهم المنصور: «إن كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري، وفيتم به رأيي فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندي، أما قولكم بينما وبينها صحراء مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في أحشائهما مشاة وركباناً وجماعة ووحداناً، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل، وأما قولكم إن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنائهم لغزو الأندلس ومقابلة الإفرنج ومن بذلك الساحل من الأرواح، والموحدون افتقدوا سبيلاً لهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرinيون كانت غالباً وقائعاً لهم معبني عبد الواد بتلمسان، ونحن اليوم قد انسد عنا بباب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليها

جملة، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها، ثم إن أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرساناً رامحة ورماة ناشبة، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق، وأهل السودان ليس عندهم الآن إلا الرماح والسيوف، وهي لا تقاوم هذه المدفعية المستحدثة، فمقاتلتهم سهلة وحربيهم أيسر من كل شيء، وأيضاً فإن بلاد السودان أفعى من إفريقيا فالاشغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل، فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعاد القريب واستصحاب السهل، فإنه كم ترك الأول للآخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم^٤. فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما في وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا إشارته واستجادوا رأيه، وقالوا له: «قد طبقت المفضل وألهمت الصواب ولم تبق لأحد ما يقول، وصدق من قال: «عقول الملوك ملوك العقول». فانفصل الجمع على البعث إلى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه. قلت: وفي كلام المنصور أمران يحتاجان إلى مزيد بيان الأول: ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعني بهم الذين أقاموا بأرض المغرب ودبوا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الأمير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لأن ذلك كان بعد رجوعه إلى الصحراء واستقراره بها وإعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر، الثاني: ما قاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة يعني به لم يكن موجوداً فيها بكثرة بحيث يستغني به الجيش عن غيره ساعة القتال، فلا يرد عليه أن ظهوره كان في أوائل العادة السابعة لأول دولة بني مرين كما مر إذ ظهوره في تلك المدة كلاً ظهوراً.

والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم وتلمنه لهم

قالوا: ومن اعتناء المنصور رحمة الله أنه بعث إلى علماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال حبل السند واقتقاء لاحب ذلك الطريق الأسد، ومنمن أجازه: الإمام العارف بالله أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله عنه، ومن بعض فضول إجازته له قوله يمدح كتاب المنصور إليه ويشني عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه: ولقد وصل إلى المثل العديم المثال، المزري نظامه بعقود اللآل، فإذا به السحر إلا أنه الحلال، ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد عليه السلام أن يمد الله كراماً كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله إلى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه، فما من خارق في الأمة إلا وهو من معجزاته عليه السلام دال على علاه، وأما ما شرفني به من طلب الإجازة فالبيت والحديث له، ولكن رب أب أرسل إلى ابنه على يد عبده عطاء فقبله، وإليه بأمره حمله، وحيث وقع الأمر فأمر مولانا حتم، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد، من جميع ما يجوز لهذا العبد، بجميع ما يجوز له وعند روایته بشرطه المعتبر عند أهل الأمر، وكذلك مجاز أهل العصر إجازة عام بعام، ليكون أبناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا تحت ظلال ذلك الإنعام، فإنه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع عشر ربیع الثاني سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة، محمد بن أبي الحسن الصدیقی سبط آل الحسن، اهـ.

ومن استجازة المنصور أيضاً من علماء مصر: الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب «ذيل الديباج» فأجازه إجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله:

أجزت لمن تفضل واستجازاً وبادر لاقتنا خير وحازاً
وأبرز في سلوك العلم حالاً به من فضل مولانا يجازى
إمام كامل غوث البراياً أمير المؤمنين حوى مجازاً

وذلك بعد تشريفي بأمر
فبادرت امثلاً قدر وسعي
وقد أبديت حقاً لا محالاً
بفاتحة وسنة خير هدى
بدار الهجرة العليا إمام
وأرجو منه يهدي لي دعاء
بخاتمة تبلغني مراماً
وأشياخي يبلغهم رضاء
وقصد للإجازة فاستجازا
ومقتفياً مناهج من أجازا
بما صار الإمام به مجازا
وسلسلة لمن حاز امتيازاً
بما أبداه من فضل مجازاً
لما أرجوه من خير مجازاً
بجنت أراها لى مفازاً
ويواصلهم إلى خير يجازاً

تجديد المنصور ولإيادة العهد لابنه المامون وما وقع في ذلك

قالوا: وفي شوال سنة الثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على إخوته خصوصاً لأنهم كانوا في البيعة الأولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسماً لمادة النزاع بينهم، فارتاح المنصور من مراكش إلى تامسنا وبيث البasha عزوز بن سعيد الوزكيي ليأتيه بولي عهده المذكور من فاس، فتوافق القصدان بتامسنا، وبباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه، وحضر الأعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهرمي رضي الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحيفان للشيخين، وقرئ ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ويجنبه القاضي أبو القاسم الشاطبي يفسر ما أشكل من لفظ الظهير.

ولما أخذ البيعة آخر أولاده إلى غد يومها فكتبو خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له، ووقع في رسالة السلطان زيدان لأبي زكرياء ابن عبد المنعم الإمام بذكر هذه البيعة فقال: «إنني حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب الغرب سامحة الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له إلا أنا، فإنه رضي الله عنه قال: «فلان لا يحلف لا يحتاج إليه فيما نأمره به ونفعله وعظم

ذلك على إخوتي وظهرت في وجوههم لأجله الكراهية» اهـ.
ولما فرغ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلاً من أولاده للإمارة
ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى في نفوسهم إحن ولا تنطوي قلوبهم على
ضيق، فعقد لأبي فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائمه وعقد
لأبي الحسن على مكناسة وما والاها، وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك
لأمر اقتضاه الحال، فنقل زيدان إلى مكناسة، ونقل أبي الحسن إلى تادلا،
ولم يزالوا على ذلك إلى أن كان من أمرهم ما ذكره في محله إن شاء الله.

ثورة الحاج قرقوش ببلاد غماره ومقتله

قالوا: وفي سنة ثلاثة وتسعين وتسعين ثار رجل يقال له: الحاج
قرقوش بجبال غماره وببلاد الهبط وتسمى بأمير المؤمنين، وكان في ابتداء
أمره حائكاً فطلب بالزهد والصلاح، واعتقدته العامة ثم استحال أمره إلى ما
ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه إلى مراكش وانقطعت مادة فساده فلم تبكه
أرض ولا سماء.

بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله

كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهي بنت الشيخ الأجل أبي العباس
أحمد بن عبد الله الوزكيي الورززاتي من الصالحات حريصة على اقتناء
المفاخر راغبة في فعل الخير، قال في المتنقى: «وهي التي أنشأت المسجد
الجامع بجحومة بباب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافاً عظيمة وكان
ذلك سنة خمس وتسعين وتسعين. قال: «وهي التي بنت جسر وادي أم
الربيع وغير ذلك» اهـ.

قلت: المرقوم على رخامة قبرها أنها بنت جسرين بلفظ الثنوية وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفاره لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك أنها دخلت بستانًا من بساتين قصورها وهي في حال الوحش فرأى به خوخاً ورماناً فتناولتهما وأكلت منها في نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالاً كثيرة من باب البر وجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها إلى الآن فيقولون: عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان، في أ-songاع غير هذه. ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البرير في مثل هذا والله تعالى أعلم.

بعث المنصور ببلاة الرخام إلى جامع القرويين من فاس حرسها الله

قال ابن القاضي في «المتنقى المقصور»: «إن المنصور رحمة الله بعث الخصبة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة إلى جامع القرويين من فاس مع كرسي من المرمر توضع عليه وزنهما معاً مائة قطار» قال: «وهي: الخصبة التي تحت منار الجامع المذكور» وقال ابن القاضي المذكور فيها نقش برقبتها:

<p>بحر المكارم من أبناء عدنان</p> <p>ومن علاء سلام المجد أرساني</p> <p>أغناء ما قد هم من صوب أجناني</p> <p>فالعيون تدمع من أفراط سلوان</p> <p>معين دمع جرى من فيض خلجاني</p> <p>أشاع صيتني إلى أطراف عمان</p> <p>كف الخليفة من أبناء زيدان</p> <p>ما هيجة عاشقاً ورق بأفنان</p> <p>للدين والأجر بحر الجود سوانى</p>	<p>إمام دار الهدى المنصور شيدنى</p> <p>حضرت المفاخر بالمنصور أجمعها</p> <p>من جاء يشكواظلماما يوماً وقبلني</p> <p>لاتنكرن وجود الدمع من فرح</p> <p>واشرب هنيناً من السلسال لا حرج</p> <p>فخر السلاطين من أبناء فاطمة</p> <p>وقد جرت مقلتي تحكى سحائبها</p> <p>لا زال للدين والدنيا يسوسهما</p> <p>إنسانى في زمن التاريخ وافقه</p>
---	---

وفي هذه السنة أعني ست وتسعين وتسعمائة في ذي الحجة منها سافر المنصور إلى فاس وبينما هو في الطريق وافته البشرى بالفتى بنصارى سبعة وأن زعيم الفتنة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسي التطاوينى كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع فخر النصارى بأولادهم وحشthem فحال النقسي بينهم وبين سبعة وأربعين بهم وكاد يفتحها، وسر المنصور بهذا الخبر، وأنشده في ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي يتبعين زجر له منها الفال باستيلائه عليها وهما:

هذه سبعة تزف عروسأً نحو ناديك في شباب قشيب
وهي بشرى وأنت كفؤ المواتي كافأت بعلها بفتح قريب

وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة في اليوم الثاني من ذي القعدة منها أخلى النصارى مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هناك على القرار بأنفسهم فتركوها يباباً وذهبوا، وفي ذلك يقول أبو العباس ابن القاضي:

يا أيها المنصور أبشر بالعلا
أنضاكم سيفاً لحتف عداته

وهزمتم الشرك المتبين بعزمكم
وأدتيتم كيد الخبيث بهمة

أكرم به من مالك بل صالح
لا زال في أقف الهدى شماماً وفي

عين العلاء يشاكل التكحيلـا

وأشار يقوله لبارود العدة خليلاً إلى ما صنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من آصيلاً فإنهم حفروا تحت قصبتها وملؤوا الحفرة بالبارود وأخذوا فتىً تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصراني منهم وأخبر المسلمين بذلك فنجم لهم الله تعالى من مكيدة الوبال، وكفى الله المؤمنين القتال، وقال في ذلك أيضاً الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالي شعراً ذكره صاحب «نشر المثاني» فانظره.

وكان في زمن المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة

والنجدة في قتال العدو ومنهم: أولاد النقيس التطوانيون، ومنهم: أولاد أبي الليف من أهل بلاد الهبط، قال في «المراة»: «لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصراوة على ما كان عليه، ومن شدة نكايته في العدو الكافر الطنجي وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر فسعى به إلى المنصور فأمر برحله إلى فاس هو وعشيرته مغربين عن وطنهم كأنهم في سجن، فأقاموا بفاس مدة لا أدرى هل هي سنة أم أكثر إلا أنني كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعين وأنا إذ ذاك صغير، ويعنى بالشيخ والده أبي المحاسن رحمة الله»، قال: «فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوماً المقدم عمر أخيه كبيره المقدم محمد: لو زرنا الشيخ اليوم وتبركتنا به لعل الله يفرج عنا فإن الناس كثيراً ما يقصدونه في المهمات» فقال له: «لا أتحرك فقد غلب اليأس» فسار المقدم عمر وحده فلما وصل إلى الشيخ قال له: «اقنطتم» قال: «نعم يا سيدي» فقال له الشيخ: «غداً يخللي سبيلكم إن شاء الله» فرجع إلى أخيه وأخبره، فلما كان من الغد بعث إليهم القاضي أبو محمد عبد الواحد الحميدي فلما أتوه قال لهم: أبشروا بالسراج والرجوع إلى الوطن إن شاء الله، فإنه قد قرئ الآن بين يدي السلطان بعض الغزوات التي ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها، فقال السلطان أو غيره: «ترى هل بقي في هذا الزمان من يماثلهم» فقالوا: قد بقي من يفعل فعلهم، وما هم أولاد أبي الليف المغاربة هنا يفعلون مثل ذلك»، فقال السلطان سرحون إلى بلادهم ليحملوا ثغورهم ويجاهدوا في سبيل الله فرجعوا إلى بلادهم وفعلوا الأفاعيل في عدو الدين إلى أن استشهد المقدم محمد في ربيع الثاني سنة اثنين وألف» اهـ.

غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها إسحاق سكية رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته في غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فبقي المنصور يقدم رجلاً ويؤخر أخرى إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعين سنة فقوى عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهماته، وأمر القواد أن يقوموا حرصاً على القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل ويعمال، وإن من أني بحمل ضعيف يعقب، واشتغل هو بتنقيم آلة الحرب من المدافع والعربات التي تحملها والبارود والرصاص والذخيرة، وتقديم الخشب واللواح وال الحديد للغلاط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايات لحمل الماء، وألف النجارون ذلك في البر إلى أن تألف، ثم خلعوه وشدوه أحmalًا، واستمر الحال إلى أن استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاثة سنين، ثم أمر بإخراج المضارب والمباني لوادي تانسيفت فخرجت الأحمال والأقال من مراكش في اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعين وتسعين ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلاً ورجالاً وجعلتها عشرون ألفاً، ومعهم من المعلميين البحريين والطبعيين ألفان، فالمجموع اثنان وعشرون ألفاً، وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جوزر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة، فاختار منهم من يعلم نجده ويعرف كفایته، وتخير من الإبل كل بازل وكوماء، ومن الخيل كل عتيق وجراء، ثم نهضوا في زي عظيم وهيبة لم ير مثلها، وذلك في محرم فاتح سنة تسعة وتسعين وتسعين سنة، وكتب المنصور إلى قاضي تمبكتو الفقيه العلامة أبي حفص عمر ابن الشيخ محمود ابن عماء قيت الصنهاجي يأمره بحضور الناس على الطاعة ولزوم الجمعة.

ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوي، ثم على درعة ودخلوا القفر والفيافي فقطعواها في مائة مرحلة ولم يضع لهم عقال بغير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تمبكتو ثغر السودان، فأراحوا بها أيامًا،

ثم صاروا قاصدين دار إسحاق سكبة، ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادون لهم، وخرج من مدينة كاغو يجر الشوك والمدر يقال: إنه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل.

وقال الفشتالي: ولم يقنع بالجيوش التي جمع حتى أضاف إليها أشياخ السحرة وأهل الفتنة في العقد وأرباب العزائم والسيعيماء ظناً منه أن ذلك يعني شيئاً، وهيهات، ويرحم الله آبا تمام إذ قال فيما يقرب من هذا الحال:

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
يبضم الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهر الأرماح لامعة
بين الخمسين لا في السعة الشهب
أبين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً وأحاديثاً ملتفقة
ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ولما تقارب الجمعان عبا الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الإبل وصبروا من الضحى إلى العصر، وكانت ملاحمهم إنما هي الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيئاً، ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وأنهزم السودان فولوا الأدبار. وحق عليهم البوار، وحكمت في رقابهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه، وفر إسحاق في شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه، وتقدم جؤذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الأموال والماتع، وكان ذلك متصرف جمامي الأولى من سنة تسعة وتسعين وتسعمائة، ويقال: إن جؤذراً لم يدخل مدينة كاغو وإنما تحصن بها إسحاق فحاصره جؤذر فيها، وكتب إلى المنصور بخبر الفتح ويعث إليه بهدية فيها عشرة آلاف مشقال ذهباً ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك، وامتدت العساكر المنصورة في بلاد آل سكبة تعبيث وتفسدة وتسويبي وتعذيب إلى أن راسل إسحاق البasha جؤذراً في تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة

فأجابه إلى ذلك على مشورة المنصور وإمضائه إياه، ثم كتب إلى المنصور بذلك وكانت العساكر قد أصابتها الحمى ووخامة تلك الأرض فاتفق رأي الأمراء على الرجوع والإقامة بتبنكتو إلى أن يأتي جواب المنصور، فرجعوا وأخذ جؤذر في إنشاء الغلائط والسفن وتركبها ولما أكملها دفعها في النيل، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد القوم عسكراً خفيفاً ويعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا، وهو آخر جؤذر وقلده أمر العساكر كلها، وعزل جؤذراً عنها وأمر محموداً أن يبقيه معه، وكتب إلى أمراء العسكر يعاتبهم بوبخهم على ما فعلوه مع إسحاق من الصلح، ويؤكد عليهم في الرجوع إلى بلاده واتباعه حيشما توجه ولو عبر النيل إلى العدوة الأخرى، وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر في زمان العحر في وقت لا يقدر على الحركة فيه إلا القطا الكدرى وقطع القفر في خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تبنكتو على رأس ستة الألف فأراح بها ثلاثة ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجندي فساروا في النيل وسار السوداد الأعظم في البر إلى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك إسحاق سكية، وكان إسحاق لما رجعت عنه العساكر إلى تبنكتو احتشد أمام السودان المجاورين له وتذمروا وأصفقوا معه على الموت، فلما بلغه رجوع العساكر إلى كاغو قصدهم في جموعه، ولما التقى الجمuan لم يكن إلا مقدار فوق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهارات وارتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول، وتبعهم العساcker يقتلون ويأسرون إلى أن غشיהם ظلم الليل ورجعوا بالغنائم والسببي فاستراحوا ثلاثة، ثم أمر محمود أخاه جؤذراً أن يقيم بمدينة كاغو عامراً لها، ويترك معه عدداً من العسكر يكون ردها لهم، وسار هو في اتباع إسحاق إلى أن لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شناعة وفر في قل من قومه فعبر النيل إلى العدوة الأخرى وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره في السفن وسار خلفه إلى أن لحقه فأوقع به وقعة ثلاثة احتوى فيها على ما معه من المال والحرير ودخل إسحاق القفر فهلك فيه، ثم كانت لمحمد وقعة أخرى مع أخيه الذي كان ينافذه في

الملك فإنه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف إلى محمود باشا فنهض إليه محمود فهزمه وقتله فيما معه من جنده وأتباعه، وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاء كلياً، وكتب بخبر الفتح إلى المنصور.

ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيداً من الأعياد أخرج فيه الصدقات وأعشق الرقاب، وأقام مهرجاناً عظيماً بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والتنزهة وزينت الأسواق وأخرجت المدافع بالتفط وتسابقت الخيول، وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداهم، وأجازهم بما تحدث الناس به دهراً، وكتب بخبر الفتح وصوريته نسخ وجهت إلى جميع الآفاق، وكان مما قيل في ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي فقال:

جيش الصباح على الدجا متدقق
وكأنه رايات عسكرك التي
طلعت على السودان بيضاً تخنق
لاحت وأفقهم ليال كله
كمود صبح في الدجا يتألق
نشرت لنطوي منه ليلاً داماً
أرسلتهم جوانحاً وجوارحاً
وسرت فكان دليلهن إليهم
لهي الليالي قد جلى أحلاكها
مشحوذ عزمك والسان الأزرق
صعبت بهن رعود نارك صعقة
مشحوذ عزمك والسان الأزرق
نور النبوة من جبينك يشرق
رجمت لصيحتها العراق وجلق
سحقاً لإسحاق الشقي وحزبه
من جيش جؤذرك الغضنفر فيلق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه
عمر وأوله بكاغو محدق
جيشه أواخره ببابك سيله
ضربت عليهم من قناك وخندق
لم يشعروا إلا وأسوار الردى
كتب الإله على عداتك أنهم
فنص لسهمك غربوا أو شرقوا
ضللت ملوك ساجلوك على العلا
سفهاً وشاؤك في العلا لا يلحق
أن يشبهوك ولا شبيه يرى لكم
في الخلق أين من التجين الزئبق
بشـر ملوك الأرض أنك فاتح

ما جمعوه وجامع ما فرقوا
وبيواصل لك ذي الفقار مفرق
دامت طيور السعد وهي غوارد
بالمشتهى لك والمسرة تنطق
ما دام أصل علاك في صحف الثنا
أصل الفخار وكل غيرك ملحق

والمشتهى والمسرة بستانان للمنصور ورئي بهما هذا الشاعر وسيأتي
الكلام عليهم. وكان محمود باشا لما استوسق له الأمر هنالك بعث بنصف
جيشه إلى المنصور مع هدية عظيم فيها من الذخائر ما لا يحصى، من ذلك:
ألف ومائتان من متخير الرقيق الجواري والغلمان، وأربعون حملةً من التبر،
وأربعة سروج ذهبًا خالصاً، وأحمال كثيرة من اليابسون وقطوط العالية وغير
ذلك، ولما وافت المنصور سر بذلك سروراً عظيماً وأمر بعمل المفرحات في
بلاد المغرب ويتزين الأسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام، ووفدت عليه الوفود
من كل ناحية مهنيين له بما منحه الله من الظرف والنصر، وانتظمت الممالك
السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المتوسط من أقصى المغرب إلى بلاد
برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر قال الفشتالي: فكلمة
المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة إلى البحر المتوسط من ناحية المغرب وهذا
ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله، والله يؤتي ملكه من يشاء، ولما
فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل إليه من التبر ما يعيي الحاسبين،
ويحير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النصار
الصافي، والدينار الراوفي، وكان بيابنه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب
الدينار الراوفي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحللى وشيه ذلك
ولأجل هذا لقب بالذهبى لفيضان الذهب فى أيامه والأمور كلها بيد الله.

وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكينية رحمها الله

كانت الحرة مسعودة هذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض مآثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره. وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف، ومن المستفيض أنها ریشت بعد موتها فسئللت ما فعل الله بها فقالت: «غفر لي»، بسبب أنني كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع في الآذان فرددت على ثيابي إعظاماً للذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي».

وفي سنة إحدى وألف أتى بالفيلة من بلاد السودان إلى المنصور، وكان يوم دخولها لمراكش يوماً مشهوداً برب لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت إلى فاس في رمضان سنة سبع وألف. قال في «نشر المثاني»: كان دخول الفيل إلى فاس يوم الاثنين السادس عشر رمضان سنة سبع وألف ويبعث المنصور مع الفيل إلى ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس في ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس».

قال بعضهم: «ويسبب دخول هذه الفيلة إلى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتایغ لأن أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسمونها قدموها بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع، فشارع من لهم في بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب، وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم، فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل، ومتوقف، والعلم فيها عند الله سبحانه» قاله اليفرني.

قلت: من تأمل أدنى تأمل في قواعد الشريعة وأدابها علم يقيناً أن تناول هذه العشبة حرام، لأنها من الخباث التي حرمتها الله تعالى على هذه الأمة المطهرة، وبذلك وصفها في الكتب السالفة إذ قال تعالى: «**الَّذِينَ يَتَّمِّنُونَ رَبُّهُمْ أَلْتَقَى إِلَيْهِمْ مَكْنُونَهُمْ** فِي التَّوَرَّةِ وَالْإِنْجِيلِ **يَأْمُرُهُمْ بِالْمَسْرُوفِ وَنَهِيُّهُمْ** عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَحِلُّ لَهُمُ الظَّبَابُ **وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَثَ**» [الأعراف: ١٥٧].

ويسط هذا المقام: إن تعلم أن الله تعالى اختار هذه الأمة من بين سائر الأمم قال تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرَجْتُ لِلثَّالِثِ» [آل عمران: ١١٥] واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضليها، قال تعالى: «أَلَيْوَمْ أَكَلْتُ لَكُمْ دِيَنَكُمْ وَأَمْتَعْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً وَرَفَعْتُ لَكُمُ الْأَسْلَمَ وَبِئْرًا» [السائد: ٣] وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التي هي من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد، ثم إذا أمعنت النظر رأيت الشارع صلوات الله عليه قد بالغ في الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن، واجتناب كل خبيث أمكن، فشرع أولاً الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن. وحضر من مقاربة الصلاة وما هو في معناها حال الخلو عنها، ثم شرع ثانياً الطهارة الصغرى المتعلقة بأطراف البدن زيادة في الاعتناء بها لأنها تبرز في غالب الأحوال فيعلق بها من الأذنار ما لا يعلق بغيرها، وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة عند عروض كل حدث مستقرٍ حتى الريح والسبب الداعي إلى خروجه، ثم ندبه إلى استعمالها عند القيام إلى كل صلاة من الصلوات الخمس.

ثم إنما إذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعي غاية النظافة وتنفي كل قدر وإن قل، فشرع الغسل في أعضاء الوضوء مكرراً، وشرع مسح شعر الرأس بالماء دفعاً لما يعلق به من الغبار، وشرع تبخير مسام الوجه بالغسل والتنظيم كالمضمضة والاستنشاق ثلاثة تطبيقات للنكحة، وشرع مسح الأذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين إزالة لما يداخلهما من تلك الفضيلة، مع أن الحي ودممه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها ظاهرة، أو ليس في هذا دليل واضح على أن الحكمة في هذا كله إنما هو المبالغة في النظافة وتطبيقات الرائحة والنكحة إذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب، وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستنقذات حتى يكون على أكمل الحالات بعيداً عن القذر بكل وجه، ثم لم يكتف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام إلى كل صلاة وقال: «لَوْلَا أَنْ أَشْقَى عَلَى أُمَّتِي لَأَمْرَتُهُمْ بِالسَّوَّاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَوةٍ» كل ذلك المقصود منه طيب النكحة فانتظر وتأمل اعتناء الشارع بتطبيب رائحة

فم المؤمن ونكته حتى في حق الصائم الذي «خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك» هذا كله في حال الصلاة.

وأما خارجها فقد علم من الشرع علماً ضرورياً أن العبد مطلوب بالمحافظة على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك ويسره. ومن هذا المعنى: ما حرم الله تعالى على هذه الأمة من تناول المستقدرات كالسمية والدم وسائر النجاسات إذ علة حرمة الأشياء وتناولها إما كونها مستقدرة كالنجاسات إجماعاً، وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعي رضي الله عنه، أو مضره كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو بعض الأعضاء منه، أو محترمة: إما لذاتها، كالأدمي، أو لكونها ملكاً للغير وهو ظاهر. فالشارع له غرض أكيد في اجتناب الطيبات واجتناب ما يصادها من المستحبثات، وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون في حواتفهم فإذا حضرت الجمعة أتوا إلى المسجد وأيدانهم سهكة فامرهم النبي ﷺ بالاغتسال عند كل جمعة، ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها، وحجب إلى النبي ﷺ من دنيانا النساء والطيب، وندب أمته إلى استعماله في المشاهد العامة مثل الجمع والأعياد ونحوها، وخصال الفطرة إنما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاية لمن تأملها، قوله ﷺ: «إذرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه» دفعاً للسرف والخيلاء، ولثلا يعلق به شيء من النجاسات والأقدار إلى غير هذا مما لو استقصي لطال، ودل دالة قطعية على أن المطلوب من العبد أن يكون نظيفاً طيب الرائحة حسن البزة ظاهر البدن والثوب مجانياً لكل خبيث مستقدر، وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس، وأنت لا تجد أخبت ولا أقدر من رائحة أفواه شربة الدخان، ولا أنت ولا أعن من نكهات المستفين لغبار تابغ، وهذا النتن من أقبح العيوب في نظر الشرع حتى أنه جعل الخيار لأحد الزوجين إذا كان صاحبه أبخر، فإذاً لا نشك أن استعمال هذه العشبة الخبيثة في الفم أو الأنف من أعظم المحظورات لأنها تصلم غرضاً كبيراً من أغراض الشارع وتضاده وتنفيذها،

وأقول لو كان نتها يعلق بعضو من الأعضاء غير الوجه لكان هن لكته يعلق بالفم والأنف اللذين وضعهما الحكيم العليم في وسط الوجه الذي هو أشرف الأعضاء، فـأي مضمضة وأـي استنشاق وأـي سواك يزيل ذلك التن الذي يرسخ في أنفاس أهلها وأفواهم وخياشيمهم رسوحاً لا يماثله شيءٌ.

ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا: إن فضلة الدخان المسممة بالقير تنجس النجاسة هذا إلى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى أنه إذا انقطعت عنه صار كالمحجنون لا يبالي بما يصدر منه، ومن دخول الشك في صيامه لأن بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد يمكث في حلقه إلى طلوع الفجر وما بعده، لأن جلهم إذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم، وبالجملة، فلا يستعمل ذلك إلا من لا خلاق له ولا يكثرت بمروءة ولا دين وهو قادر في الشهادة والإمامية والله تعالى الموفق به.

نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني
وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك

كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو ومنهم لهم الوجهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياضة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسوداد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبواهم البasha محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سمو ملكة المغاربة وأنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم، وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغييرهم إلى مراكش، فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن ثلاثة أحامد ابن

عمر بن محمد آقيت المدعو: بابا، صاحب «تكميل الديبايج» وغيره من التأليف. وكان فيها أيضاً الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصنفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حرفيتهم وانتهيت ذخائرهم وكتبيهم.

قال في «بذل المناصحة»: «سمعت الشيخ أبي العباس أحمد بابا يقول: أنا أقل عشيرتي كتاباً وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد» وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنين وألف، ووصلوا إلى مراكش في أول رمضان من السنة المذكورة، واستقرروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن انتصر أمد المحتلة، فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك.

ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسریعه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بنى العباس ومن يتشبه بهم، فقال الشيخ: «إن الله تعالى يقول: **﴿وَمَا كَانَ لِشَرِيكٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهُ إِلَّا وَجِئَ أَوْ مِنْ وَلَائِهِ جَهَنَّمُ﴾** [الشورى: ٥١] وأنت قد تشبهت برب الأرباب فإن كانت لك حاجة في الكلام فاتزل إلينا وارفع عنا الحجاب» فنزل المنصور ورفعت الأستار، فقال له الشيخ: «أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبى وتصفيدي من تبتكتو إلى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقى؟» فقال له المنصور: «أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم» فقال الشيخ أبو العباس: «فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فإنهم أقرب إليك منا» فقال المنصور: «قال النبي ﷺ: **«إِنْ تَرْكُوا التَّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ»** فامتثلنا الحديث» فقال أبو العباس: «ذاك زمان، وبعله قال ابن عباس: **«لَا تَرْكُوا التَّرْكَ إِنْ تَرَكُوكُمْ»** فسكت المنصور وانقض المجلس.

ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهreu الناس إليه للأخذ عنه، ولم يزل بمراڭش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراڭش، ولما توفي آذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع إلى بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراڭش، وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق إلى

رؤبة بلدته ويسبّب العبرات عند ذكرها ولم يتأس من روح الله في العود إليها، وله في ذلك شعر على طريقة الفقهاء. ولما خرج من مراكش قاصداً بلدته شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ مِنْكُمُ الْقُرْبَانَ لِرَازِكَ إِنَّ مَعَلَّو﴾ [القصص: ٨٥] على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالماً، فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال: «لاردني الله إلى هذا المعاد ولا رجعني إلى هذه البلاد» ثم لحق بتبنكتو فاستقر بها إلى أن مات سنة ست وثلاثين ألف رحمة الله.

تقمة

قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم. وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً وأقوهم ديناً وأكثراهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة، وهذا الأمر شائع في جل ممالكتهم الموالية للمغرب كما علمنا، وبهذا يظهر لك شناعة ما اعمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استراقق أهل السودان مطلقاً، وجلب القطاعات الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية، يسمرون بها كما تسمى الدواب بل أفحش، قد تملا الناس على ذلك وتواتت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاستراق شرعاً هو اسوداد اللون وكونه مجلوباً من تلك الناحية، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير إنما هو الإسلام، والحكم للغالب، ولو فرضنا أن لا غالب وإنما الكفر والإسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين. والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاستراق، ومدعى خلاف الحرية مدعا لخلاف الأصل، ولا ثقة بخبر الجالبيين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم في الباعة مطلقاً من الكذب عند بيع سلعهم وإطرافها بما ليس فيها، وفي باعة

الرقيق خصوصاً مما هو أكثر من ذلك، كيف ونحن نرى أن الذين يجلبونهم أو يتجررون فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين، والزمان كما علمت وأهله كما ترى، ولا يعتمد أيضاً على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك، فإن البائع لهم قد يضر بهم حتى لا يقررون إلا بما لا يقدح في صحة بيعهم، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان، فيبهون عليه أن يقر على نفسه بالرقية كي ينفذ بيعه عاجلاً إلى غير ذلك من الأغراض، وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم، وقبل اليوم، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض، ويسرقونهم من الأماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم، وإن فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واحتطاف ذويهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون، وإنما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الواقع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسرى بإنائهم، وفي ذلك ما فيه من الإقدام على فرج مشكوك.

وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالى رضي الله عنه: في كتاب «الحلال والحرام من إحياء علوم الدين» ما نصه: اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتئش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتئش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريميه، بالسؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة، فلا بد من تفصيله والقول الشافى فيه: هو أن مظنة السؤال موقع الريبة ثم أطال رضي الله عنه في تقرير ذلك، وصرح بأن البائع إذا كان متهمأً على ترويج سلعته لا يعتمد على قوله. فإذا كان هذا في الأموال فكيف باسترقاء الرقاب وملك الأبعضاع الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله.

وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا في تقديره الموضوع في هذه

المسألة، المسمى «بمعراج الصعود» تفصيلاً ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان مثل: موسى وبعض فلان وغيرهم: وقال: إن كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه». وكذلك ذكر ولی الدين ابن خلدون: «إن وراء النيل قوماً من السودان يقال لهم لمم» قال: «وهم كفار ويكترون في وجودهم وأصداقهم» قال: «وأهل غانة والتكرور يغieren عليهم ويسبونهم وبيعنونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر» إلى آخر كلامه، لكن هذا التفصيل الذي ذكره الشيخ أبو العباس إنما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم، فأما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامه فبح وقارب لا يعمرها إلا الربيع، فمن الذي يتحقق لهم ذلك، وقد قلنا إنه لا يجوز الاعتماد على قول الجاليين لهم، وأيضاً فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم إلى الآن على أن الناس اليوم لا يلتفتون إلى ذلك أصلاً، ومهما رأى أحدهم العبد أو الأمة يسمسر في السوق إلا ويقدم على شرائه غافلاً عن هذا كله لا يسأل إلا عن عيوب بدنه لا فرق في ذلك بين أسود أو أبيض وغيرهما، بل صار الفسقة اليوم وأهل الجرائم على الله يختطفون أولاد الأحرار من قبائل المغرب وقراء وأمصاره وبيعنونهم في الأسواق جهاراً من غير نكير ولا امتعاض للدين، وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأى منا وسمع، وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فإننا لله وإننا إليه راجعون على ما دهينا به في ديننا.

فالحاصل أنه لما كان الأصل في الناس هو الحرية كما قلنا، وعلم توائرًا أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون، واستفاض عن أهل العدل وغيرهم أنهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض وبيعنونهم ظلماً وعدواناً، ورأينا بالمشاهدة أن الجاليين لهم والمتجرين فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف في أن الإقدام على شراء هذا الصنف محظوظ في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه، وأما

وضع يد الجالبين لهم عليهم فلا تكفي شرعاً في جواز الإقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة بما أحنت بها من القرائن المكذبة لها، وليستفت المرأة قلبك فقد قال **رسوله** «استفت قلبك وإن أفتوك» فإنه متى رجع إلى قلبه في هذه المعضلة إلا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال، ثم تنزل عن هذا كله ونقول: لو لم يكن في ذلك إلا الشبهة الفورية وفساد الرمان ورقة ديانة أهله لكان في هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد النربعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الإمام مالك رضي الله عنه ما يقتضي وجوب التخلص عن ملابسة هذه المفسدة المزريبة بالعرض والدين، فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد، لجسم مادة هذه الفساد، فإن سبب الاسترقاء الشرعي الذي كان على عهد النبي **رسوله** والسلف الصالح مفقود اليوم، وهو السبب الناشئ عن الجهاد المقصد به إعلاء كلمة الله تعالى، وسوق الناس إلى دينه الذي اصطفاه لعباده، هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا **رسوله** وخلافه خلاف الدين وغيره غير المشروع والتوفيق إنما هو بيد الله **﴿وَرَبُّنَا هُنَّا أَنْسَاكُمْ وَلَدُنَّا لَمْ تَقْرَرْ لَنَا وَرَتَحَمَنَا لَكُوكُنَّ مِنَ الْخَسِيرِ﴾**. [الأعراف: ٢٣]

بناء قصر البديع بحضورة مراكش حرسها الله

قال في «مناهل الصفا»: كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وإنفاقه فيه جلائل الأموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لأهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم، فإن كلاً من أهل تلك الدول أبقى بناء يحيى به ذكره، ولم يكن لأهل البيت في ذلك المعنى شيء ترداد به حظوتهم مع أنهم أحق الناس بالمجد والسؤدد الأثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لأن البناء كما قيل:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالحسن البنيان
إن البناء إذا تعاظم شأنه أصحى يدل على عظيم الشأن
قلت: هذا اعتذار بارد كما لا يخفى.

ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الأشهر من خلافه سنة ست وثمانين وتسعمائة، واتصل العمل فيه إلى سنة اثنتين وألف. ولم يتدخل ذلك فترة. وحشد له الصناع حتى من بلاد الإفرنجية، فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهنة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببعضائهم ونفائس أعلاقهم، وجلب له الرخام من بلاد الروم، فكان يشتريه منهم بالسكر وزناً بوزن على ما قيل.

وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاجة وشوشة وغيرها مما حسبما ذكره الفشتالي رحمة الله [في المناهل].

وأما جبصه وجبره وباقى أنقاضه فإنها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى أنه وجدت بطاقة فيها أن فلاناً دفع صاعاً من جير حمله من تبتكت وظف عليه في غمار الناس.

وكان المنصور مع ذلك يحسن إلى الأجراء غاية الإحسان ويجزل صلة العارفين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بهمؤن أولادهم كي لا تشوف نفوسهم وتشعب أفكارهم.

وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائفة الهيبة وأحتف بها مصانع آخر من قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولا شك أن هذا البديع من أحسن المباني وأعجب المصانع يقصر عنه شعب بوان وينسى ذكر غملان، ويبخس الزهراه والزاهره، ويزري بقباب الشام وأهرام القاهرة، وفيه من الرخام المجنع والمرمر الأبيض والأسود ما يحيير الفكر ويدهش النظر وكل رخامة طلي رأسها بالذهب النائب وموه بالنضار الصافي وفرشت أرضه بالرخام العجيب التحت الصافي البشرة، وجعل في أضعاد ذلك الزليج المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر، أو برد موشى من عمل صناعه وتستر، وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطلبت الجدرات به مع بديع النقش ورائق الرقم بخلص الجبس فتكاملت فيه المحاسن، وأجرى بين قباه

ماء غير آسن، وبالجملة فإن هذا البديع كان من المباني المتناهية الباهة والإشراق المباهية لزواره العراق ومن المصانع التي هي جنة الدنيا وفتنة المحيا، ومتنه الوصف وموقف السرور والقصف:

كل قصر بعد البديع يذم
منظر رائق وماه نمير
إن مراكشا به قد تباهت
وبه من الأشعار المرقومة في الأستار، والأبيات المنقوشة في الجهات،
على الخشب والزليج والجص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويهير العقول،
وعلى كل قبة ما يناسبها، وفي بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها
وتتبع ذلك يطول لكن لا يأس أن نلم هنا بشماله من ذلك الحوض ونخوض
في بحار تلك البدائع بعض الخوض، إذ في ذلك عبرة لمن اعتبر، وترويج
للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غير، فمن ذلك ما نقش خارج القبة الخمسينية
لأن فيها خمسين ذراعاً بالعمل من إنشاء الكاتب البلجيقي فارس عبد العزيز
الفشتالي على لسان القبة المذكورة:

وأصبح قرص الشمس في أذني قرطا ونيطت بي الجوزاء في عنقي سقطا ثير جمان قد تتبعته لقطا جعلت على كيوان رحلي منحطا خليجاً على نهر العجرة قد غطا إليه وفود البحر تغرف ما أنطا وقد رقرقت حصباوه حية رقطا وغيض تجر من خمائتها مرطا جنى الزهر لاح في ذوانبها وخطا كمال نشوان تشرب اسفنطا سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا بحاراً غداً عرض البسيط لها شطا	سموت فخر البدار دوني وانحطا وصفت من الإكيليل تاجاً لمفرق ولاحت بأطواقي الشريا كأنها وعديت عن زهر النجوم لأنني وأجريت من فيض السماحة والندى عقدت عليه الجسر للفخر فارتلت ينضنض ما بين الغروس كأنه حواليه من دوح الرياض خرائد إذا أرسلت لدن الفروع وفتحت يرنحها من النسيم إذا سرى يشق رياضاً جادها الجود والندى وسالت بسلسل اللجين حياضه
--	---

هي الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً
 سناً البدر حل من نجوم السما وسطاً
 على جسمها الفضي نهراً بها لطا
 نقوشاً كان المسك ينقطها نقطاً
 فأنى لها في الحسن درتها الوسطا
 عذاري نضت عنها القلائد والربطا
 وأجمل في تعيمها النحت والخرطا
 فوارير أفلاك السماء بها ضغطاً
 بأكتافه رحل العلا والهدى حطا
 تطرف بمعناها أمانى الورى شوطاً
 حتايا قباب لا الكتب ولا السقطا
 ووسدن فيه الروشي لا المسدر والأرطا
 إذا مازجته السحب عاد بها خلطاً
 إلى كل أنف عرف عنبره قسطاً
 أو اولين كسرى الفرس تغبطه غبطة
 على خير من يعزى لخير الورى سبطاً
 وترسي سفائن العلا حيثما حطا
 يفلق هامات العدا بالظبي خبطاً
 ذوابن أرض الزنج من ضوءها شمطاً
 جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطاً
 جعلن ضمان الفتح في عقدها شرطاً
 سنابكها أبقيت مثلاً بها خططاً
 فيعتاض من قبض الزمان بها بسطاً
 زمام يقود الروم والفرس والقططا
 يحوط جهات الأرض من رعيه حوطاً

تطلع منها وسط وسطاء ذمية
 حكت وحباب الماء في جنباتها
 فإذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها
 توسمت فيها من صفاء أديمها
 إذا اتسقت بيض القباب قلادة
 تكنفني بيض الدمع فكأنها
 قدود ولكن زادها الحسن عريها
 سمت صعداً تيجانها فكسرت
 فيالك شاؤاً بالسعادة آهلاً
 وكعة مجد شادها العز فانبرت
 ومنسح غزلان الصرىم كناسها
 فلكن به ما طاب لا الإثم والخمطا
 ثراه من المسك الفتى مدبر
 وإن باكرته نسمة ينسري بها
 أقرت له الزهراء والخلد وانشت
 جناب رواق المجد فيه مطنب
 إمام يسير الدهر تحت لوانه
 وفتح أقطار البلاد بفيلق
 تطلع من خرصاته الشهب فانشت
 كتاب نصران جرت لمملمة
 إذا ما عقدن راية علوية
 فما للسماء تلك الأهلة إنما
 يطأفع أيدي المعلومات عنانها
 يد لأمير المؤمنين بكفها
 أدار جداراً للعلا وسرادقاً

وقال أيضاً مما كتب بداخل القبة المذكورة:

جمال بداعي سحر العيونا
ورونق منظري بهر الجفونا
سناً يغشى عيون الناظرينا
ثوّاقب لا تغور الدهر حيناً
على أرضي الغياب والدجونا
لذاك الدهر ما ألفت سكونا
أساور والخلال خل والبرينا
أمامي والشمائل واليمينا
ويجري الفلك فيها والسفينا
علاه البحر في غداً دفيناً
لآلئ تزدرى العقد الشمنيا
لمجلسه أمير المؤمنينا
وباني المجد ببنياناً مكيناً
بروع زئيره هنداً وصيناً
بعثن برعبه جيشاً كميناً
تدقهم رحى أو منجنوناً
بها الشرق اكتسى نوراً مبنياً
تلوح بأفقهن مدي السنينا
ملائكة كرام كاتبينا
خلوها مع سلام آمنينا
وقال أيضاً مما كتب في بهوها بعمره أسود في أبيض :

لما غدا كالروض وهو نضير
قد نضتها في النحور الحور
وشي وفضة تربها كافور
قد زان حسن طرازها تشجير
أنماطه نور به ممطور
سيان فيه خورنق وسدير
للله بهو عز منه نظير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد
فكأنها والتبر سال خلالها
وكأن أرض قراره ديجاجة
إذا تصاعد نده نوا في
شأو القصور قصورها عن وصفه

فإذا أجلت اللحظ في جنباته
وكان موج البركتين أمامه
صفت بضفتها تماثل فضة
فتدير من صفو الزلال معللاً
ما بين آساد يهيج زثيرها
ودحت من الأنهار أرض زجاجة
راقت فمن حصبائها وفواقع
يا حسنة من مصنع فبهاؤه
وكأنما زهر الرياض بجنبه
ولدسته الأسمى تخير رصده
ملك أناف على الفرائد رتبة
قطب الخلافة تاج مفرق دولة
وجري إلى أقصى العراق لربتها
نجل النبي ابن الر وسي سليل من
بحر الندى لكنه متوج
طود يخف لحلمه ووقاره
دامت معاليه ودام مجده
وتعاهدته من الفتوح بشائر
ما زال منزل سعده يرتاده
وجرت به مرحأً جياد مسيرة
وقال بعض الكتاب مما نقش في عضادي بباب القبة الخمسينية
المذكورة:

ياناظراً بالله قف وتأمل
إذا نظرت إلى الحقيقة فلتقل
وقال بعض الكتاب أيضاً ما طرزت به الأستار المذهبة المحكمة الصنعة
لتستر بها التواحي الأربعية من القبة الخمسينية وتسمى هذه الأستار عند أهل

المغرب بالحائطي ففي الجهة الأولى:

وأدر على حسني حميأ الكاس
لم تغتذى بالعارض البجاس
مثلي وأن يجري على مقاييسِي
تاوي إلى كنفي ظباءِ كناس

منع جفونك في بديع لباسي
هذى الريا والروض من جرعاها
أنى لروض أن يرroc بهاؤه
فالروض تخشه السوام وإنما

وفي الجهة الثانية:

تزرى بغضن البانة المياس
ونظرت من شزر إلى الكناس
فخراً بمخترعى أبي العباس
بفتى سواه مراتب وكراس

من كل حسناً كالقضيب إذا اثنى
ولقد نشرت على السماك ذوابي
وجررت ذيلى بالمجرة عابشاً
ما نيط مثلي في القباب ولا ازدتها

وفي الجهة الثالثة:

ورماهم بالذل والإعراض
ليث الحروب مسرع الأوطاس
قطب الجمال أخو الندى والباس
منه الوهاد يعاطر الأنفاس

ملك تقاصرت الملوك لعزه
غيث المواهب بحر كل فضيلة
فرد المحاسن والمفاخر كلها
ملك إذا وافى البلاد تأرجت

وفي الجهة الرابعة:

يعشى سناء نواظر الجلاس
أبهى من الأعياد والأعراس
ويقيم مبناه على الأساس
درر الندى في جيده المياس

وإذا تطلع بدره من هالة
 أيامه غرر تجلت كلها
 لا زال لل Mage السني يشدءه
 ما مال بالغضن النسيم وكللت

وقال أبو فارس الفشتالي مما كتب على المصرية المطلة على الرياض
 المرتفعة على القبة الخضراء من بديع المنصور، وكان أنشأها في جمادى
 الأولى من سنة خمس وستعين وتسعمائة:

وأرض النديم أهله وشموسا
تلق الفرائد في حمای جلوسا

باكر لدى من السرور كؤوسا
وأخرج على غرفي المنيف سماوها

لَا ترْتَضِي غَيْرَ النَّجُومِ جَلِيسا
مِنِي عَلَى بَسْطِ الرِّيَاضِ عَرْوَسًا
وَرَدًا تَخِيرُ مِنْ بَدِيعِي خَيْسَا
لَعَلَّهُ وَالْدُّنْيَا عَلَيْهِ حَبِيسَا
وَهَنَاكَ يَا شَرْفَ الْخَلَافَةِ دُولَةٌ
تَلْقَى بِرَايْتِهَا طَلَائِعَ عِيسَا
وَقَالَ أَيْضًا مَا كَتَبَ فِي بَعْضِ الْمَبَانِي الْبَدِيعِ:

ظَهُورُ السُّحْرِ فِي حَدَقِ الْحَسَانِ
تَمَتْ بِهَا الْمَغَانِي لِلْغَوَانِي
تَكُونُ فِي اسْتِقَامَةِ خُوطِ بَادِ
مَوَاصِلَةُ الْعَنَاقِ مِنْ التَّدَانِ
بِحَسَنِ السَّابِرِي الْخَسِرَوَانِي
بِسَالَفَةِ الْقَطِيعِ الْبَرْهَمَانِي
إِلَى صَنْعَاءِ مَا صَنَعَ الْبَدَانِ
لَهَا غَمَدانٌ فِي أَرْضِ الْبَيْمَانِي
لَوْفَدَكُمُ الْأَمَانَ مَعَ الْأَمَانِي
بِهَا يَتَلَوُ الْهَدِي السَّبْعُ الْمَثَانِي
لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ قَاصِنِ وَدَانِي
وَمَا فِي الْمَجْدِ لِلْمَنْصُورِ ثَانِي

وَإِذَا طَلَعَتْ بِأَوْجَهِهَا قَمَرُ الْعَلَاءِ
شَرْقُ الْقَصُورِ بِرِيقَهَا لِمَا اجْتَلتِ
وَاعْتَضَتِ بِالْمَنْصُورِ أَحْمَدُ ضَيْغَمَا
مَلِكُ أَرَى كُلَّ الْمُلُوكِ مَمَالِكَأُ
وَهَنَاكَ يَا شَرْفَ الْخَلَافَةِ دُولَةٌ
مَعْانِي الْحَسَنِ تَظَهُرُ فِي الْمَغَانِي
مَشَابِهٌ فِي صَفَاتِ الْحَسَنِ أَضَحَتِ
بِكُلِّ عَمْودٍ صَبَحَ مِنْ لِجَينِ
مَفْصِلَةُ الْقَدُودِ مُثَلِّثَاتِ
تَرَدَتْ سَابِرِي الْحَسَنِ يَزْرِي
وَتَعْطُرُ الْخَيْرَانَةِ مِنْ حَمَاهَا
لِمَجْدِكَ تَنْتَمِي لِكُنْ نَمَاهَا
يَدِينُ لَكَ ابْنُ ذِي يَزْنِ وَيَعْنُو
غَدَتْ حَرْمَانًا وَلَكَ حَلُّ فِيهَا
مَبَانِ الْخَلَافَةِ آهَلَاتِ
هِيَ الدُّنْيَا وَسَاكِنَهَا إِيمَامِ
قَصُورِ مَا لَهَا فِي الْأَرْضِ شَبَهِ
وَقَالَ مَا نَقَشَ فِي بَعْضِ الْأَبْوَابِ:

وَطَلَائِعُ الْبَشَرِي لِبَابِي تَنْتَمِي
يَسْمُو الْحَجَيجَ إِلَى سَقَايَةِ زَمْزَمِ
لَاحَتْ عَلَى الشَّرْفَاتِ مُثَلِّلَ الْأَنْجَمِ
بِبَدِيعِ أَحْمَدِ جَنَّةِ الْمَتَنْعَمِ
وَقَالَ الْفَشَتَالِي لِمَا عَرَضَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ اسْتَحْسَنَهَا إِلَّا أَنَّهُ كَرِهَ لِفَظَةِ
جَنَّةٍ وَتَغْيِيرِ مِنْهَا كَثِيرًا، وَقَالَ الْوَزِيرُ الْأَدِيبُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورِ
الشَّيْظَمِيِّ مَا كَتَبَ عَلَى مِبَاجِقَةِ الزَّرَاجِ:

إن شئت تاريخ إكمال البديع فقل إيوان أحمد إيوان السعادات
وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد أبواب البديع :

باب أتى كبراعة استهلال	وكأنما القصر القصيد التالي
ولذاك سمي بالبديع وجاء بال	إغراق والتجنبي والإيفال
وأتى التمام فقلت في تاريخه	بيتاً بلا عقد ولا إشكال
صرح على تقوى من الله انبني	في طالع للسعد والإقبال
وقال أيضاً في تمام البديع مهتاباً :	يا مليكاً ملكه فيمن ملك
كتلوع الفجر من بعد الحلك	تم هذا القصر فاسكته على
وكان الفراغ من تمام البديع ستة اثنين وألف، وفي تاريخه يقول الوزير	حسن حال بدوام الملك لك
المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع :	الحسن لفظ وهذا القصر معناه
ياماً أميلح مرأه وأبهاه	فهو البديع الذي راقت بدايته
وطابق اسم له فيه مسماه	صرح أقيمت على تقوى قراعده
ودل منه على التاريخ معناه	ولاد أيضاً وعين الحفظ نكلاه
قال في نفح الطيب : «اخترع المنصور من المصانع ثلاثة أشياء فجاءت	تاريخه من تمام قل هو الله
غريبة الشكل بديعة الحسن، وهي : البديع، والسمرة، والمشتهى؛ وفيهما	بستان حسنك أبدعت زهراته
يقول المنصور موريأ :	ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى
وقوام غصنك بالمسرة ينشئني	يا حسن رمان به للمشتوى» اهـ.

قال اليفرني : والذي ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبار المغرب، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عذاري الأندلسي حسبما رأيته في السفر الثاني منه : «أن أول من أنشأ المسرة التي يظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين» قال : «وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيوناً كثيرة».

قال ابن اليعسوي: «وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاثة وأربعين
وخمسماة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مسح زيتونه وفواكهه
ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش» اه ولعل المنصور جدد
معالم المسرة بعد اندراسها، وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها، وكان
المنصور يفتخر بالبديع كثيراً وبنوه بقدرها، وفي ذلك يقول أبو فارس الفشتالي:

أبدعتهن به فجاء غربا	هذا البديع يعز شبه بداع
أبدى عليها للأصيل شحوبا	أضنى الغزاله حسنة حسدأ له
زهر الرياض به ينور عجيبا	وانقضت الزهر العنيرة إذ رأت
أنجزن وعدك للعلا المرقوبا	شيدتهن مصانعا وصنائعا
أدركتهن وما مسست لغوريا	وجريدة في كل الفخار لغاية
فانعم بملك دام فيه مزيدا	تجني به فتن النعيم رطيبا

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنعيم بردته وتطريز حلته صنع
مهرجاناً عظيماً ودعا الأعيان والأكابر قدم لهم من ضروب الأطعمة وصنوف
الموائد، وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل
ذلك، وكان من دخل في غمار الناس رجل من البهاليل من كانت له شهرة
بالصلاح في الوقت فقال له المنصور مباسطاً: «كيف رأيت دارنا هذه يا
فلان؟» فقال له: «إذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب» فوجم لها المنصور
وتغطير منها. وتحكي هذه الحكاية عن غير المنصور فالله أعلم.

قال اليفرنبي: وقد ظهر مصدق ذلك على يد السلطان المظفر المولى
إسماعيل بن الشريف فإنه أمر بهدمه سنة تسعة عشرة ومائة وألف لمحجب
يطول شرحة فهدمت معالمه ومحبت مراسمه، وفرق ما كان به من جموع
الإنس، وعاد حصيناً كان لم يغن بالأمس، حتى صار مرعى للكلاب
والماشى ووكرأ للصدى والبوم، وحق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا
وضعه، ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من
أنقاض البديع، ولقد تذكرة بهذا ما حكاه بعض مؤرخي الأندلس: أن

الرازحة التي بناها المنصور بن أبي عامر، وهي من عجائب الدنيا، مر عليها في أيام المنصور بعض أهل المصائر وهي في نهاية العمارة والازدهار بسكنها، فقال: «يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك في كل دار» قال: «فضرب الدهر ضرباته وسلط عليها أيدي العدوان فهدمت وخررت وتفرق تمحاسنها حتى نقل بعض أنقاضها إلى العراق.

قال اليفرني: ولما دخلت البديع مقفلة من الرحلة ورأيت ما هالني أنشدت أبياتاً أنسنها الشيخ محبي الدين بن عربي في كتاب المسامرة لما دخل الرازحة فوجدها متهدمة وهي :

وَمَا أَنْ بَهَا مِنْ سَاكِنٍ فَهِيَ بَلْقَعٌ	دِيَارٌ بِأَكْنَافِ الْمَلَاعِبِ تَلْمِعُ
فَتَصَمَّتْ أَحْيَانًا وَحِينَأَا تَرْجِعُ	يَنْوَحُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
لَهُ شَجْنٌ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ مَرْوُعٌ	فَخَاطَبَتْ مِنْهَا طَائِرًا مُتَفَرِّدًا
فَقَالَ عَلَى دَهْرٍ مَضِي لَيْسَ يَرْجِعُ	فَقَلَّتْ عَلَى مَاذَا تَنْوَحُ وَتَشْتَكِي

وأنشدت ما أنسن ابن الآبار في تحفة القادر :

أَيْنَ سَكَانُكَ الْكَرَامِ عَلَيْنَا	قَلَتْ يَوْمًا لِلْدَارِ قَوْمٌ تَفَانُوا
ثُمَّ سَارُوا وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا	فَأَجَابَتْ هَنَا أَقَامُوا قَلِيلًا

ثم قال اليفرني رحمه الله :

لطيفة: تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر، وهذا القدر هو الذي بقي فيه البديع قائماً، فإنه فرغ منه ستة اثنين وألف، وشرع في هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف، فمدة عمره مائة وسبعين عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق فسبحان من دقت حكمته، وجلت قدرته، وعمت رحمته، لا إله إلا هو الحكيم العليم.

ثورة الناصر ابن السلطان الغالب باشة بيلاد الريف ومقتله

كان الناصر هذا في حياة أبيه عبد الله الغالب باشة خليفته على تادلا ونواحيها، ولما توفي أبوه المذكور وقام بالأمر أخيه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلًا عنده سائر أيامه إلى أن قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر: فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن إليه، فلم يزل عنده في أر Gund عيش إلى أن توفي المعتصم يوم وادي المخازن. وأفضى الأمر إلى المنصور ففر الناصر إلى آصيلا، وكانت للنصارى يومئذ، ثم عبر البحر منها إلى الأندلس فكان عند طاغية قشتالة مدة طويلة إلى أن سرحة الطاغية إلى المغرب بقصد تفريق الكلمة المسلمين وأحداث الشفاق بينهم، فخرج الناصر بمليلية ونزل بها لثلاث مضت من شعبان سنة ثلاثة وألف، وتسامع به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا إليه يزفون، فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب بأسره لذلك.

وذكر اليفريني في «الصفوة»: «أن الفقيه أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتاباً إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن علي بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضره على الاستمساك بدعاوة المنصور وأن يلزم الطاغية له، فوقع الكتاب في يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه، ولما وفده عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطبة بجامع القرويين وتفرقة صدقة المساكين».

ثم إن الناصر خرج من مليلية قاصداً تازا فدخلها واستولى عليها وزنعت إليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم، فتألبوا عليه وتمالؤوا على إعزازه ونصره، ولما دخل تازا طالب أهلها بالملك وقال لهم: «إن النصارى يغرون حتى على البيض». ولما سمع المنصور بخبره ألقه ذلك وتخوف منه غالباً، لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت النقوس إليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية.

قال في «ابتهاج القلوب» في ترجمة الولي الصالح أبي الحسن علي بن

منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة: «إنه كان مسائراً يوماً على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم: «يا فقراء أتسمعون ما تقول بغلتي؟ إنها تصريح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الشجر والحجر واني أرى غير ذلك» فكان الأمر كما قال؛ اهتز لقيام الناصر كل شيء ثم قتل عن قرب ولم يتم له أمره اهـ.

ثم إن المنصور بعث إليه جيشاً وأفراً فهزمه الناصر واستفحَل أمره وتمكن ناموسه من القلوب، فأمر المنصور ولِي عهده المأمون بمنازلته فخرج إليه من فاس في تعية حسنة وهبة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على الناصر بالموضع المعروف بالحاجب، ومر على وجهه فاحتل بالجایة، بلدة من عمل بلاد الربيب، فلحق به ولِي العهد فلم يزل في مقاتلته إلى أن قبض عليه فازال رأسه وبعث به إلى مراكش. وكان ذلك ستة خمس وألف، وقيل ستة أربع وألف.

قال في «نشر المثاني»: «كان مقتل الناصر وإدخاله مقطوع الرأس إلى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وألف وهو الأصح». وذكر الشيخ أبو علي اليوسي في «المحاضرات» ما نصه: «حدثوا عن صلحاء تادلا: أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي: «إن الناصر يدخل تادلا» يعني دخول الملك فلما بلغ الخبر إلى الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي التادلي قال: «مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها» فكان الأمر كذلك فإنه هزم في نواحي تازا ثم قطع رأسه وحمل إلى مراكش فدخل تادلا في طريقه اهـ.

ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء في ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي قال:

تها أمير المؤمنين فقد جرت	بسطوك الأقدار جري السوابق
أشاءت لك الأيام وأحلوك على	عدوك وارتجمت رؤوس الشواعق
وذاك الذي قد خيب الله سعاده	تردى فلم تنفعه نصرة مارق
فكأن كما قد قيل لكن رأسه	أنى سابقأ والرجل ليست بسابق

ضمن قول بعضهم في الوزير ابن الفرس وقد رأه مصلوياً منكوس
الرأس :

لقد طمع المهر الجموج لغاية
قطع عنق الجياد السوابق
جري فجرت رجلاه لكن رأسه
أني سابقاً والرجل ليست بسابق
وكتب المنصور بخبر هذا الفتح إلى الأفاق.

ف مما كتبه للشيخين الإمامين أبي عبد الله محمد زين العابدين البكري،
وأبي عبد الله محمد بدر الدين القرافي رسالة يقول فيها ما نصه :
«من عبد رب المجاهد في سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين
الحسني، إلى الفاضل الذي اعتجز بالتقوى وهو زين العابدين، وتحلى بحلى
المعارف الربانية وتلك حلى العارفين، والسلوك الذي يرز في الطريقة،
وسلك على المجاز الواضح إلى الحقيقة فقات شاؤ السابقين، والعارف الذي
تجرد عن رعونة الأهواء النفسانية، فكان سلوكه على التجريد إلى حضرة
الواصليين الشيخ العالم المحجة الراوفي، السيد بدر الدين القرافي، والشيخ
العارف الواصل، السر الكامل، سلالة العلماء، سبط الفضلاء؛ أبي عبد الله
زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام، قطب المشائخ الأعلام، فخر علماء
الإسلام، الشهير البركة في الأنام؛ أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن
الصديق، أبقاكما الله وأرواحكم تعطر برياحين الإنس في حضرة القدس،
وتتنسم التفوحات الهابة من رياض المشاهدة إلى مدارج الإنس ومعارج
النفس، وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله مفيض أنوار عنابة أحمد على صاحبه الصديق، مظهر
كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيت عتيق، والصلة والسلام على
سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبه في الغار والعرش والطريق، والرضا
عن آلة أئمة الخلق وسيوف الحق، وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على
الغرب والشرق وبركتهم انتسق لنا الفتح اتساق الأسلام ويفضلهم يعلو
سعدها على الكفر علو القطب على دائرة الأفلاك، فكتبنا هذا إليكم من
حضرتنا مراكش حاطها الله، وصنع الله لها مقعم السجال وواسع المجال،

وعزتها الماضية تبعث إلى العدا رسائل الأوجال، والأيام بعزم صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الغور، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله إلى أن تطوى ملأة الدهر، هذا وأنه اتصل بعلي مقامنا كتابكم الذي صدحت على أفنان البلاغة سواعجه، وعذبت في موارد المحجة الصديقية مناهله ومشارعه، ولطفت في كل معنى من المعاني أفالينه ومنازعه، وتتألفت على الإجادة في كل مقصد من المقاصد مواسيله العذبة ومقاطعه، وأيمنت بأزهار العناية الربانية أباطحه الفيع وأجماره، ومعه المنظومات التي ساحت بالحكم ديمها، ورسا في البلاغة قدمها، وربا في منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلماها، وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلًا من دونه الشريا في مطلعها، والبدر ليلة تمامه إعجاباً بها وتنريها بمهديها، وابتهاجاً بالخوارق التي أطلق الله على لسان مديها، وإلى هذا فليحيط علمكم بأن مقامنا تتفق فيه على الدوام إن شاء الله نفاثس بضائعكم، وتنمو فيه مع الأيام سعود مطالعكم، وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم، وتستوضع فيه على المحجة الصميمية أماراتكم الواضحة وعلماتكم، فعلى هذا تتعقد منكم الخناصر، وتشتد الأواخي والأواصر، بعزم الله ومه، ثم مما تستطرد لكم ذكره على جهة البشري، وإهداء المسرة الكبرى، إعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام، وعميد ملل التلقيت وعبدة الأصنام، لما أنس من تلقاء جنابنا نار العزم تلتهب منا التهاباً، ويحر الاحتفال تضطرب أمواجه الراخمة بكل عدد وعدة اضطراباً، وهمنا قد همت بتجديد الأسطول، والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد إن شاء الله بقضاء كل دين ممطول، وعلم أن الحديث إليه يساق، وإلى أرضه بالخشوف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق، رام خذه الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت به في عضدنا الأقوى، وعزمنا الذي يعنيه الله يزداد ويقوى، فرمي بمخدول من أبناء أخيها عبد الله كان ربي لديه، وطروحت به الطواحة منذ ثمانية عشر عاماً إليه، إلى مليلاً إحدى الغور المصاومة لغرب ممالكنا الشريفة التي إلى كفالة ولدنا وولي عهتنا كافل الأمة من بعدها، الأمير الأجل الأرضي، صارم العزم

المتنبضي، وحسام الدين الأمضى، أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله، وصل الله لرأيته التأييد والظهور، والعز الذي يستخدم الأيام والدهور، فالتلف عليه من اغتر بباطيله الواهية البناء، من أرباشه العامة والغوغاء، ومن قضى له من أجناد تلك الناحية بالشقاء، جموع تكاثر الرمل، وتقوت الحصا والنمل، لاح بها للشقى خلب بارق أكذبته أمنيته، إذ صدقته منيته، فصم نحوه ولدنا أعزه الله بجندوه الله التي إليه، وبعساكر تلك الممالك التي أقيينا زمام تدبيرها في يديه، فما راع الشقى إلا انقضاضه عليه من الجو انقضاض الأجدل، وتصميمه إليه بعزم تدرك الطود وتفلق الصخر والجندل، فاستولى عليه بحمد الله للحين، وعلى جموعه الأشقياء في يوم أغر محجل، وساعة أنزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل، فاستأصلتهم الشفار، وحصدت هشيمهم المصوح السنة النار، وقبض على الشقى في يوم كان شفاء للصدور، ومنتزهاً لحملة السيف وربات الخدور، وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم، والمن الجسيم، لولدنا أعزه الله عز وجل في خاصة أجناده، ونهض وحده بأعبائه ونحن على سرير ملكتنا وادعون مطمنون، وأجنادنا في أوطارنا لا هون وافتئون، فلم يحتاج إلى إنجاده من قبلنا ولا إمداده، والعاقبة للمتقين، والحمد لله حمد الشاكرين، وعرفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التي سرت الإسلام، وساعت بحمد الله عبدة الأوثان والأصنام، وتعلموا مع ذلك ما عليه الأحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رياض العزم وشحد آراء الجزم، وأعمال عوامل الجزم إلى مجازاة عدو الدين إن شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفًا ولهاً، وإعادة ما كان أسلاف من ذلك إن شاء الله بالمكيال الأولى، وقدمنا إليكم التعريف لمتدلون إن شاء الله بأدعيةكم الصالحة في أوقات الإجابة، وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع وإنابة، أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق على الدين كله، ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس، وتتجدد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس، حتى ينطق لسان الدين في أرضها بكلمة

الله التي طالما سكت عنها نداءه وخرس، وشرق بريقه فغض وحسن، فيبيده الحول والقوة، وعنایته العناية المرجوة، ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الإمامية العلية، ثم الإتحاف بديوان الشيخ والدكم التماساً لجميل بركانه، وتمسكاً بما سبق من الإجازة العامة في سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته، وهذا موجبه إليكم، والسلام الأثم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته، في ربيع النبوى ستة خمس وألف» اهـ. وهذه الرسالة من إملاء المتصرور على ما قبل.

ومما كتب به أيضاً بخط يده إلى سلطان مكة والمدينة والحجاج الشريف أبي المحاسن حسن بن أبي نعي بن بركات ما نصه:

من عبد الله المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أَحْمَدُ أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني إلى الأصالة التي تبحجت من ذواقة هاشم في صميمها، وتوغلت من غرفات حرمة الله بين زمزمهها وحطيمها، وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الأريجة وشميمها، أصالة السلطان الأثيل الأثير الأسى الأسى الأزكي السلطان حسن بن أبي نعي أباكم الله والبيت ذو الأستار تيفيون ظلاله، وتلشنون من الحجر الأسود الأسعد خاله، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أعز هذه المثابة العلوية، الإمامية النبوية، العزيزة الأنصار، السامية المحتدة والتجار، الساحبة أذىال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامي المقدار، سكان الحمى والذين تبوعوا الدار، والصلوة والسلام على مولانا محمد الذي أططلع شموس الهدایة الساطعة الأنوار والرضا عن أله الذين تتضاءل لمجدهم السامي المنار الشموس والأقمار، وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بمواضي الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلي الإمامي المنصوري الحسني ينصر تجني الفتوح من قصب رماحه، وتجري الأقدار على وفق اقتراحه، فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال في ميادين السجال والأيام بعزم صولتها ويعن دولتها بهذه المغارب باسمة الشغور، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله إلى أن تطوى

ملاءة الدهور، بعز الله وعانته. هذا وإن شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع إلى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذي ليس يعاف ولا محيل، وهب له من محارم الله نسيم يعيل، وأن للمطابيا أن تعمل الوخد والنميل، مد إلى علي مقامنا أكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله، ويتعرف منه السعادة بحول الله في مرتاحله وحله، يتضمن الإيمان به إليكم في المورد والمصدر، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر، فحملناه هذه العجالة لترعوا له إن شاء الله عنها الحق المعتبر، وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر، وتدنووا له من آماله قطوف كل فنن مهتضر، وما نكلفككم النهوض لأجل حقوق الأخيرة بأعيانه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس الدعاء مع الأحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندرس، وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس، حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التي طالما سكت عنها نداوته وخرس، وشرق بريقة فغض وخش، فذلك دعاء لا يرد لأنه جرى من أهله في محله ومعاد السلام الأثم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى.

وقوله حتى ينطق لسان الدين فيه تورية باين الخطيب رحمة الله.

Åî úëòÃú úíííÖí àúíÖü úíöíÖù àÆúóí
úíííöúü

قال الفشتالي : «كان ترتيب المنصور في الاحتفال بالمولود النبيي الكريم أنه إذا طلعت طلائع شهر ربيع الأول صرف الرقاع إلى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين في الأسحاق فيتاؤن من كل جهة ويحضرون من سائر حواضر المغرب، ثم يأمر الشماعين بتطریز الشموع وإتقان صنعتها فيتبارى في ذلك مهرة الشماعين من كل ما يباري النحل في نسج أشكالها لطفاً وإدماجاً فيصوغون أنواعاً من الشمع التي تغير التوازن ولا تقبل زهورها التواصـر فإذا كان ليلة المولد تهـا لحملها وزفاف كوابعها

الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزربون لذلك ويكونون في أجمل شارة وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها، فيمكثون إلى حين يسكن حر الظهيرة وتتجنح الشمس للغرب فيخرجون بها على رؤوسهم كالعداري يرفلن في حلل الحسن، وهي عدد كثير كالتحل، فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الأعناق، وتبز ذات الخدور ويتبعها الأطفال والأبواق، وأصحاب المعاذف والملاهي حتى تستوي على منصات معدة لها بالإيوان الشريف فتتصفّف هنالك فإذا طلع الفجر خرج السلطان فصلّى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة، وأمامه تلك الشموع المختلفة الألوان من بيض كالدمى وحمر جليت في ملابس أرجوان وخضر متديمة واستحضر من أنواع الحسك والمبادر ما يلهي المحزون ويدعّش الناظر، ثم دخل الناس أفواجاً على طبقاتهم فإذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبي ﷺ ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع في ذلك باختصار، فإذا فرغ اندفع القوم في الأشعار المولديات، فإذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمرون بكلام الششتري وأشعار الصوفية، ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين، فإذا فرغوا من ذلك كله قام شراء الدولة، فيتقدم قاضي الجماعة الشاطبي بلبل منابر الجمع والأعياد فينشد قصيدة يفتحها بالتعزف والتسبيب، فإذا تم تخلص لمدح النبي ﷺ ثم يختتم بمدح المنصور والدعاء له ولوبي عهده، فإذا قضى نشيده تقدم الإمام المفتى المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيده على ذلك المتناول، فإذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشيشظمي، ثم تلاه الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ويليه الكاتب محمد بن علي الفشتالي، ويليه الأديب محمد بن علي الهوزالي النابغة، ويليه الأديب الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المسفيوي، فإذا طوى بساط القصائد نشر خوان الأطعمة والموائد فيبدأ بالأعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فإذا انقضت أيام المولد الشريف بربت صلات الشعراء على أقدارهم، هكذا كان دأبه في جميع الموالد، ولا يحصى ما يفرغ فيه من أنواع الإحسان

على الناس» اهـ من كتاب «مناهل الصفاء».

وقال صاحب «النفحة المسكية» «في السفارة التركية»: «حضرت المولد الشريف المشارك أبو الحسن علي بن محمد التامجوتي: «حضرت المولد الشريف بعد القفو من بلاد الترك فاستدعي المنصور الناس لإيوانه السعيد، واستدخلهم لقصره البديع المشيد. المحتوي على قباب متقابلة عالية وقد مد فيها من فرش الحرير، وصفت النمارق وتدللت الأستار والكلل والمحجال المخصوصة بالذهب على كل باب قبة وحبة سرير، ودار على الحيطان حائطيات الحرير التي هي كأزهار الخمائل ما رأيت قط في عهد الأوائل، وتلك القباب مرفوعة الجوائب، على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤوس بالذهب الذائب»، مفروش جلها بالمرمر الأبيض مخططاً بالسود يخلل ذلك ماء عذب، فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء وزراء وقاد وكتاب وأصناف الأجناد، فيخيل لكل منهم أنه في جنة النعيم، والسلطان جالس في فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار، وترمقه الأ بصار بالتعظيم والإكبار، ويجلس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعلىهم الأقبية المخصوصة والمناطق المرصعة والحرم المذهبة مما يدهش الناظر، وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجنسها من الأجناد والطلبة، وسكنت بعد حين الجلة وأوتى بأنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية، وأوتى بالطسوس والأباريق وصب الماء على أيدي الناس، ونصبت مبادر العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضة والذهب وأغصان الريحان الغض فرش بها البساط ورش من ماء الورد والزهر، وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن إليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للأمير. وإذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الأول، وهذه سيرته دائمًا اهـ.

وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري: وذلك أنه كان إذا دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفراً من نسخة

البخاري وهي عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفراً في كل يوم سفراً إلا يوم العيد وتاليه، فإذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيا له السلطان أحسن تهيئ إلا أن العادة الجارية عندهم في ذلك: أن القاضي يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين من أول السفر، ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل، ويلقى من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فإذا تعالي النهار ختم المجلس، وذهب القاضي بالسفر فيكمله سرداً في بيته، ومن الغد يتدبر سفراً آخر، وهكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع.

قال الفشتالي: «وكان المنصور يعطي أمواالأ لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان، ويقيم مهرجاناً يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء، وكل من ختن منهم أعطي أزرعاً من كتان وحصة من الدرهم وسهماً من اللحم» اهـ.

وأما ترتيب جيش المنصور وعادته في أسفاره فستذكرها في الفصل بعد هذا إن شاء الله، ولنذكر بعض القصائد الميلادية التي أنشدت بمجالس المنصور حسبما تقدمت الإشارة إليه، فمن ذلك قول القاضي أبي القاسم بن علي الشاطبي رحمة الله:

ويمتحن الأحشا ضربت خياماً
وأموت فيك صباةً وغراماً
أو ليس نهر السائلين حراماً
إلا انتبهت فكان لي أحلاماً
فحديث قلبي بالأجراج هاماً
عن دمع باكية الغمام سجاماً
أضحي الهوى برداً لها وسلاماً
للذيد عيش بالغضالو داماً
ألف الإقامة بالحرمي فأقاماً
سلبوا الفؤاد وأدنقو الأجساماً
لكوابئ فيها أثرن ظلاماً

ما بال طيفك لا يزور لماماً
أيعيش فيك عواذلي لسلوهم
وتبيبح نهرك سائلاً من أدمعي
ما ذقت ماء لمالك في سنة الكري
عرض إذا حدثت عن بان الحمى
أروى حديث الرقمنين مسلسلاً
وتلق من جيب النسيم تحية
يا جيرة العلمين دعوة شيق
فخذلوا بجرعاء الحمى قلبي فقد
وخذلوا بشار أهل نجدانهم
في كل غرب دموع عيني مشرق

صليت بنار الشوق ثم رثت إلى
وتسلاسلت عبراتها شوقاً لمن
خير الأيام محمد الهادي الذي
كنز العوالم سر طينة آدم
وأجل أرسال الإله ومن به
ونقاصرت عن فرده أعدادهم
أسرى إلى السبع الطابق فأقبلت
في ليلة غصت بأملالك السما
يا خير من بهر المعاند شأنه
أعني جلالك أن يحيط بوصفه
صلى عليك الله ما زار الحياة
مالذتي في مدح غير مخلصا
خير الورى وإمامها المنصور من
أشفى على الأرضين ظل مهابة
وسما على الدنيا عقاب تنوفة
قل للملوك هبوا لمالككم فدى
هذا الذي يحيي البلاد بعدله
هذا الذي وعد الإله بأنه
يا مشبه المهدى في آرائه
أنت الذي ببنيه أبناء العلا
فكأنها من حولك الأشبال في
وأميتها المؤمن عصب سمامها
وأجل مضطلم تخيره الورى
وحباء أحمد عهد أمة أحمد
لا يعدون النصر سيفك أنه
خذها ينم على العبير مدحها
وقال العلامة مفتى الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد

إنسانها في لجة قد عاما
وقفت عليه صلاتها وسلاما
أردى الضلال وجبر منه سناما
ولحفظ ذاك السر جاء خاتاما
قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
فلذَا تقدم في الحساب إماما
زمر الملائكة وفده إعظاما
تفسير خلف ركباه وإماما
عجزاً فغضن بريقه إفحاما
وصف البلية وأخرس الأقلاما
روضاً ففتح زهرة الأكمام
إلا بمحبي من بنيك إماما
في ظل دولته الأنام أناما
فحمى بها حام العباد وساما
فانقض يفترس الأسود بهاما
وخدعوا لأنفسكم لديه ذاما
ويعيدها نشراً وكُنْ راما
يطوي البلاد ويفتح الأهراما
حزماً وفي عزماته إقداما
أرسى البلاد ووطد الإسلاما
غاب الوشيج تبوأت آجاما
علم أناف على الهضاب سناما
بعد الإمام فقدموه إماما
فوفى فكان لرعيه المعتاما
سيف يحوط الدين والإسلاما
ويفرض عن مسك الختام خاتاما

الشريف الفيلالي :

أرقت وشاققني البروق اللوامع
مرابع عفتها الروامس والسماء
كأن لم تكن من قبل قدمأً أو أهلاً
تذكّرني عهد الأجزاء واللوي
سحبنا بها ذيل الصباية برهة
وقفت بها بالبزل والليل دامس
أسائلها عن جيرة بان حيهم
فهل قدمو نحو العقيق صدورهم
يخبر عن دار الرسول وقربها
ديار بها حل الحمى سيد الورى
عليك صلاة الله يا خير مرسل
فلولاك هذا الكون ما زال معدماً
للك فخر في الدارين وال موقف الذي
فآدمهم والكل تحت لواحكم
فجازاك رب العرش ما أنت أهله
وجازى إماماً قد نتمه إليكم
سميك وابن السبط حقاً ومن له
فدم للعلا يا ابن الخلاف مفرداً
ودام ولني العهد بعده صارماً
هو الآمن المأمون من كل فتنه
ففيك أقول والنصوص شواهد
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا
 وأشار بهذا إلى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ
عَلَى رَأْسِ كُلِّ قَرْنٍ مَنْ يَجْدِلُ لِهُنَّةَ الْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا».
وحمله بعض الأنتمة على أن المجدد من الملوك، وقيل: من العلماء،

وقيل : من الأولياء والصواب الإطلاق .

وقال الوزير القائد أبو الحسن علي بن منصور الشيشظمي رحمة الله تعالى :

شوفي يزيد وعز ذاك عزائي
ما في الخواطر من صدى وصداء
تلك المعاهد ساكن الحمراء
ذات السنـا والرـنـد والأـضـوـاء
تدع القلوب جسومها بفضاء
ومجـبـ داعـيـ الـبعـدـ بـعـدـ نـدائـيـ
للـهـمـزـ إـلـاـ فـيـ المـنـادـيـ النـائـيـ
طـيـ المـلاـ بـنـجـيـبـةـ فـوـدـاءـ
سـرـيـ تـولـجـ فـيـ ضـمـيرـ حـجـاءـ
تـجـريـ الـقـلـوـعـ بـهـاـ بـرـيـعـ رـخـاءـ
وـأـزـورـ بـعـدـ مـعـاهـدـ الزـوـراءـ
فـيـ ظـلـ أـحـمـدـ بـغـيـتـيـ وـمـنـائـيـ
وـطـئـتـهـ رـجـلـ خـاتـمـ النـبـيـاءـ
بـالـبـيـضـ وـالـخـطـيـةـ السـمـراءـ
لـؤـمـاـ وـمـاـ أـجـلـىـ الدـجـاـ اـبـنـ ذـكـاءـ
أـكـرمـ بـهـمـ مـنـ سـادـةـ فـضـلـاءـ
سـبـطـ الرـسـالـةـ غـرـةـ الـأـبـنـاءـ
حـازـ الـكـمالـ وـشـرـطـ كـلـ عـلـاءـ
وـالـكـوكـبـ الـوـقـادـ فـيـ الـظـلـمـاءـ
حـاطـ الـهـدـىـ وـبـرـأـيـهـ الـوـضـاءـ
كـالـزـهـرـ فـيـ الـأـكـمـامـ وـالـأـوـعـاءـ
كـالـصـبـحـ يـدـرـأـ فـيـ نـحـورـ عـدـاءـ
لـلـوـائـكـ الـمـنـصـورـ دـوـنـ مـرـاءـ

منـ بـعـدـ أـهـلـ قـبـاـ وـأـهـلـ كـداءـ
وـلـيـ الشـفـاءـ بـقـرـيـهـ وـهـمـ جـلاـ
لـكـنـهـ بـعـدـ الـمـزارـ فـأـيـنـ مـنـ
بـانـواـ وـهـاجـ الشـوـقـ ذـكـرـ رـبـوـعـهـمـ
وـشـدـاـ بـهـمـ حـادـيـ الرـكـابـ فـكـادـ أـنـ
يـاـ سـعـدـ لـوـ أـنـ الزـمـانـ مـسـاعـدـيـ
لـرـكـبـتـ حـرـفـاـ كـالـهـلـالـ مـنـافـراـ
وـلـجـبـتـ أـحـيـاءـ الـفـلاـ وـطـوـبـيـهـاـ
تـخـاتـضـ فـيـ جـوـفـ الـظـلـامـ كـأـنـهـاـ
وـتـخـالـ فـيـ لـجـعـ السـرـابـ سـفـيـنةـ
هـلـ أـنـزلـ بـهـاـ مـخـصـبـ مـنـ مـنـيـ
فـأـحـاطـ عـنـهـاـ الرـحـلـ ثـمـ مـخـيـمـاـ
وـأـمـرـغـ الـخـدـيـنـ مـلـثـمـاـ تـرـىـ
مـحـيـ الـهـدـىـ مـاـحـيـ الـضـلـالـةـ وـالـرـدـاـ
صـلـىـ عـلـيـهـ اللـهـ مـاـ نـسـخـ السـخـاـ
وـعـلـىـ صـحـابـتـهـ الـكـرـامـ وـآلـهـ
أـكـرمـ بـوارـثـ مـجـدـهـ وـعـلـائـهـ
خـيرـ الـخـلـافـ أـحـمـدـ الـمـنـصـورـ مـنـ
الـصـارـمـ الـهـنـدـيـ فـيـ يـمـنـيـ الـهـدـىـ
يـاـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ الـذـيـ بـسـيـوـفـهـ
ذـخـرـ الـإـلـهـ لـكـ الـفـتوـحـ وـصـانـهـاـ
لـاـ بـدـ مـنـ فـتـحـ يـرـوـقـ وـاضـعـ
وـسـتـمـلـكـ الـحـرـمـ الـشـرـيفـ وـيـتـمـيـ

بظبي بنيك السادة النجباء
وزر البرية عدة الأمراء
درج الكمال ودب للعلاء
بمقاصد قد سدت ودهاء
وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي رحمة الله
تعالى :

وهم حromo من لذة الغمض أجياني
فلم يثنهم عن سفكها حبي الجاني
نشوقهم أضحى سميري وندمانى
كفى أن قلبي جاهد أثر أظعاني
اللجزع ساروا مدلجين أم البان
ملاعب آرام هنناك وغزلان
أناخوا المطابيا أم على كتب نعمان
نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
أزمتها الحادي إلى شعب بوان
يؤم بهم رهبانهم دير نجران
بأخذتهم شتى صفات وألوان
فلحن نجوماً في معراج كثبان
إذا زمها بدنًا نواعم أبدان
تمشي الحمي في مفاصل نشووان
به الماء صدا والكلاب نبت سعدان
تفاوح عرفاً ذاكي الرند والبان
فهاجت مع الأسحار شوفى وأشجانى
سحبت بها في أرض دارين أردانى
نسيم الصبا من نحو طيبة حيانى
معاهد راحتى وروحى وريحانى

وترى الجهات وقد أتت منقادة
وتقر عيناً بال الخليفة منهم
بمحمد المأمون خير من ارتقى
فرع سيف حكى أصله ولقد حكى
وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي رحمة الله

هم سلبوني الصبر والصبر من ثانى
وهم أخروا في مهجتي ذم الهوى
لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسي
 وإن غادرتني بالعراء حمولهم
قف العيس واسأل ربهم آية مضوا
وهل باكروا بالسفوح من جانب اللوا
وأين استقلوا هل بهضب تهامة
وهل سال في بطن المسيل تشوفاً
وإذا زجروها بالعشى فهل ثنى
وهل عرسوا في دير عبدون أم سروا
سروا والدجى صبغ المطارف فانشى
وأداج في الأسحار بيض قبابهم
لنك الله من ركب يرى الأرض خطورة
أرجحها مطايها قد تمشي بها الهوى
ويمس بها الوادي المقدس بالحمى
واهد حلول الحجر منه تحية
لقد نفتحت من شيخ يشرب نفحة
وقت منها الشرق في الغرب مسكة
وأذكرني نجداً وطبيب عراره
أحن إلى تلك المعاهد إنها

به صح لي أنسى الهني وسلواني
إذا لاح برق من شمام وشهلان
أحث بها شوقاً لكم عزمي الواني
يزج بها في نوركم عين إنساني
ودهري عنني دائمًا عطفه ثانٍ
سوافع دمع من شؤوني هتان
بأفياتها ظل المتن والمهوى داني
تحية مشتاق لها الدهر حيران
أفانيين وحي بين ذكر وقرآن
وطرزت البطحا سحائب إيمان
هو البحر طام فوق هضب وغيطان
أفادت بها البشرى مدائع عنوان
وفخر نزار من معد بن عدنان
وسيد أهل الأرض الإنس والجان
نوماس كهان وأخبار رهبان
سماء ولا غاضت طوافح طوفان
تسبع فيها أدم حور وولدان
تجهم من ديجورها ليل كفران
يذود بها عنهم زيانى نيران
وصلت على المرتب صارم برهان
بماء همي من كفه كل ظمان
إلى الله فيه من زخارف ميان
تجر ذيول الزهر ما بين أفستان
على كل أنق نازح القطر أو داني
كست أوجه الغبراء بهجة نisan
بها افتضاع المرتب وباتس الشانى

وأهفو مع الأشواق للوطن الذي
وأصبو إلى أعلام مكة شائقاً
أهل الحمى ديني على الدهر زورة
متى يشتفي جفني القربي بنظرة
ومن لي بأن يدنوا لقاكم تعطفاً
سقى عهدهم بالخيف عهد تمده
وأنعم في شط العقيق أراكة
وحيا ريوعاً بين مروة والصفا
ريوباً بها تندو الملائكة العلا
وأول أرض باكترت عرصاتها
وعرس فيها للنبيه موكب
وأدی بها الروح الأمین رسالة
هنالك فض ختمها أشرف الورى
محمد خير العالمين بأسرها
ومن بشرت بالبعث من قبل كونه
وحکمة هذا الكون لولاه ما سمت
ولا زخرفت من جنة الخلد أربع
ولا طلعت شمس الهدى غب دجية
ولا لحقت بالمذنبين شفاعة
له معجزات أخرست كل جاحد
له انشق قرص البدر شقين وارتوى
 وأنطقت الأوثان نطقاً تبرأت
دعا سرحة عجمما فلبت وأقبلت
وضاعت قصور الشام من نوره الذي
وقد بهج الأنوا بدعوته التي
وأن كتاب الله أعظم آية

فهيئات منه سجع قس وسجان
محا نورها أسداف إفك وبهتان
هم سلبوا تيجانها آل ساسان
تراث الملوك الصيد من عهد يونان
فجرعه منه مجاجة ثعبان
يناغي الصدا فيهن هائف شيطان
ووجه الهدى بادي الصباحة للرائي
وأكرم كل الخلق عجم وعربيان
ولو سجلت سبقاً مدائح حسان
لتبقى بمعن من أياديك هتان
وأنقلت الأوزار كفة ميزانى
لما فتحت أبواب عفو وغفران
وماست على كثبانها ملد قضبان
يفوح بمسراها شذا كل تربان
وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
ووالى على سبطيك أوفر رضوان
إذا أزمعت فالشحط والقرب سيان
على جمرة الأسواق فيك فلباني
إليك بداراً أو أقلقل كيراني
نواجي المهاري في صحاصح فيغان
إذا غرد الحادي بهن وغناني
خطي لي في تلك البقاع وأوطان
بأكلك جاهماً صهوة العز أمطاني
فجود ابنك المنصور أحمد أغناني
وأوفي على السبع الطياب فادنانى
أحل سيفاً في معاقد تيجانى

وعدى على شاو البليغ بيانه
نبي الهدى من أطلع الحق أنجماً
بعزتها ذل الأكاسرة الأولى
وأحرز للدين الحنيفي بالظبا
ونقع من سمر القنا السم قيصرأ
وأضحت ربوع الكفر والشرك بالقعاً
وأصبحت السمحاء تروق نضارة
أيا خير أهل الأرض بيتاً ومحتدأ
فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم
إليك بعشناها أمانى أجذب
أجريني إذا أبدى الحساب جراتي
فأنت الذي لولا وسائل عزه
عليك سلام الله ما هبت الصبا
وحمل في جيب الجنوب تحية
إلى العمرین صاحبيك كليهما
وحيبي علياً عرفها وأريجها
إليك رسول الله صممت عزمه
وخاطبت مني القلب وهو مقلب
فياليت شعري هل أزم قلاتصي
وأطوي أديم الأرض نحوك راحلاً
يرنحها فرط الحنين إلى الحمى
وهل تمحون عنى خطايا اقترفتها
وما ذا عسى يشنى عنانى وإن لي
إذا صد عن زوارك الباس والعنا
عمادي الذي أوطا السماكين أخصمي
متوج أملاك الزمان وإن سطا

إذا أضرب الخطى من فوق جدران
تضامل في أخياسها أسد خفان
وارزم في مركومه رعد نيران
أسلن عليهم بحر خسف ورجفان
صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان
وكل كمي بالرديني طعنان
هدتهم إلى أوداجها شهب خرchan
وعفرن في وجه الثرى وجه بستان^(١)
تؤدي الخراج الجزل أملاك سودان
ومن عترة سادوا الورى آل زيدان
ذووهم قد عرست فوق كيوان
بدور إذا ما احلولكت شهب أزمان
على هضبة العلياء ثابت أركان
بفضلهم آيات ذكر وقرآن
فناهيك من فخرین قربی وقربان
يجاد بأمواه الرسالة ريان
معد على العرباء عاد وقططان
ونافس بيتي في الولا بيت سلمان
فقسمي بالمنصور ظاهر رجحان
ومن عزه في مفرق الملك تاجان
يحوم بها فوق السموات نسران
عليها وشاح من علاه وسمطان
على كبراء الملك نخوة سلطان
وشاهدت كسرى العدل في صدر إيوان

وقاري أسود الغاب بالصيد مثلها
هز بز إذا زار البلاد زثيره
وإن اطلعت غيم القتام جيوشه
صبيبن على أرض العدا صواعقاً
كتائب لو يعلون رضوى لصدعت
عديد الحصا من كل أروع معلم
إذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا
من اللاء جرعن العدا غصص الردى
وفتحن أقطار البلاد فأصبحت
إمام البرايا من على نجاره
دعائم إيمان وأركان سودد
هم العلويون الذين وجوههم
وهم آل بيت شيد الله ملكه
وفيهم أنتي الذكر الحكيم وصرحت
فروع ابن عم المصطفى ووصيه
ودوحة مجد مشتب الروض بالعلا
بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت
أولئك فخري إن فخرت على الورى
إذا اقتسم المداح فضل فخارهم
إمام له في جبهة الدهر ميسّم
سما فوق هامت النجوم بهمة
وأطلع في أفق المعالي خلافة
إذا ما احتبس فوق الأسرة وارتدى
توسمت لقمان الحجا وهو ناطق

(١) المراد به: سبستيان ملك البرتغال لكنه عربه فقال بستان.

أتأمله عرقاً تلتف خلجان
ويأكل لروض في فرا المجد قينان
وتفتحها ما بين سوس وسودان
فمن أرض سودان إلى أرض بعثان
على الحرمين تو على رأس عملاق
روافت بك الشري لأطراق عمان
أنتك استلاباً تاج كسرى وحاتان
عيالاً على عليك إبناه مروان
بربيته السودة أهل خراسان
على عدلي سر الطوال ومران
تغازلهن الحور في طور رضوان
لطائم سك أو خماقيل يستان
فرائد در أو قلات عقيان
وللدين تحميء بملك سليمان
تقاد لك الأملاك في زي عيدان

وإن هزه حر الشباء تلتفت
أيا ناظر الإسلام شم بارق المنا
قضى الله في عليك أن تملك الدنا
وإنك تطوي الأرض غير مدافع
وتصلماً عدلاً يرف لواوه
فكم هنأت أرض العراق بك العلا
فلو شارت شرق البلاد سيونكم
ولو نشر الأملاك دهرك أصبحت
وشايعك السفاح يقتاد طائعاً
فما المجد إلا ما رفعت سماكه
وهاتيك أبكار القوافي جلوتها
أنتك أمير المؤمنين كأنها
تعاظمن حسناً أن يقال شبيهها
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً

انتهت القصيدة الفريدة.

قال في نفح الطيب: «أخبرني ناظمها أنه أراد بقوله: هو نفس بيتي في
الولا ييت سلمان» قيلة سلمان التي منها لسان الدين ابن الخطيب، إشارة إلى
ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمة الله، وفيه مع ذلك تورية
سلمان الفارسي رضي الله عنه» انتهى.

وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذا لم يذكر في المستند من
الأمثال المنصورية غيرها، وقد أثني عليها في «نفح الطيب» جدأ، وتبين ما
قيل في هذا الاحتفال، وإقامة المولد العظيم المثال، من الأمثال ينضي إلى
الطول وفي هذا القدر كفاية وباهه التوفيق.

ذكر سيرة المنصور في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره

قال الفشتالي: «كانت السيرة على عهد أبي عبد الله المهدي وولده الغالب باله وابنه المتوكل سيرة العرب في الجيش والمأكل والملبس وغير ذلك، ولما ولـيـ المـعـتـصـمـ حـمـلـ النـاسـ عـلـىـ السـيـرـةـ العـجمـيـةـ وجـنـجـ إـلـيـهاـ فيـ سـائـرـ شـؤـونـهـ لـمـ رـأـيـهـ مـنـهـ فـلـمـ جـاءـ اللهـ بـالـمـنـصـورـ أـلـفـ بـيـنـ سـيـرـتـيـ الـعـربـ وـأـنـفـواـ مـنـهـ وـقـوـفـاـ مـعـ الـعـوـانـدـ. فـلـمـ جـاءـ اللهـ بـالـمـنـصـورـ أـلـفـ بـيـنـ سـيـرـتـيـ الـعـربـ وـالـعـجمـ، وـاصـطـفـيـ مـنـ الـعـجمـ مـوـالـيـ رـيـاهـمـ بـنـ نـعـمـتـهـ وـأشـمـلـهـمـ دـرـورـ إـحـسـانـهـ، مـنـهـمـ: مـصـطـفـيـ بـايـ، وـمـعـنـاهـ بـلـغـةـ التـرـكـ: قـائـدـ القـوـادـ، وـيـخـتـصـ بـهـ قـائـدـ الـإـصـبـاحـيـةـ؛ وـكـانـ بـرـسـمـ حـرـاسـةـ الـبـابـ الـعـالـيـ. وـمـنـهـمـ الـبـاشـاـ مـحـمـودـ وـهـوـ صـاحـبـ خـرـائـنـ الدـارـ بـيـدـهـ مـقـاتـيـحـ بـيـوـتـ الـأـمـوـالـ. وـمـنـهـمـ الـقـائـدـ عـلـوـجـ قـائـدـ جـيـشـ الـعـلوـجـ؛ وـالـبـاشـاـ جـؤـذـرـ فـاتـحـ السـوـدـانـ وـهـوـ قـائـدـ جـيـشـ الـأـنـدـلـسـ. وـكـانـ لـأـهـلـ الـأـنـدـلـسـ جـيـشـ عـظـيمـ رـمـةـ وـعـمـارـ قـائـدـ جـيـشـ السـوـسـ فـهـوـلـاءـ أـكـابرـ الـعـلوـجـ. وـتـلـيـهـمـ طـافـةـ أـخـرـىـ مـنـهـاـ بـخـتـيـارـ، وـبـغاـ. ثـمـ إـنـ جـيـشـ الـعـجمـ مـنـ الـأـتـرـاكـ وـالـعـلوـجـ قـسـمـهـ إـلـىـ أـقـسـامـ؛ مـنـهـاـ الـبـيـاـكـ: وـهـمـ أـهـلـ الـقـلـاتـ الصـفـرـيـةـ الـمـنـهـبـةـ ذـوـاتـ الـأـعـرـافـ مـنـ رـيـشـ النـعـامـ الـمـلـوـنـ يـقـفـونـ سـمـاطـيـنـ أـمـامـ قـبـتهـ أـوـ فـسـطـاطـهـ. وـالـسـلاـقـ: أـهـلـ الـقـلـاتـ الطـوـيـلـةـ الـبـيـضـ الـمـرـسـلـةـ عـلـىـ الـمـنـاكـبـ وـيـنـاطـ بـهـاـ مـنـ أـعـلـىـ الـجـيـاهـ جـعـابـ صـفـرـ مـنـهـبـةـ وـيـضـيفـونـ إـلـيـهاـ وـقـتـ الـحـزـامـ أـجـنـحةـ طـوـالـأـ يـؤـلـفـونـهـاـ أـيـضاـ مـنـ رـيـشـ النـعـامـ الـبـاقـيـ عـلـىـ أـصـلـ خـلـقـتـهـ وـيـرـكـزـونـهـ فـيـ الـجـعـابـ الـمـنـوـطـةـ بـالـقـلـاتـ مـنـ أـعـلـىـ الـجـيـاهـ وـيـرـسـلـونـهـاـ إـلـىـ وـرـاءـ وـيـقـفـ هـوـلـاءـ خـلـفـ الـبـيـاـكـ. وـبـلـلـدـرـوـشـ. وـهـمـ أـهـلـ الـلـقـاتـيـفـ وـهـيـ رـمـاحـ قـصـيرـةـ غـلـيـظـةـ الـعـصـىـ مـفـشـأـةـ بـالـحـلـيدـ وـمـرـصـعـةـ بـالـمـسـامـيـرـ الـبـيـضـ رـكـبـتـ عـلـيـهاـ أـسـنـةـ عـظـامـ وـزـجاجـ هـاـثـلـةـ يـنـبـتـ مـنـ رـيـشـتـيـ كـلـ مـنـانـ مـنـهـاـ أـضـلـاعـ مـسـتـقـيمـةـ، وـيـقـفـ هـوـلـاءـ خـلـفـ الـسـلاـقـ. وـالـشـنـشـرـيـةـ. وـهـمـ أـهـلـ الـطـعـامـ وـضـعـاـ وـرـفـعاـ لـأـغـيـرـ وـقـائـهـمـ بـخـتـيـارـ مـنـ سـيـ وـادـيـ الـمـخـازـنـ. وـالـقـبـجـيـةـ: وـهـمـ أـهـلـ حـفـظـ الـأـبـوـابـ وـغـلـقـهـاـ وـفـتـحـهـاـ وـقـائـهـمـ مـوـلـودـ الـمـشـاـوريـ، وـطـافـةـ مـنـ هـوـلـاءـ تـحرـسـ لـيـلـاـ

وتطفو على مسايف السور المحيط بالدار، ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسي والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالإيوان وتعاهد أنماط الجلوس وكنسها. والشواش: وهو الذين يتولون ضبط الجيوش في المصف في حرب أو سلم وإنهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر.

قال الفشتالي: «وهذا مما زادت به دولته علىسائر الدول، فإذا خرج في يوم عيد أو ملقاء أو تهنئة خرجوا متزيدين وكل قائد يقف عند مبدأ انبعاث حبل جيشه تحت الوية محفوفاً بجيشه من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم: بالبكاشات، فاصلاً بذلك بين جيشه وجيشه من يردهه خلفه، وهكذا يمتد إلى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المؤمنين، وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه إلى غيره بتقدم أو تأخر ولا يجد السبيل إلى ذلك لو أراده».

قال الفشتالي: «والترتيب الذي يجري به العمل في عساكر النار أن يتقدم أولاً جيش السوس ثم يردهه جيش شراكة وكل منها ينقسم حبلين، ثم يردهما العسكريان العظيمان عسكر الموالي من المعلوجي ومن انصاف إليهم وعسكر الأندلس ومن ليس جلدتهم ودخل في زمرتهم، وهذا يسيران صفين متساوين لاستواء مرتبهما، وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء، غير أن الموالي يكونون في الميمنة لمزية الولاء، وكلاهما يحظى بموالة ركاب السلطان، ويتقدم قائمهما محمود قائد الموالي، وجوزدر قائد الأندلس، وترفع على رأس كل منها رايات ويحفة عسكر من بكاشات. ثم يتصل بهذين العسكريين الدخلة العظيمة المؤلفة من البياك والسلام وبيلبروش فتثير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوافاً متساوية، فاما البياك فيلون ركابه يحفون به يميناً وشمالاً ويرفع بالبعض رماحة اليزنية المنصوبة أمامه، ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حالة وكوبه أقربهم درجة لقائهم أبو رويز، وإذا مشى المنصور إلى جامع المنصور من جهة قبور الأشراف أو للمشتئي وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله أبو رويز بنفسه، ثم يسير عن يمينهم وشمالهم السلام، ويسير عن

يمين هؤلاء وشمالهم بلبروش أهل اللقاقيف، وتتكيف من الجميع صورة تزرع الرعب في القلوب، وتسرير الجنائب فيما بين سماطي هذه الدخلة مجنوينة صفاً إلى الاوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة يقودها صنف يدعون السراحة ركباناً، وكانت جانب الخلفاء يقودها الرجل من الوزعة وهذا أكمل مزية؛ وجيش الإصباحية الذي إلى نظر بيلارباي ينقسم كتبيتين عظيمتين تسير إحداهما ذات اليمين والأخرى ذات الشمال أمام الموكب الذي يرفع اللواء العظيم الأبيض المدعو باللواء المنصور، علامه على شعار الدولة على رأس المنصور يسامته من خلفه؛ وهناك الاوية كثيرة ذات ألوان مختلفة. وأمامه الطبل العظيم الذي يسمع دويه من مسافة بعيدة؛ ومن خلفه الطبول الآخر معها الغيطات - واحدتها غيطة - يتولى النفح فيها قوم من العجم أستاذ يتعلمونها فينفحون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطياع ولا تعنها على شيء دون الحرب، فإنها تشجع الجبان وتنقى جأش الخائف، حكمة فيلسوفية؛ وهناك مزامير آخر وجعاب طوال صفرية على مقدار التغير تسمى الطرنباط مما أحدهه أيضاً في دولته وزادت به دولته فخامة وضخامة؛ ثم يردد هذه الاوية والآلات من خلف أمير المؤمنين موكبه العظيم. فهذا ترتيب جيش المنصور انتهى باختصار من كتاب «ناهل الصفا»، وليس اتخاذ المظلل مما أحدهته الدولة السعودية كما زعم بعضهم، بل كان ذلك موجوداً في الدول القديمة شرقاً وغرباً.

قال اليفريني: «وما ذكره الإمام الفشتالي من توافر أجناد المنصور وتكلاثر جيوشه هو كذلك، وقد أولعت العامة في ذلك بأخبار واهية، وزعموا أن المنصور خرج مرة إلى الرميلة بظاهر مراكش ولم تعلم أصحابه بخروجه، فحين علموا بخروجه تبعوه خفافاً وتقلاً فأمر بعد ما معاه هناك من الجيش فوجد ثمانين ألفاً، فقال: «يا سبحان الله، قد خاطرنا بأنفسنا حيث ركبنا في هذا العدد» يستقله؛ ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإفراط، والذي ذكره الشيخ أبو العباس أحمد أفندي الأندلسي في كتابه المسمى بـ«رحلة الشباب إلى لقاء الأحباب» ما معناه قال: إن جزيرة الأندلس التي استردادها من أيدي

الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش في أيام المنصور وجدت عنده من الخيول نحواً من ستة وعشرين ألفاً، فلو تحركت همته لفتحها لاستولى عليها في حين اهـ بالمعنى» اهـ كلام اليفرني.

وأما بيان حالة المنصور في السفر فقد قال شارح «زهرة الشماريخ»: «إن المنصور كان قليل الأسفار، وإنما سافر إلى فاس مرتبين لا غير، وإنما كان متفرغاً للذاته واستيفاء شهواته مدة خلافته». قال اليفرني: «وبه يعلم أن ما شاع على الألسنة من أنه كان يمكن بفاس ستة أشهر ويمرأكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم».

وكان المنصور إذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن في التهيئة ما شاء. قال صاحب «الفتحة المسكية»: «كان له قصر من عود مسمى بمسامير ومخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة، وقد أحدق بذلك كله سرادق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان، وزخرفة ببيان، وفي داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضاءً وسوداً وحمراً وخضراً كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش و مليء بأبهى الفرش، وللسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم ينتهي منها إلى القصر الذي فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تتقل باستقاله وهو من الأبهات الملوكية التي لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين» اهـ.

ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالي في المناهل قال: «خرج المنصور يوم الاثنين عشر شعبان سنة اثنين وسبعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين بأغمات»، قال: «فتأخرت ورائي فلتحقني العولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأنا في آخريات الناس فأنشده:

أبا فارس يان الخليل وودعوا

قتلـ

ولولا وحسن الصبر مني شيعوا

قالـ

وغرد حادي الين وانشققت العصـ وكاد فؤادي للثوى يتقطع

二〇六

إِلَيْهِ أَشْكُو فِرْقَةً مُنْهَمْ وَقَدْ تَجْرَعَتْ مِنْ كَأسِ النَّوْىِ مَا تَجْرَعَ عَوْا

شہر زندگی

للتثن شرد السلوان عنى يعلهم ففي صحة المتضور أنسى أججم

شیخ

تلور عليه هالة لقيايه ومرکزها قصر الخلافة يلمع

٢٦٣

سياح به بحر اللذى متوج ومن أفقه شمس الإمامة نطلع

وكان المنصور خرج لزيارة أغمات في شارة حسنة، فلما بلغ أغمات
مكت فيه يومين وفي الثالث نهض إلى زيارة الإمام أبي عبد الله الهمييري،
واعاج على ضريح الشيخ سيد عبد الجليل ووقف عند الجبانة الكبرى فدعى ما
تيسير وفرق أمواأ على قوى الحاجات على يد القاضي الشاطبي، والفقيه
الأمين أبي الحسن علي بن سليمان الثاملي، وكان معه الفقيه القاضي أبو مالك
عبد الواحد بن أحمد الحمييري كان قد استقدمه من فاس برسالة القراءة معه؛
وكان الحمييري لوعياً خفيف الروح، وفي هذه السفرة صدرت منه الأبيات
التي تلري في معارضتها شعراً الدولة، وقد ذكرها في الترفة فلتتظر هنالك».

ومما يتعلّق بأخبار الحميدي المذكور: أن المنصور صافر مرة إلى تارودانت وعده جماعة من الأعيان كالقاضي الحميدي وأبي العباس المنجور وغيرهما، فتحمّل المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أختيهم، فمرّ رجل عليه أحشاء بالية وهيبة رثة، ويقال: إن هذا الرجل هو أبو عثمان الهملاوي التاروداتي، فوطّن على طبّ من أطبّ خباء القاضي الحميدي فصاح القاضي عن هذه البقرة التي قوشت على خيمتي؟! منهكماً بالرجل! فألقى إليه الرجل قرطاساً قد أسلّت وقال: «البقرة من لا يحيط عن هذه» وتنص الآيات:

الى يالك العالى مسائل ترقى تفطن لهن يا حميدى واصدق

فما الحكم في الأوزان هل ساغ أكلها وما الحكم في موت المجنين فاتط

دعاه إذا ما رام إكمال ما بقي
وما جمع قلة لصاع فحقق
بجمع سواء والمقيد أطلق
من إيليس والتختمين في الكل فاتق
فبدا للجميدي ما لم يكن يحتسب وتوقف عن الجواب، فرفعت القضية
إلى المنصور فاستغribها وقال: «هذا رجل من أهل الباذية فضح قاضي قضاة
الحراضير» وأمر المنجور فأجاب عنها، يقال بعد أربع سنين وبعد موت
السائل، ونص الجواب:

بمنذهبنا فأجزم بذلك وصدق
لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وذلك في الكافي ليوسف فاتق
 وأنكره التنببيه فافهم ودقق
له العزو للتحقيق لا للتشدق
بعلم كلام لا تكون غير متقد
يصير كموت ففصل الحق يعيق
وحييناً يرى قبل البلوغ فطبق
وحييناً بعصيان الكبيرة يلتقي
يفيق فخذ حكم الجميع ووثق
وفاق إمام في المناجاة فارتقا
بكسر لباء فاكسر العين ترتفق
وأصفع بهمز الواو فانهنج وننق
لضابط تصريف فللعلم شوق
وتحريكه ففتح فزنه وحقق
بأسوية علم يقاس ففرق
سواسية ثقل فبالحق فانطق
فإيليس مبدأ العوذ عند الموفق

وهل جاز للمسبوق بعد تشهد
وما وزن ليس يا أديب وأصله
وما وزنه شمر ولا تن واثنا
وبين لنا (من) في أعوذ بربنا
فبدا للجميدي ما لم يكن يحتسب ووقف عن الجواب، فرفعت القضية
إلى المنصور فاستغribها وقال: «هذا رجل من أهل الباذية فضح قاضي قضاة
الحراضير» وأمر المنجور فأجاب عنها، يقال بعد أربع سنين وبعد موت
السائل، ونص الجواب:

جوابك في الأولى إياحة أكلها
كذا ابن حبيب في الخشاش أيامه
وقد قيل في الأوزاغ يحرم أكلها
ومستقدر يحكى المخالف منه
ورجع ما يحكى المخالف بعض من
وميت مجنون جرى خلف حكمه
وتحقيقها إن الجنون الذي طرا
فاؤنة بعد البلوغ طروه
واؤنة إثر الصلاح وقوته
وحييناً يدوم للممات وتارة
ويندب للمسبوق دعوى تشهد
وليس له فعل كقال وأصله
وجمعك صاعاً في القليل بأصوع
وإن شئت فاقلبه فيرجع آصعاً
وصاع كعام عينه فرع ضمة
وجمع سواء فالذى منه جامد
ومشتقه وزن الخطايا قياسه
ومقصد (من) في العوذ بدء لغاية

انتقاض ولی العهد محمد الشیخ المأمون علی أبيه المنصور وما ألم إلیه أمره في ذلك

كان المأمون كما تقدم ولی عهد أبيه المنصور، وكان خليفته على فاس وأعمالها سائر مدة أبيه، وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتى قيل إن المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال إلا قال: «جعل الله فتحه على يد الشیخ» رجاء أن يقوم بالأمر بعده، فلم يساعد القدر وخرج الأمر كما قال القائل:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
فأسوء المأمون السيرة وأضر بالرعية.

قال اليفرني: «وكان فسیقاً خبیث الطویة، مولعاً بالعبث بالصیان، مدمناً للخمر سفاكاً للدماء؛ غير مکترث بأمور الدين من الصلاة وشرائطها. ولما ظهر فساده وبيان للناس عواره، نهاد وزیر أبيه القائد أبو إسحاق^(۱) إبراهیم السفیانی عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سیرته، فأعاد عليه اللوم فلح في مذهبہ؛ ولما أكثر عليه من التقریع سقاہ السم فكان فيه حتف القائد المذکور. وما انکر عليه أنه قبض على کاتب أبيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عیسى وهو مؤلف كتاب: «العمدود والمقصود من مناء السلطان المنصور» ووظف عليه أموالاً وابتزه ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسکة مذهبة ومائة تخت من الملف المختلف الألوان. فلما کثرت قبائحة وترددت الشکایات لأبيه کتب إليه لينکف عن غیه وینزجر عن خیه، فما زاده التحذیر إلا إغراء؛ فلما رأى المنصور أنه لم يکترث بأمره ولم ینزجر عن قبائحة عزم على التوجه إلى فاس بقصد أن یمکر به ویؤدبه بما یكون رادعاً له، فسمع الشیخ بذلك فجمع عساکره وهباً جنده ودفع المرتب لأصحابه، وكان عدد جنیشه فيما قيل اثنین وعشرين ألفاً کلهم بکساوى الملف والحریر

(۱) بل أبو سالم كما في الدرة.

على أحسن شارة وأكمل ذي، وعزم أنه إن بلغه خروج أبيه من مراكش أن يتوجه في أصحابه إلى تلمسان ويستجير بالترک؛ فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من النهاب إلى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش، وكتب إلى الشيخ بلاطته ويا أمره أن لا يفعل، وولا مسجل ماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما، وقال له: «قد سوغرتكه ولا أطالبك فيه»، ومراته بذلك أن تسكن نفرته ويرجع إليه عقله؛ فأظهر الشيخ أمثال الأمر وخرج يوم سجل ماسة، فما انفصل عن فاس بشيء يسير حتى نلم ورجع إليها، وعاد لما كان عاكفاً عليه؛ فبعث إليه المنصور أعيان مراكش وعلماتها فتصحه ووعظوه وخوفوه سخط والله وحذروه عاقبة العقوبة، ولم يأتوا جهذاً في نصحه، فوجده مشغول القلب عن نصيحتهم، مغمور التهون بخلاف قولهم، إلا أنه أظهر الرجوع عما كان عازماً عليه من الفرار عن أبيه، وأقصر في الظاهر عن بعض تلك المساوي. فرجع الوفد إلى المنصور وقالوا له: «إنه قد تاب وحسن حاله وأطمأنت نفسه وأنه واقف عند الأمر والنهي»؛ فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم: «العل هذا إطفاء لنار الشحناه وكتب لإصلاح الباطن»؛ وصم على المكر بالشيخ، فكتب إليه كتاباً طويلاً يلومه فيه على بعض الأشياء وفي ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يغته على حين غفلة، ونفس الكتاب:

«من عبد الله تعالى المجاهد في سبله الإمام المنصور يا الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني أيد الله أوامرها وظفر عساكرة، إلى ولتنا وولي عهتنا الأمير الأجل الأفضل الأكمel الأعز ببابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير النازرين آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله؛ أما بعد، فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديداً إلا ما عوده مولانا من الخير للحمد وله الشفاعة. هنا، والذي أوجبه أسعدهم الله وكلامكم أنه بلغنا أنكم قد استخلعتم هناك جماعة من أولاد طلحة كأولاد أخي علي بن محمد وأخي علي بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم في أعطياتهم نحو خمسة آلاف، وإلى هنا أي مصلحة ظهرت لك في استخدام هؤلاء القوم حتى تحمل كلفة فرض هذه الفروض، بل ما

في ذلك إلا الفساد البين لأن هذا الذي تعرضتم له لا يفي به المغرب ولا يقوم معه بحكم شيء، ومسألة هؤلاء أولاد طلحة إن كنت رأيت استخدامنا وأردت تقليلنا في ذلك واقتضاء سيرتنا فيه فاعلم أن بيننا وبينكم في هذه المسألة فرقاً من وجوه، منها: إن مراكش ليست كفاس، وإن خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هناك، وأيضاً هؤلاء الناس أنا أعرفهم وكانت في بلادهم، وهذه الخدمة كانوا قد طلبواها مني وأنا هناك فوعدتهم إذ لا يمكنني وأنا ببلادهم إلا مساعدتهم، فلما جاؤوا اليوم وطالبونا بالوعد لم يمكن إلا الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكنها وعلى هذا الشرط استخدامهم ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة، وكانت في ذلك على خطأ إذا كان الأولى إن كنا حاسناهم وتركناهم في الخدمة. وأما أنت ففي متدة عن هذا كله لأنه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء به، ويمكنك أن تحيلهم على إذننا ومشورتنا فنكفهم عنك بالشرط الذي شرطنا عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكنها. وعلى هذا الشرط استخدامنا منهم من استخدمنا، وإلى هذا فالذي نؤكد به عليك أن تقصصهم من الخدمة ولا تستخدم منهم حتى فارساً واحداً أصلاً من الذين ذكرنا لك ومن غيرهم من كافة أولاد طلحة، وأمرناك أن تتصل لهم فيما وتقول لهم: إن السلطان منعني من استخدامكم هنا وتقرأ عليهم كتابنا الوा�صل إليكم صحة هذا لتتفادي منهم، ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره، بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم باظهار البشر والقبول وباب الطمع تسده دونهم.

والذي شق علينا أعظم من هذا كله واستذكرناه ولم نجد صبراً عليه هو ما وجلناهم قد اطلعوا عليه، يعني أولاد طلحة علي بن محمد وغيره، من أحوالكم وأخباركم وأفيناهم قد توصلوا من ذلك إلى ما لم يتوصل إليه أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بساطنا، لأن أهل بلادنا أحباء ما لهم بحث إلا في مصالح أنفسهم، هؤلاء إنما ينتقدون وبيحثون عن الغرة وعورات المملكة. فإذا بكم تتخذلونهم بطانة وأصدقاء وتطالعونهم بأحوالكم

وأموركم مع أن القوم لا زالوا ببلاد العدو وبين أظهرهم وما يطلعون عليه تحتاج تقطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا بأنفسهم عليه. وأيضاً لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا إلا خيراً، فالقوم عرب لا يتحفظون على ما يطلعون عليه ولا يفهمون ما يحسن إخفاوه ولا إيداؤه ولا يتمالكون قولاً ولا نطقاً؛ وبالجملة، فقد أحرقتنا هذه المسألة وتفترط لها أكبادنا، وصارت قلوبنا منها مطعونه وما عندكم علم بأن الناس كانوا يتحفظون في أقل الأمور أن يطلع عليها الأجانب وإن كانوا أحب من كل محب وأقرب من كل قريب. وهل ما عندكم علم بأن أخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جداً أراد أن يطلب من أخيانا بابا عبد الله وحضر في المجلس منصور بن المزار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من بإزاته ثلا يكون عيب في ذكر ذلك بمحضره، فعليه شاور القائد دحو بن فرج - كان بإزاته - فقال له: «هذا رجل براني فلا تطلب شيئاً قدامة» على أن منصور بن المزار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ما إليهم من خواص الخدام أهل بساطنا محبة وقرباً لأنه أسلف معهم خدمة عظيمة، فقد كان عدواً للترك وبيته وبينهم أرواح، وحضر مع أخيانا بابا حمو الحران جميع ما كان في تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الأوسط، ثم مع بابا عبد القادر كذلك، وشرب معهم الحلوة والمرة. ولما جاء من تلمسان جاء بأولاده منها راحلاً كما جاء منها بابا عبد الله بأولاده، وكما جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد؛ وما زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت له يد عظيمة مع أسلافنا وناهيك بمن بلغ إلى أن قلدوه حاضرة تازا ثم بلاد الفحص التي لا تعطى كلتاهما إلا لأقرب الخدام المؤوثق بمحبتهم وخدمتهم وقربهم، ومع بلوغه إلى هذا المبلغ كله محبة وصداقة وهجرة وانقطاعاً حتى أنه في دخول صالح رئيس مدينة فاس وحل بأولاده مع السلطان إلى هنا كما فعل أهل هذه البلاد، وحين دخلنا نحن من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضاً مع صاحب الجبل إلى مراكش، ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب أبداً في الحديث والقديم؛ ثم إن الناس استبعدوا أن يطلبوا أقل المسائل بمحضره، وقالوا: إنه

برانی فضلاً عن هؤلاء الذين ما زالوا إلى اليوم في بلاد العدو يباکرونـه ويرأـونـه فإذا بكم تنزلونـ معهم إلى أن تطالعوـهم على أموركم ويتوصـلـوا إلى المعرفـة بأحوالـكم فـما تمـالـكـنا لهـذه المسـألـة ولا وجـدـنـا عـلـيـها صـبـراًـ ومن جـملـةـ الأمـورـ التي غـاظـتـنـاـ وـقـلـنـاـ: كـيفـ يـتوـصلـ الرـجـلـ البرـانـيـ إلىـ أمـثـالـ هـذـهـ الأمـورـ آنـ عـلـيـ بنـ مـحـمـدـ كانـ يـتـكـلـمـ يـوـمـاـ مـعـنـاـ وـأـخـذـ يـشـنـيـ عـلـيـكـمـ فيـ نـجـدـتـكـمـ وـضـبـرـكـمـ عـنـدـ الشـدـةـ وـسـخـانـكـمـ عـنـدـ الـحـاجـةـ،ـ ثـمـ قـالـ:ـ «إـلاـ أـنـ الـخـيلـ لـيـسـ عـنـهـ لـاـ فـيـ الـحـرـكـةـ الـأـولـىـ لـاـ فـيـ الـثـانـيـةـ لـأـنـ الـقـبـائـلـ أـهـلـ الـخـيلـ اـمـتـنـعـوـاـ مـنـ الـحـرـكـةـ مـعـهـ»ـ وـهـيـ التـيـ غـاظـتـنـيـ وـقـلـتـ:ـ كـيفـ يـتوـصلـ الرـجـلـ البرـانـيـ إلىـ أمـثـالـ هـذـهـ الأمـورـ حتـىـ آنـاـ مـاـ وـجـدـنـاـ إـلـاـ الرـدـ عـلـيـهـ وـعـكـسـ مـاـ عـرـفـنـاـ آنـهـ اـعـتـقـدـوـهـ وـقـلـنـاـ:ـ الـلـهـمـ نـسـبـةـ التـقـصـيرـ إـلـيـكـمـ وـلـاـ اـعـتـقـادـهـمـ خـلـوـ الـبـلـادـ مـنـ الـخـيلـ لـأـنـاـ فـهـمـنـاـ مـنـهـمـ ذـلـكـ،ـ وـلـهـذاـ أـجـبـتـ لـهـ:ـ إـنـ وـلـدـنـاـ لـمـ يـعـطـهـمـ شـيـئـاـ وـأـعـطـيـ مـنـ لـاـ يـسـتـحـقـ مـنـ ضـعـفـ القـوـادـ الـمـعـرـوـفـينـ بـأـكـلـ الـمـالـ وـعـدـ الـمـخـزـنـيـ،ـ وـلـوـ أـعـطـيـ تـلـكـ الـقـبـائـلـ لـحـشـرـهـاـ عـلـيـهـ لـأـنـ أـوـلـادـ مـطـاعـ عـنـدـهـمـ مـنـ الـخـيلـ نـحـوـ الـثـلـاثـةـ آـلـافـ،ـ وـعـنـدـ أـوـلـادـ أـبـيـ عـزـيزـ نـحـوـ الـفـ وـنـصـفـ،ـ وـعـنـدـ الـغـربـيـةـ وـعـنـدـ أـوـلـادـ عـمـرـانـ وـعـنـدـ عـبـدـةـ وـعـنـدـ الشـيـاظـمـةـ وـعـنـدـ الـشـيـاظـمـةـ وـعـنـدـ أـوـلـادـ أـبـيـ رـأـسـ وـعـنـدـ أحـمـرـ وـعـنـدـ الـمـنـابـةـ أـهـلـ سـاـيسـ وـعـنـدـ الـمـنـابـةـ أـصـحـابـ عـمـرـ بنـ مـحـمـدـ عـبـوـ،ـ وـجـعـلـتـ أـعـدـدـ لـهـ قـبـائـلـ السـوـسـ وـقـبـائـلـ مـرـاـكـشـ وـأـحـصـيـ لـهـ خـيـلـهـمـ بـمـاـ بـهـتـهـ،ـ وـقـلـتـ لـهـ لـوـ أـنـصـفـهـمـ لـحـرـكـهـمـ مـنـهـمـ مـعـهـ ستـةـ عـشـرـ أـلـفـاـ أوـ أـكـثـرـ،ـ وـيـكـوـنـ قـدـ مـلـاـ بـهـمـ تـلـكـ الـبـلـادـ،ـ وـسـالـ عـلـيـهـاـ مـنـ سـيـلـ الـعـرـمـ لـاـ فـيـ الـحـرـكـةـ الـأـولـىـ لـاـ فـيـ الـثـانـيـةـ،ـ وـلـوـ وـجـهـ إـلـيـهـمـ الـمـحـرـكـيـنـ وـالـرـمـاـةـ لـأـتـوـهـ أـيـضاـ بـلـاـ خـلـاـصــ.ـ وـإـلـىـ هـذـاـ نـوـصـيـكـمـ عـلـىـ الـمـحـافظـةـ مـنـ أـوـلـثـكـ النـاسـ وـمـنـ رـفـعـ الـحـجـابـ لـهـمـ عـنـ أـمـورـكـمـ وـالـأـطـلـاعـ عـلـىـ أـحـوـالـكـمـ وـعـدـ الـغـفـلـةـ عـنـ أـمـثـالـ هـذـاـ.ـ وـاعـلـمـ أـنـ مـنـ جـمـلـةـ مـاـ بـلـغـنـاـ أـيـضاـ أـنـ الـخـلـطـ رـجـعـواـ كـلـهـمـ رـمـاـةـ عـلـىـ يـدـ مـصـطـفـيـ باـشاـ مـعـ حـدـيـثـ عـهـدـهـمـ بـالـفـسـادـ وـالـخـلـافـ،ـ وـكـنـاـ اـنـتـشـبـنـاـ مـعـهـمـ بـالـعـوـدـاتـ فـإـذـاـ بـهـمـ الـيـوـمـ بـالـمـدـافـعـ وـعـدـةـ النـارـ،ـ وـهـلـ هـذـاـ مـاـ يـجـوزـ عـلـيـكـمـ حتـىـ تـسـمـحـوـ فـيـهـ مـعـ أـنـ هـذـهـ الـعـسـائـلـ لـيـسـ بـغـائـبـةـ عـنـكـمـ سـمـعـتـمـهـاـ بـالـسـمـاعـ فـقـطـ وـلـاـ طـوـيـلـةـ عـهـدـ حتـىـ

تنسها، بالأمس شاهدت وياشترت ورأيت فما الذي أنساك فعلهم وما زال جرهم الآن لم يبراً، لأن خروج القائد مؤمن الخارج الآن ما كان إلا إليهم. والآن نؤكد عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى في هذه المسألة؟ وقد سمعنا أيضاً أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جملتهم من باب الخميس إلى دار الدبيبغ، وكأنكم نسيتم أيضاً ما عمل أولاد حسين بالأمس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد في البلاد حتى ينزلوا تلك المنازل؛ وإلى هنا فساعة وصوله إليكم تقبض على قواد الفساد هؤلاء خصوصاً: أحمد بن عبد الحق من أولاد يحيى بن غانم الذي كان أبوه حاجباً عند المريني فهو أصل الفساد، ثم لا تترك لقبائهم جناحاً واحداً. وزد للقائد مؤمن بن ملوك ألف رام ليستوفي لكم الغرض في هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به، لأنبقاء الرماة هنالك ما فيه إلا الاشتغال بالفساد في المدينة فتحتاج أن تتولاهם بالقتل كل يوم باطلأ فكان خروجهم إذ ذاك دفعاً لمضرتهم وجلباً للمصالح بهم؛ وحتى الكاتب اللاتق بأمثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لأن كتبكم تأتي بخط سالم وهو غير عارف بالإنشاء وتارة بخط الكريني وهو جاهل، مع أنك لما كنت خليفتنا وولي عهتنا كنت بصدق أن يكتب لك كل أحد لا صاحب الجائز ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى، وكل من يكتب لنا من ملوك الأرض بصدق أن يكتب لك فتحتاج حيئتك إلى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب إليك ويكون أيضاً من يوثق به في المحافظة على أسراركم، وإلى هذا فلابد من تعين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وصاحب مشورك وصاحب المظالم كما هنا هو عندنا السيد علي بن سليمان، وأعلم أن مما تحتاج أن تنهيك عليه مسألة القواد الذين يريدون أن يحملوك أثقال أولادهم مثل ما فعلت في أولاد القائد برقة⁽¹⁾ وإخوتهما الذين استخدمتهم وجعلت لهم خسمائة أوقية، فنؤكد عليك أن لا تستخدمنهم أحداً فما أعطيناهم سلاً إلا ليرفع فيها أولاده وإخوته وكذلك

(1) لعله الذي تنسب إليه عين يركة الداخلا، ماؤها لمدينة سلا.

الحكم في أمثاله من أعطيناه عملاً وقلناه قيادة ومن جملة من نحن ترك من استخدامهم في الرماية أهل الجبال من أهل الصحافة والدينار فلا يستخدموا منهم أحداً وإلا فاعلموا أنكم ما أردتم حيـثـنـدـ أن يـغـرـمـوا لـكـمـ ولا يـعـطـوـكمـ شيئاً، وإن أردتم الخـلـمةـ فـهـاـمـ أـهـلـ هـذـهـ الـبـلـادـ مـثـلـ أـهـلـ السـوسـ وأـهـلـ درـعـةـ وأـهـلـ مـرـاكـشـ، فـكـلـ ماـ تـسـتـخـلـمـونـ مـنـ هـزـلـاءـ فـلـاـ عـلـيـكـمـ، وـإـذـ لمـ يـكـنـ مـنـ هـزـلـاءـ وـكـانـ وـلـابـدـ مـنـ غـيـرـهـمـ فـمـنـ أـهـلـ فـاسـ سـكـانـ الـحـاضـرـةـ، وـأـمـاـ مـنـ عـلـاهـ فـلـاـ؛ عـلـىـ أـنـ الرـمـةـ أـهـلـ السـوسـ هـاـ هيـ عـنـنـاـ كـثـيرـةـ، فـكـلـ مـاـ تـرـيدـ مـنـهـمـ عـرـفـنـاـ بـعـثـهـمـ إـلـيـكـ وـنـصـيـفـهـمـ إـلـىـ خـلـمـتـكـ، وـتـؤـكـدـ عـلـيـكـ أـنـ تـكـتـبـ بـجـوـابـ هـذـهـ الـأـمـورـ كـلـهـاـ فـصـلـاـ فـصـلـاـ مـعـ الـمـلـوـكـ الـحـامـلـ لـهـاـ الـكـتـابـ إـنـ شـاءـ اللهـ وـلـابـدـ، وـهـذـاـ مـوجـبـهـ إـلـيـكـ، وـلـهـ يـحـرـسـ بـعـتـهـ عـلـاـكـمـ وـالـسـلـامـ. وـفـيـ مـهـلـ جـمـادـيـ الـأـوـلـىـ مـنـ عـامـ أـحـدـ عـشـرـ وـأـلـفـ اـمـ.

ثم لم يلبـتـ المنـصـورـ أـنـ بـعـثـ إـلـىـ وـلـهـ زـيـلـانـ . وـكـانـ خـلـيفـهـ عـلـىـ تـادـلـ . يـأـمـرـهـ أـنـ يـرـسـلـ مـاـلـةـ مـنـ فـرـسـانـ عـلـىـ طـرـيقـ تـاقـبـلـاتـ ، وـكـلـ مـنـ وـجـودـهـ قـاصـداـ لـلـغـربـ مـنـ نـاحـيـةـ مـرـاكـشـ يـرـدـوـنـهـ ، وـأـرـسـلـ مـوـلـاـ مـسـعـدـ الدـوـرـيـ عـلـىـ طـرـيقـ سـلاـ يـقـعـلـ مـثـلـ ذـلـكـ ، وـخـرـجـ الـمـنـصـورـ مـنـ مـرـاكـشـ⁽¹⁾ فـيـ اـنـتـيـ عـشـرـ أـلـفـ أـوـاـلـ جـمـادـيـ الـأـوـلـىـ سـنـةـ إـحـدـىـ عـشـرـةـ وـأـلـفـ ، وـجـدـ السـيـرـ ، فـلـمـ يـمـضـ إـلـاـ أـيـامـ قـلـلـاـلـ حـتـىـ نـزـلـ بـالـلـوـحـ ، مـوـضـعـ قـرـيبـ مـنـ فـاسـ ، وـالـشـيـخـ فـيـ جـمـيعـ ذـلـكـ لـاـ شـعـورـ لـهـ بـخـرـوجـ إـلـيـهـ وـلـاـ بـمـاـ هـوـ عـلـيـهـ؛ فـبـعـثـ يـوـمـاـ عـيـونـهـ يـرـصـدـونـ لـهـ مـنـ قـدـمـ مـنـ مـرـاكـشـ ، وـيـكـشـفـونـ عـنـ الـخـيـرـ ، فـمـاـ رـاعـهـمـ إـلـاـ الـأـبـاطـحـ تـسـيلـ بـأـعـنـاقـ الـجـيـادـ ، وـأـقـولـهـ الشـعـلـ تـقـلـفـ بـالـجـيـوـشـ مـنـ بـطـوـنـ الـأـوـدـيـةـ وـالـوـهـادـ ، لـأـنـهـمـ كـانـوـاـ قـدـ عـمـيـتـ عـلـيـهـمـ الـأـثـيـاءـ بـقـطـعـ الـمـنـصـورـ لـلـسـابـلـةـ . فـرـجـعـوـاـ إـلـىـ الشـيـخـ مـسـرـعـيـنـ ، وـالـرـعـبـ يـفـتـ فـيـ أـعـضـاـهـمـ وـيـطـقـنـ جـلـوةـ عـزـاثـهـمـ ، فـقـصـوـاـ عـلـيـهـ مـاـ دـعـهـمـ وـأـخـبـرـهـ بـمـاـ رـأـواـ ، فـلـمـ أـنـ مـحـاطـ بـهـ فـلـمـ يـمـكـنـهـ إـلـاـ الـفـرـارـ؛ فـرـكـبـ مـنـ حـيـهـ وـفـرـ إـلـىـ زـاـوـيـةـ الشـيـخـ الصـالـحـ أـبـيـ الشـتـاءـ مـنـ بـلـادـ فـسـتـالـةـ قـرـبـ نـهـرـ وـرـغـةـ . وـكـانـ الشـيـخـ أـبـيـ الشـتـاءـ قـدـ تـوـفـيـ قـبـلـ ذـلـكـ سـنـةـ سـيـعـ وـتـسـعـيـنـ وـتـسـعـمـةـ كـمـاـ فـيـ

(1) بعد أن استخلف عليها ولده أبي طرس.

المرأة. فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الأحداث وقرناء السوء، فبلغ خبره المنصور فبعث إليه البasha جوزراً مع القائد منصور النيلي، وحلف لهما بأغاظ الأيمان إن لم يأتياه به ليتمكن بهما ويجعلهما عبرة؛ فذهبا إليه فامتنع من الدخول في يدهما، وانعزل في أصحابه حتى ناوشه القتال، وترموا بالتبال، ثم قبضوا عليه وأتوا به إلى المنصور في خير طويل، فأمر به إلى مكتasseة فسجن بها.

ودخل المنصور دار الملك من حضرة فاس الجديد وشكر الله على ما أولاه من الظفر والنصر من غير إراقة دم، وتصدق في ذلك بأموال عظيمة، وكتب بذلك إلى ولده أبي فارس خليفته على مراكش يعلمه بما كيف الله له من الظفر والنصر، ونص الكتاب:

إلى ولدنا الأجل الأرضى الأكمـل الأصـعد الأمـجد الأسمـى
الأسى بـابـا أـبـي فـارـس وـصـلـلـه كـمـالـكـم وـسـنـى بـمـنـه آـمـالـكـم وـسـلـام عـلـيـكـم
وـرـحـمـة الله وـبـرـكـاتـه. وـبـعـد، فـكـتـابـنا هـذـا إـلـيـكـم أـسـعـدـكـم الله من مـحـلـتـنا السـعـيدة
بـالـمـسـتـقـى وـلـاـ شـيـء إـلـاـ مـاـ جـرـتـ بـهـ الـأـقـدـارـ، وـحـكـمـ بـهـ الـفـاعـلـ الـمـخـتـارـ، وـمـاـ
جـاءـ بـهـ مـنـ عـجـابـ الـدـهـرـ الـلـلـيـلـ وـالـنـهـارـ، وـهـيـ قـضـيـةـ أـخـيـكـمـ الـتـيـ ثـارـتـ إـلـيـ بـهـا
صـرـوفـ الـدـهـرـ مـنـ مـكـمـنـيـ، وـطـلـعـتـ عـلـيـ مـنـ مـأـمـنـيـ، إـلـاـ أـنـ اللهـ تـعـالـىـ بـصـنـعـهـ
الـجـمـيلـ كـفـانـاـ أـوـلـاـ، ثـمـ شـفـانـاـ آـخـرـاـ لـهـ الـحـمـدـ دـائـمـاـ وـالـشـكـرـ وـاـظـلـاـ، وـشـرحـ ذـلـكـ
أـسـعـدـكـمـ اللهـ وـوـقـاـكـمـ السـوـءـ إـنـ الـحـالـ كـانـ اـنـتـهـيـ فـيـ مـعـالـجـةـ أـمـرـهـ الـذـيـ تـجـاـزوـنـاـ
فـيـ وـجـوـهـ الـخـيـرـ إـلـيـ حدـ الـاستـقـصـاـ، وـأـتـيـنـاـ فـيـ مـحاـوـلـةـ استـصـلـاحـ مـنـ أحـوـالـ
الـسـيـاسـةـ الـمـرجـوـةـ التـنـجـحـ بـمـاـ لـاـ يـحـصـىـ، إـلـىـ مـاـ كـنـاـ سـوـغـنـاهـ مـنـ وـلـايـةـ
سـجـلـمـاسـةـ بـخـرـاجـهاـ وـخـرـاجـ درـعـةـ وـأـبـحـنـاـ لـهـ التـوـجـهـ إـلـيـهاـ بـجـمـلـهـ وـجـمـعـهـ، رـجـاءـ
أـنـ تـسـكـنـ بـالـاتـبـازـ إـلـيـهـماـ نـفـرـتـهـ، وـتـطـمـنـ نـفـسـهـ وـيـشـوبـ إـلـيـهـ قـلـبـ الطـائـرـ،
وـبـرـاجـعـهـ أـنـسـهـ الـحـائـرـ، فـأـظـهـرـ أـوـلـاـ التـوـجـهـ إـلـيـهـماـ، وـنـهـضـ مـرـتـحـلـاـ عـنـ فـاسـ
مـورـيـاـ بـالـقـدـومـ عـلـيـهـماـ، ثـمـ بـداـ لـهـ عـلـىـ الـحـيـنـ فـكـرـ رـاجـعاـ إـلـىـ فـاسـ، وـرـجـوـنـاـ أـنـ
يـكـونـ قـدـ ذـهـبـ عـنـ النـفـارـ وـالـشـمـاسـ، وـثـابـ لـنـفـسـهـ السـكـونـ وـالـاسـتـنـاسـ، فـإـذـاـ
بـهـ قـدـ اـنـطـوـيـ بـرـجـوـعـهـ عـلـىـ خـلـافـ مـاـ أـظـهـرـ، فـأـبـدـىـ مـاـ أـضـمـرـ، فـمـاـ كـانـ إـلـاـ أـنـ

طراً عليه خبر نزولنا بالدوح فلم يتمالك أن أفلع ليلة الخميس الخامس عشر شهر تاريخه إقلاعاً أزعجه من الدار فريداً، وطارت به النفرة إلى أن حل بزاوية الشيخ أبي الشتا وحيداً، فتلحق به من جيش رمانه اليكشارية ومتنفرة سماسراً الفتنة وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم، وعدد من كثره لا يريم، فبادرت حيتاً بتجهيز جوزر باشا من غير إغفال في خمسمائة صبائجية ومعه القائد مؤمن بن ملوك في خمسمائة فارس، ثم أردفناه بيعوث آخر تأليت إليه وتناثلت عليه تناهز الألفين ورماها ببابا زيدان حفظه الله فأحدقت به من كل الجهات، وملدوا عليه الفجاج والثنيات، ونحن مع ذلك خلال هذه الأحوال لم نهمل مقابلة نفرته بالتسكين، وما يخشى من أحواله بالتليين، بإرسال المرابطين تجاهه بمواثيق تهنيه، وعهود تؤنسه وتقرب أمانه، رجاءً أن يتوب إليه ثائب استبصار، أو يخطر له خاطر إقلاع عما هو عليه وإقصار، وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشر ناراً، ويزينون له عقوفاً ونفاراً، فدهتمتهم حيتاً عساكرنا المظفرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيمة فخدمت النار من وقت الظهور إلى العصر فاظهر الله تعالى فتنة الحق على فتنة الباطل. وقضى بما جرى به القضاء المحتم الحكم العادل، وكتباً إليكم وقد حصل في القضية كما سبق به القضاء والقدر، وجعل بمكان الاحتياط عليه من مكناسة فكانت مشيئة الله في ذلك من إحدى العجائب العبر، وعرفناكم أسعدكم الله ل تستشعروا صنع الله في هذه الظاهرة التي فجئت بها الأيام ودهمت، والغاشية التي اعتكرت وادلهمت، وتقدروا ما صنع الله في ذلك من حسن العاقبة حق قدره، وتشكروه فهو الجدير بجميل حمد كل لسان وشكره، ونسأله تعالى أن يجعلكم في حيز الكفاية، وجانب الوقاية حتى لا تساؤوا بقريب مأمون، ولا ببعيد مظنون، وفي ليلة الثلاثاء الموفي عشرين من جمادى الأولى عام أحد عشر وألف، اهـ.

ثم إن أم الشيخ واسمها الخيزران بعثت إلى أعيان مراكش الذين قدموها مع المنصور ترحب إليهم في أن يشفعوا لولدها عند أبيه ويغتذرها عنه بما يزيل ما في باطنها عليه، فتقدموا إلى المنصور وقالوا له: «إن الشيخ قد

صلحت حالي، وتاب مما كان عازماً عليه، وأنه ندم على ما فرط منه» فقال لهم: «اذهبو إلى مكناة وانخبروا أمره كافياً، وانظروا هل رجع عن أبيطيله، وتنصل من أضاليله»: فلما أتوه وجدوه أخبت مما تركوه وعانياوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفه اللسان، فلما جلسوا إليه في محبسه لم يسألهم إلا عن أصحاب بطانته وقرناء السوء من أهل غيه، ولم يظهر الأسف إلا على تلك العصابة ورآهم أهل الإصابة.

وكان من الأعيان الذين وجههم المنصور أولاً وأخراً أولاد الشيخ أبي عمرو القسطلي، وأولاد الشيخ أبي محمد عبد الله بن ساسي؛ وأولاد الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار وغيرهم. فلما رجعوا إلى المنصور من مكناة سألهم عن الخبر فتافق بعضهم وقال: «وجدناه تائباً نادماً على ما صدر منه» وتكلم بعض أولاد الشيخ ابن ساسي فقال: «لا والله لا داهنت في حق الله ولا واجهت الأمير بالخديعة، إن ولدك لا ناذن لك أن تؤمره على اثنين ولا تحكمه على عيال الله فإننا وجدها خبيث الطوية قبيح السيرة لم يندم على ما فرط منه» فسكت الحاضرون ولم يتكلم أحد، فقال لهم المنصور: «افتوني في أمر هذا الولد؟» فلم يجبه أحد إلا باشأنه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي فإنه قال له: «رأيي أن تقتله، فإنه لا ينجبر أمره ولا يرجي صلاحه وقد رأيت ما صنع» فلم يعجب المنصور ذلك وقال: «كيف أقتل ولدي؟» ثم بعث إلى مكناة يأمر بالتصنيق على الشيخ والزيادة عليه في ذلك. ثم خرج المنصور فنزل بمحلته في ظهر الزاوية قاصداً مراكش بعد أن استخلف ابنه زيدان على فاس وأعمالها، وقد كان كتب إلى ولده أبي فارس خليفته على مراكش برسالة أجابه فيها بما كتب به إليه في شأن الوباء الذي ظهر بالسوسن ومرakens هل يفر منه أم لا ونصها:

«من عبد الله تعالى المجاهد في سبيل الإمام الخليفة المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني أيد الله بعزيز نصره أوامره وظفر عساكره، وأسعد بيمنه موارده ومصادره، إلى ولدنا الأجل الأفضل الأكمل الأعز الأبر الأسعد الأمجد الأرضي باباً أبي فارس، وصل الله تعالى عن أيتكم

ووالى بمنه رعايتكم وسلام عليكم ورحمة الله . أما بعد ، فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العالية بالله المدينة البيضاء حاطها الله عن الخير والغافية ، ونعم الله المتوفاة ، الله الحمد وله المنة ، وأنه اتصل بعلي مقامنا كتابكم الأعز عشية يوم الثلاثاء فكتبنا إليكم صبيحة يوم الأربعاء ، ولو لا أنه وصل يوم الديوان ما كنا نؤخر كتب الجواب لكم عن ساعة وصوله في اليوم بنفسه حرصاً منا بذلك على المبادرة بوصوله إليكم في الحين ؛ وإلى هذا أسعدكم الله أن أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد ، وببقى في القصبة وصيفنا مسعود مع القائد محمد بن موسى بن أبي بكر ، وتتركوا مائة رام تشقون بها من رماتكم مع أصحاب السقيف وتتكلون على الله وتخرجون بالسلامة ، ثم لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرميلة والتقلب بها ، بل لا تزيدوا إذا خرجمت على المقام أكثر من يومين ، ثم اطروا المراحل إلى أن تنزلوا بسلا وتدخلوها دخول هناء وعافية إن شاء الله ، وهناك يكون لقاونا بكم لقاء يعن سعادة إن شاء الله ، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله فلازموه ، وإذا استشعرتم منه حرارة وتحفظتموها فاستعملوا من الوزن الوصف المعروف منه ولا تهملوه . وأما ولدك حفظه الله فلما كان من سن الشبيبة بحيث منعه الحال من المداومة على الترياق فها هي الشربة المعروفة لذلك قد تركناها كثيرة هناكم عند التونسي ، فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله ، حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق المرة والمرتين على قدر الحاجة فيعود إليها والله تعالى بمنه ويحرمه صفة خلقه خير البشر محمد ﷺ يتولى حمايتكم جميعاً ويحلكم من جميل كلامته ورعايته حسناً متيناً ، وأن يعافي البلاد والعباد بمنه وفضله ؛ والسلعة أسعدكم الله تبادرون بيارسالها إلينا ، وكذلك القائد مسعود النبيلي تعزمون بيارساله إلى حيث أمرناه بالمقام من خنق الوادي بالسوس وطريق تاحظيشت ؛ واعلم أسعدكم الله ما قط أرضانا أن أمرها يتم ، وقبل عقلنا الكريم إن أهل درن يتجررون بسببها ، ولكن هذا سبب يكون حجة عليهم إن شاء الله ، وأنتم

تحاولون أسعدهم الله سلوك الناس على بويابون على العادة، وتجهدوا في أن تكون إن شاء الله سابلة، وأولادكم أعني أهل طريق تاحظيشت يسكت عنهم حتى نصل بخير وعافية لتلکم البلاد إن شاء الله. ومسألة أيسى التي كتبت لكم من خنق الوادي على الزرع وأنه ما عندهم ما يكفيهم منه سوى شهر فلقد كنا كتبنا لكم أسعدهم الله على حمل الزرع إليهم على البحر، فإن كان قد تيسر ذلك فيكون قد بلغ إليهم وإن لم يكن ذلك قد تيسر فلتامر أيسى هذا بالتدبر على الزرع ولو بالشراء وألزموه عهده وشددوا عليه في أمره، وخالفنا القائد حمو بن محمد الذي استأذنكم في الخروج عن ذلكم المرض من المحمدية^(١) فإذا تفاحش فلا عليه في الخروج ويلتحق بأهل تلك المحلة بخنق الوادي ويترك في القصبة أهل الأندلس مع قائدتهم. ومسألة مؤمن بن منصور مع هكسيمة التي ذكرتم أسعدهم الله إن مؤمناً قد ثاقل بدمنات بسبب مرض ألم به حتى جاء به شاوش، وإن أخاه ذلكم المفسود بعث إليه يتلقى معه بتأمصلوحت فعلى بركة الله والحاضر بصيرة، وهذا موجبه إليكم، والله يصل بمنه رعايتكم والسلام. وفي يوم الأربعاء رابع عشر رمضان معظم عام أحد عشر ألف، عرفنا الله خيره وبركته. وبعد أن كتبنا لكم هذا بلغنا كتابكم ونحن نجيئكم بما تحتاجون إلى الجواب عنه، والبطاقة التي ترد عليكم من السوس من عند الحاكم أو ولد خالكم أو غيرهما لا تقرأ ولا تدخل داراً بل تعطى لكتابكم هو يتولى قراءتها ويعرفكم بمضمنها، ولأجل إن كتابكم يدخل مجلسكم ويلبس مقامكم حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تغمض في خل ثقيف وتنشر حتى تيس وحيثند يقرؤها ويعرفكم بمضمنها إذ ليس يأتيكم من السوس - والله سبحانه أعلم - ما يوجب الكتمان عن مثل كتابكم؛ وقد طالعنا كتاب ولد خالكم أحمد بن محمد الصغير وصح عندها من فحوى كلامه ما ذكرتم عنه من أنه أكثر من خبر الوباء ليجد له ذريعة للخروج من السوس،

(١) المحمدية هي تارودانت نسبة إلى محمد (فتحها) الشيخ ابن القائم بأمر الله. وغالب السكة السعدية ضرب بها.

والذی تأمرونه به أنکم تحذرونے من القدوم علیکم بمراکش، وإن ذلك لا يرضينا منه، وكيف يروم الخروج من موضع عیناه له من غير أمرنا لا سيما مع غیبتنا عن البلاد، وأنه إن فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا، ثم لا يعود أبداً إليها، إلا أن تفاحش المرض بتلك الناحية فلا عليه في الخروج والتنقل قرب البلاد أو يلتحق بمحللة أصحابه الذين بخنق الوادي. وأما ما ذكرتم عن محمد بن عبد الرحمن الوردي فقد طالعنا الجريدة التي جرد لكم وتصفحاتها ورأينا أن جل ما يطلبها بها لا يمكن مع غیبتنا، والذي نأمركم به في مسألته أنکم تحاولون في رده لموضعه فإنه بذلك الموضع أليق من أخيه بكثير، وكل ما يمكنكم من أغراضه المسطرة فاقضوه له، وما لا يمكن عدوه به عند قدومنا إن شاء الله. وأما أمر أخي أحمد بن الحسن الذي عیناه لجيابة درعة وذكرتم أنه غير لائق بها وأنکم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك أنه كما ذكرتم، ولكن إنما وقع الاختيار عليه لأمرین: الأول: الذمة لأنه بماله ولا نخشى إن شاء الله على مالنا، الثاني: إن خراج درعة سهل معلوم، ولعله يكره هذه الولاية ويحب الجلوس بداره ويعغري من بتكلم فيه عندكم، فإن كان من ذكره لكم مثل مسعود أو تاودي فاتهمه؛ وقد طالعنا في جريدة تکم أنکم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام، وهذا الذي ذكرتم ما نعلم أنا كتبنا لكم عليه فقط، وإنما كتبنا لكم على الزرع تحملونه في البحر برسم المحللة التي هناكم بخنق الوادي، فإن كان هو هذا فتحن أردناء للمحللة، وإن كان غيره فعرفنا بقضيته، فإن زرع المعاصر إنما يلزم اليهود والنصارى المكثرين للمعاصر، وفيها أيضاً ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة، وإنکم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الأمر لأنکم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الإصلاح الذي أمرنا به فعرفنا لنكون على بصيرة من ذلك؛ وفيها أيضاً مسألة أولاد طلحه فدبوا عليهم إما من عند أيسى أو غيره حتى لا يرجعون إلينا شاكين. وولد إبراهيم بن الحداد إلى الآن لم يصل، وزمام الأسرى وصل. وأما الدرقة التي ذكرتم فيها السلة المعدة لها عند صاحب بيت ثيابنا، فوجه لي يوسف العبد حتى تكلمه

ومرة يخرجها من عنده وركبها في موضعها ولا تركب التي عندكم بل تمسكونها لأنفسكم. وأعلم أنني تركت عند أولئك المعلمين أعني معلمي برకاصو سلاتي برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلها، وحيث يفرغون من الدرقة اجمعهم عليها كي نجد ذلك طالعاً إن شاء الله فإنما قد أمرنا بنسج درارق تلکم السلاطی^(١). هذا، والمراد أن تجد السلاطی قد فرغ منها إن شاء الله. وقصر الخيل مع الحمام حرض المعلمين على المبادرة باشتغالهما بهما، وحاول أن تسقفوها ذلك البلاط الذي يوالى سور القصبة من قصر الخيل والقبة التي فيه لنجدہ کاملاً إن شاء الله عند قدومنا عليکم، وحتى سواري الرخام ركبواها في تلك الجهة إذا سقطتم، ولا تزالوا تعرفونا بما تزايد من الأشغال في الموضعين المذكورين. وأوصيکم أعزکم الله أن تتفقدوا فرسنا الأحمر الصغير ولا تتركوه يعطونه القصيل لثلا يكثر لحمه ويزداد ألمه، بل انظر له من يركبه كل يوم بل لا تنزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله. أو أعطوه لصاحب المسرة يركبه في ذهابه وإيابه لداره والمسرة، وأوصوه أن لا يركبه غيره ولا يتزل عن ظهره النهار كله. وأوصيکم أيضاً إذا ظهر المرض بتلکم الناحية وخرجتم خروج يمن وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا وراءکم بنت عمکم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله. وامر يوسف العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج إليه من الترياق الجديد الذي كان يقية المشور ويدخل على أيديکم لدارنا، واستدعوا أم المال قهرمانة الدار وأعطوها إياه برسم أهل دارنا، وأمرها أن تعطیهم إياه في كل رابع من اليوم الذي يأكلونه فيه، وهي أيضاً تأكل منه، والعبد يوسف أيضاً يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعني مسعود بن مبارك، والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظکم أنتم وأولادکم وقد استودعنکم الله الذي لا تضيع لديه الودائع، وأنتم في أمان الله وحفظه، والله سبحانه خليقتي عليکم أنتم في يمين الرحمن وكلنا يديه يمين، والسلام الآثم

(١) لعل العبارة فيها قلب وأصلها: بنسج سلاتي تلکم الدرارق.

عائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ونسلم على ولدنا الأعز الأرضى بابا عبد الملك، وعلى ابنتنا الرضبة سيدة الملك ونحن في غاية الاشتياق والتوجه لها جمع الله بكم الشمل جميعاً أمين، بحرمة سيدنا محمد ﷺ وعلى آل خير آل السلام اهـ.

قال مؤلفه عفا الله عنه: قد وقع في كلام المنصور رحمة الله أمران يحتاجان إلى التنبيه عليهما، الأول: إذنه لولده أبي فارس في الخروج من مراكش إذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيئاً يسيراً وهذا الأمر محظوظ في الشرع كما هو معلوم ومصرح به في الأحاديث، والثاني: أمره إياه أن لا يقرأ البطاق الواردة عليه من السوس وإنما يتولى قراءتها كاته بعد أن تغمض في الحل، وهذا عمل من أعمال الفرج ومن يسلك طريقهم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرينتية، وقد اتفق لي فيها كلام ذكره هنا تتمينا للفائدة، وذلك أنه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا سفر إلى حضرة السلطان المولى أبي علي الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراکش المحروسة بالله فخرجننا من سلا أواخر ربیع الأول من السنة المذكورة، ومررنا في طريقنا على المحب القائد الأنبل أبي عبد الله محمد بن إدريس الجرجري بشعر الجديدة، وهو يومئذ متول لعملها، فأجل قدومنا على عادته حفظه الله في مجده العلم ومن يتمي إليه، وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت، وكانت السنة ست وباء، فجرت المذكرة فيما يستعمله النصارى في أمر الكرينتية من حبس المسافرين وشناد الآفاق عن المرور بالسبيل والدخول إلى الأمصار والقرى ومنع الناس من مواجهتهم وأسباب معيشهم؛ وحصل التوقف تلك الساعة في حكمها الشرعي ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه، ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وقفت على رحله العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوى المصرى فى أخبار باريز فرأيته ذكر فى صدرها: أنه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد المناعي التونسي المالكى المدرس بجامع الزيتونة، ومفتى الحنفية بها العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد البيرم فى إباحة الكرينتية وحظرها، فقال المالكى بحرمتها وألف فى ذلك

رسالة، واعتماده في الاستدلال فيها على أن الكريتانية من جملة الفرار من القضاء. وقال الحنفي بباحتها، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضاً. فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لي النظر في حكم هذه الكريتانية وظهر لي أن القول بباحتها أو حرمتها منظور فيه إلى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ولو مرسلة على ما هو المعروف من مذهب مالك رحمة الله، ثم يوازن بينهما وأيتها رجحت على الأخرى عمل عليها، فإن استوتا كان درء المفسدة مقدماً على جلب المصلحة كما هو معلوم في أصول الفقه، ونحن إذا أمعنا النظر في هذه الكريتانية وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة، أما المصلحة فهي : سلامـة أهـل الـبلـد المستـعـمـلـين لـهـا من ضـرـر الـوـبـاء، وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة، لأنـهـ لـيـسـ السـلـامـةـ مـقـرـونـةـ بـهـاـ كـمـاـ يـزـعـمـونـ وـأـنـهـ مـهـمـاـ استـعـمـلـهـاـ أـهـلـ قـطـرـ أوـ بـلـ إـلاـ وـيـسـلـمـونـ لـاـ دـائـمـاـ وـلـاـ غالـبـاـ بـلـ الـكـثـيرـ أوـ الـأـكـثـرـ أـنـهـ يـسـتـعـمـلـونـهـاـ وـبـالـغـونـ فـيـ إـقـامـةـ قـوـانـينـهـاـ ثـمـ يـصـيـبـهـمـ مـاـ فـرـواـ مـنـهـ كـمـاـ هـوـ مـاـ شـاهـدـهـ؛ـ وـمـنـ زـعـمـ أـنـ السـلـامـةـ مـقـرـونـةـ بـهـذـاـ دـائـمـاـ أوـ غالـبـاـ فـعـلـيـهـ الـبـيـانـ إـذـ الـبـيـانـ عـلـىـ الـمـدـعـيـ،ـ فـتـجـعـلـهـ مـاـ كـمـاـ هـوـ كـمـاـ كـمـاـ مـصـلـحـةـ الـكـرـيـتـانـيـةـ مشـكـوـكـةـ أوـ مـعـدـوـمـةـ،ـ وـإـذـ كـانـتـ كـذـلـكـ فـلـاـ يـلـتـفـتـ إـلـيـهـ شـرـعاـ بـلـ وـلـاـ طـبـعاـ لـأـنـهـ حـيـثـنـذـ مـنـ قـبـيلـ الـعـبـثـ.ـ وـأـمـاـ المـفـسـدـةـ فـهـيـ :ـ دـنـيـوـيـةـ وـدـيـنـيـةـ،ـ أـمـاـ الدـنـيـوـيـةـ فـهـيـ الـإـضـرـارـ بـالـتـجـارـ وـسـائـرـ الـمـسـافـرـينـ إـلـىـ الـأـقطـارـ بـحـبـسـهـمـ وـتـسـوـيـقـهـمـ عـنـ أـغـرـاضـهـمـ وـتـعـطـيلـ مـرـاقـفـهـمـ عـلـىـ أـبـلـغـ الـوـجـوهـ وـأـقـبـحـهـاـ كـمـاـ هـوـ مـعـلـومـ،ـ وـأـمـاـ الـدـيـنـيـةـ فـهـيـ تـشـوـيشـ عـقـائـدـ عـوـامـ الـمـؤـمـنـينـ وـالـقـدـحـ فـيـ تـوـكـلـهـمـ وـإـلـيـهـمـ أـنـ ذـلـكـ دـافـعـ لـقـضـاءـ اللـهـ تـعـالـىـ وـعـاصـمـ مـنـهـ،ـ وـنـاهـيـكـ بـهـمـ مـفـسـدـتـيـنـ مـحـقـقـيـنـ تـرـتكـبـانـ لـشـيـءـ يـكـونـ أـوـ لـاـ يـكـونـ،ـ فـإـنـ الـعـامـةـ لـقـصـورـ أـفـهـامـهـمـ -ـ قـدـ تـذـهـبـ أـوـهـامـهـمـ مـعـ هـذـهـ الـظـواـهـرـ فـيـقـفـونـ مـعـهـاـ وـيـقـعـونـ فـيـ وـرـطـةـ ضـعـفـ الإـيمـانـ عـيـاذـ بـالـلـهـ فـإـنـ قـلـتـ :ـ هـذـاـ الـكـلـامـ فـيـهـ مـيـلـ إـلـىـ سـوـءـ الـظـنـ بـهـمـ إـنـمـاـ فـيـهـ تـقـرـيرـ الخـوفـ عـلـيـهـمـ وـالـاحـيـاطـ لـهـمـ حـتـىـ لـاـ نـتـرـكـهـمـ هـمـلـاـ يـفـعـلـونـ مـاـ شـاؤـرـاـ أوـ يـفـعـلـ بـهـمـ مـاـ يـضـرـهـمـ فـيـ دـيـنـهـمـ وـدـنـيـاـهـمـ مـعـ أـنـ سـدـ الـذـرـيـعـةـ قـاعـدـةـ مـنـ قـوـاعـدـ الشـرـعـ لـاـ سـيـماـ فـيـ الـمـذـهـبـ

الماـلكـيـ، ولـأـمـرـ ما جـاءـتـ الشـرـيـعـةـ المـطـهـرـةـ مـمـتـلـئـةـ منـ التـحـذـيرـاتـ منـ مـكـامـنـ هذهـ المـفـاسـدـ وـنـحـوـهـاـ وـرـدـ الأـسـابـ وـالـمـسـيـبـاتـ كـلـهاـ إـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ:ـ معـ ماـ فيـ استـعـمـالـ هـذـهـ الـكـرـنـيـتـيـةـ منـ الـاقـتـداءـ بـالـأـعـاجـمـ وـالـتـزـيـيـ بـزـيـ الـكـفـرـ الـضـلالـ وـرـمـقـهـمـ بـعـيـنـ التـعـظـيمـ وـنـسـبـتـهـمـ إـلـىـ الـإـصـابـةـ وـالـحـكـمـ كـمـاـ قدـ يـصـرـحـ بـهـ الـحـقـقـىـ مـنـ الـعـوـامـ.ـ فـأـمـاـ إـذـاـ وـافـقـ قـدـرـ بـالـسـلـامـةـ عـنـدـ استـعـمـالـهـاـ فـهـيـ الـفـتـنـةـ وـالـعيـادـ بـالـلـهـ؛ـ فـأـيـ مـفـسـدـةـ أـقـبـحـ مـنـ هـذـهـ؟ـ فـالـحـاـصـلـ أـنـ الـكـرـنـيـتـيـةـ اـشـتـملـتـ عـلـىـ مـفـاسـدـ كـلـ مـنـهـاـ مـحـقـقـ فـتـعـنـ القـولـ بـحـرـمـتـهـاـ،ـ وـجـلـبـ النـصـوصـ الشـاهـدـةـ لـذـلـكـ مـنـ الشـرـيـعـةـ لـأـتـعـوزـ الـبـصـيرـ.ـ وـقدـ ذـكـرـ الـعـلـامـ الـحـاـفـظـ الـقـسـطـلـانـيـ فـيـ تـفـسـيرـ سـوـرـةـ النـسـاءـ مـنـ الـجـامـعـ الصـحـيـعـ عـنـ دـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ وـلـأـ جـنـبـأـعـلـيـكـمـ إـنـ كـانـ يـكـمـ أـذـكـىـ مـنـ مـطـلـيـ أـوـ كـنـثـمـ مـرـضـيـ أـنـ تـصـعـبـ أـشـلـختـكـمـ وـمـدـدـواـ جـذـرـكـمـ»ـ [الـنـسـاءـ:ـ 102]ـ مـاـ نـصـهـ:ـ «ـدـلـ عـلـىـ وـجـوبـ الـحـذـرـ مـنـ جـمـيعـ الـمـضـارـ الـمـظـنـونـةـ وـمـنـ ثـمـ عـلـمـ أـنـ الـعـلـاجـ بـالـدـوـاءـ وـالـاحـتـرـازـ عـنـ الـوـبـاءـ وـالـتـحـرـزـ عـنـ الـجـلوـسـ تـحـتـ الـجـدـارـ الـمـائـلـ وـاجـبـ»ـ اـهــ.ـ وـهـوـ يـقـتـضـيـ بـظـاهـرـهـ أـنـ الـاحـتـرـازـ عـنـ الـوـبـاءـ وـاجـبـ بـأـيـ وـجـهـ كـانـ،ـ وـلـاـ يـخـفـيـ أـنـهـ يـتـعـيـنـ تـقـيـيـدـهـ بـالـوـجـهـ الـذـيـ لـيـسـ فـيـ مـفـسـدـةـ شـرـعـيـةـ،ـ كـعـدـ الـقـدـومـ عـلـىـ الـأـرـضـ الـتـيـ بـهـ الـوـبـاءـ وـنـحـوـ ذـلـكـ مـاـ وـرـدـتـ بـهـ السـنـةـ وـلـاـ تـأـبـاهـ قـوـاعـدـهـ الـشـرـيـعـةـ كـبـعـضـ الـعـلاـجـاتـ الـمـسـتـعـمـلـةـ فـيـ إـيـانـهـ الـمـنـقـولـةـ عـنـ أـئـمـةـ الـطـبـ،ـ أـمـاـ بـالـوـجـهـ الـذـيـ يـشـتـملـ عـلـىـ مـفـسـدـةـ أـوـ مـفـاسـدـ كـهـذـهـ الـكـرـنـيـتـيـةـ فـلـاـ.ـ هـذـاـ مـاـ تـحرـرـ فـيـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

وـلـمـ وـقـفـ عـلـىـ هـذـاـ الـكـلـامـ أـخـنـوـنـاـ فـيـ اللـهـ الـعـلـامـ الـأـسـتـاذـ أـبـوـ مـحـمـدـ عـبدـ اللـهـ بـنـ الـهـاشـمـيـ أـبـنـ خـضـرـاءـ السـلـاوـيـ وـهـوـ الـيـوـمـ قـاضـيـ حـضـرـةـ مـرـاـكـشـ كـتـبـ إـلـيـ مـاـ نـصـهـ:ـ «ـوـأـمـاـ حـكـمـ الـكـرـنـيـتـيـةـ فـهـوـ مـاـ ذـكـرـتـ مـنـ الـحـظـرـ وـبـهـ أـقـولـ لـمـاـ فـيـ مـنـ الفـرـارـ مـنـ الـقـضـاءـ مـعـ الـمـفـاسـدـ الـعـظـيـمـةـ الـتـيـ لـاـ تـفـيـ بـهـ مـصـلـحتـهـاـ عـلـىـ فـرـضـ تـحـقـقـهـاـ أـوـ غـلـبـهـ ظـنـ حـصـولـهـاـ سـيـماـ وـقـدـ اـنـتـفـيـاـ بـعـدـ الـتـجـرـيـةـ الـمـتـكـرـرـةـ فـيـ الـجـهـاتـ الـمـتـعـدـدـةـ،ـ وـلـاـ يـخـالـفـ فـيـ هـذـاـ الـحـكـمـ إـلـاـ مـكـابـرـ مـتـبـعـ لـلـهـوـيـ فـمـاـذـاـ بـعـدـ الـحـقـ إـلـاـ الـضـلالـ»ـ ثـمـ جـلـبـ حـفـظـهـ اللـهـ مـنـ النـصـوصـ مـاـ يـشـهـدـ لـذـلـكـ،ـ تـرـكـتـاهـاـ اـخـتـصارـاـ وـالـلـهـ تـعـالـىـ الـمـوـقـعـ بـمـنـهـ.

وفاة المنصور رحمه الله

كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع إلى مراكش، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص إلى أن دخلت سنة اثنى عشرة وألف فانتشر الوباء في بلاد الغرب أيضاً فكان مصاب المنصور به على ما ذكره.

قال صاحب الأصلية وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلبي: «كنا نسمع أن السلطان المنصور إذا خرج من مراكش قاصداً مدينة فاس لا يرجع إلى مراكش، وذاع هذا الخبر في الناس قبل نزوله فكان الأمر كذلك، ثم لا أدرى من أين للناس بذلك، هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الأشبه والله أعلم» قال: «ومن هذا ما ذكره بعضهم أيضاً لكن بعد الواقع والتزول، أن دخول رايات أبي العباس المنصور في حياته للسودان واستيلاه على سلطانها سكتة في دار إمارته كاغو مع تبكتور وأعمالها، كل ذلك من إمارات خروج الإمام المهدي القاطعي؛ وكذلك الوباء المنتشر في هذه الأعوام وكثرة الهرج والغلاء في سائر البلاد حتى الآن، وبقي من إمارات خروجه فيما نسمع فتح وهران إما على يده أو ياذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الأمر» اهـ.

وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدي عميرة يوم الأربعاء حادي عشر ربيع النبوى سنة اثنى عشرة وألف، ودخل إلى ملره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتل بها بعد الغروب وتوفي هنالك ليلة الاثنين الموالي لثاريخه، ودفن بيازاء مقصورة الجامع الأعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور، وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلوة مفتى فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار.

قال اليفرنى: «كانت وفاة المنصور بالوباء» وقال الشيخ أبو محمد عبد

الله بن يعقوب السملالي في شرحه لجامع شامل بهرام: «كان بالمغرب وباء استطال به من سنة سبع إلى سنة ست عشرة ألف، وعم سهل المغرب وجبله حتى أفقى أكثر الخلق ومات به جمع من الأعيان، وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله» ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره. قال اليفرنى: «وبه تعلم أن ما شاع على الألسنة من أن المنصور سمه ولده زيدان بإشارة من أمه الشبانية في باكور أوائل ظهوره، وقطع عنه الأطباء إلى أن هلك، وأن المنصور لما أحس بذلك قال: استعجلتها يا زيدان لا هناك الله بها؛ أو كلاماً هذا معناه»: قالوا: ويسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية، فإنه انهزم في زهاء سبع وعشرين معركة كلها كذب لا أصل له، لأن المنصور طعن بالولباء ولم يذكر أحد من يوثق به ما شاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة» اهـ. ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه إلى مواكبش فدفن بها في قبور الأشراف قبلي جامع المنصور من القصبة، وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيل، وما نقش على رخامة قبره هذه الآيات:

هذا ضريح من غدت	به المعالي تفتخر
أحمد منصور اللوا	لكل مجد مبتكر
يارحمة الله اسرعي	بكل نعمى تستمر
ويسكري الرمس بما	من رضاه من هم
وطيببي ثراه من	ندى ذكره المعطر
وافق تاريخ الوفا	ة دون تفنيه ذكر
من عند صدق داره	عند ملائك مقتدر

بقية أخبار المنصور وبعض سيرته

كان المنصور رحمة الله حسن السياسة حازماً يقطأ مشارراً في مهمات الأمور، وكان قد اتخذ يوم الأربعاء للمشورة، وسماء يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطاردون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور وعظيم النوازل؛ وهنالك يظهر شكایته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السلطان، قالوا: ومن حزمه أنه كان متطلعاً لأخبار النواحي بعثاً عنها، غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب، ويقول: «كل شيء يقبل التأخير إلا مجاوبة العمال عن رسائلهم». وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم إلا في أوقات مخصوصة.

قال الفشتالي: «ولقد كنا بالباب يوماً - يعني عشر الكتاب - قبل أن يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي بأن ولدأ له في النزع فلم يملك نفسه أن ذهب إلى داره، فخرج المنصور على أثره فسأل عنه، فقيل إنه ذهب إلى داره، فاستشاط غضباً ويعث إليه فجيء به مزعجاً، وما شككنا في عقوبته، فلما مثل بين يديه قال له: «ما الذي ذهب بك؟» فذكر له أمر ولده وأنه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طيب، فرق له وقال: «إن أمراض الصبيان قلما ينجع فيها إلا طب العجائز، ولا كعجائز دارنا فابعث من يسائلهن».

ومن حزمه أنه اخترع أشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد أن لا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصيير الكتاب مغلقاً، فإذا سقط وقع في يد عدو أو غيره لا يدرى ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه؛ فكان إذا جهز أحد أولاده ناوله خططاً من تلك الخطوط يفك بها رسائله إليه ويكتب عنوانه كذلك.

ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرق فكان يكتب به علماء المشرق كتابة كأحسن ما يوجد في خط المغارقة، ومما وقع له في ذلك: أنه بعث بطاقة

بخط يده على طريقة أهل المشرق لكتابه أبي عبد الله بن عيسى يستدعي منه كتاباً، فيبعث ابن عيسى إليه ويbeth معه بهذين البيتين:

سقنتي كؤس السرور دهاقاً خطوط أتنى في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحراً فجاءت إليه من المشرق
وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف
على الرعية أموالاً طائلة يلزمهم بأدائها، وزاد الأمر على ما كان عليه في عهد
أبيه حسبما مر، وكانت الرعية تشتكى ذلك منه ونالها إجحاف منه ومن
عماله، وكان غير متوقف في الدماء ولا هياب للحقيقة فيها. قال اليفرني:
«وتتبع ما وقع في ذلك ينافق المقصود من الإغضاء عن العورات والستر
على الفضائح، وقد المعنا لك بما يكون دالاً على ما وراءه». وذكر أن بعض
عمال المنصور عدا على امرأة من دكالة فأخذ منها أموالاً فقدمت المرأة على
المنصور بمراياش تشكوه ما نالها من عامله، فلم يشكها ولا كشف ظلامتها
فخرجت إلى أولادها بالباب وقالت لهم: «انصرفوا فإني كنت أظن أن رأس
العين صافية فإذا بها مكدرة فلذا تقدرت مصارفها».

ويحكى أن الفقيه القاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي قد سافر في
جمع من فقهاء فاس وأعيانها إلى مراكش بقصد العيد مع المنصور كما هي
العادة، فمروا في طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلكوا في سلسلة
واحدة، وفيهم امرأة أخذها الطلاق وهي في كرب المخاص، فرأوا من ذلك
ما أهملهم وأحزنهم؛ فبقي ذلك في نفس القاضي، فلما جلس إلى المنصور
ذكره له وأظهر الشكایة منه، فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك
 أيامًا، ثم إن القاضي تلطّف في القول وأظهر التوبية مما صدر منه وعدها
بأدلة، فقال له المنصور: «لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك
مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة، فإن أهل المغرب مجانيين مارستانهم هي
السلام والأغلال».

ولقد ورد القاضي المذكور على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء
فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب

الأغاني من أهل فاس، وقد كانوا وفدو أيضاً على المنصور على سبيل العادة، فأخرج بعضهم شابة من الإبريز مرصعة أعطاء إياها المنصور، وبعضهم قال: أعطياني كذا، وقال الآخر: أجازني بكذا؛ مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء، فقال القاضي: «لمن بلغت فاساً لأردن أولادي إلى صنعه الموسيقى، فإن صنعة العلم كاسدة، ولو لا أن الموسيقى هي العلم العزيز ما رجعنا مخففين، ورجع المغني بشابة الإبريز» فنقل إلى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه يسيراً من الملام.

وذكر أبو زيد في الفوائد ما صورته: «عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه إلى المنصور، فقال له: «كم تساوي ضياعتك؟» قال: «سبعمائة أوقية» قال: «خذها وقل لخالي الموعد يبني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان» فرجم صاحب الضيعة وأبلغ إلى العامل كلام المنصور، فأمسك برأسه ساعة ثم قال له: «الحق بضياعتك» وغرم له كل ما أكل منها» اهـ.

وقال في المناهل: «كان للمنصور مصانع اخترعها ومآثر خلفها منها: المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس، أحدهما خارج باب عجيبة، والأخر قبالته بباب الفتوح؛ وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستيون، وهو ما من الإنفاق بحث لا يعرف قدرهما إلا من وقف عليهما، وكان الشروع في بنائهما يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وتسعين. ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بغير العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح، وهو أيضاً في نهاية الوداوة والحسن: ومن ذلك معاصر السكر فإنه أحدهما بعراشن وببلاد حاجة وشوشة. قال الفشتالي: «وكان ابتدأ ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر في أيامه بالبلاد المغاربية حتى لم تكن له قيمة» وقد تقدم أنه كان يشتري الرخام من النصارى بالسكر؛ ومن مآثره النبيلة العظمى مع كرسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور، وقد تقدم الخبر عنها. وقال ابن القاضي في «المتنقى المقصورة»: «إن اللباس المسمى بالمنصورية - وهو لباس من الملف - لم يكن مستعملًا قبله، وهو

أول من اخترعه وأضيف إليه فقيل: المنصورية».

وكان في ملة المنصور من الأحداث أنه:

في سنة سبع وثمانين وتسعمائة وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول، قال في المرأة: «لما انتهب الناس غنيمة وادي المخازن كان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ». وفي هذه السنة أيضاً أصحاب الناس في بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه، وكان الرجل لا يزال يصل إلى أن تفيس نفسه فسمى العامة تلك السنة كحبكحة.

وفي سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو التعيم رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة إلى جنوة من بلاد الفرنج، كان أبوه نصرانياً وأمه يهودية؛ وسبب إسلام والده ما حكاه أبو العباس الأندلسي في رحلته: أنه كان له فرس بيده جنوة فانطلق ليلاً ودخل الكنيسة العظمى ورأت فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السادة ولا غيرهم، ثم يادر ياخراج الفرس؛ ولما أصبح أهل الكنيسة ورأت الروث قالوا: «إن المسيح جاء البلورحة على فرسه إلى الكنيسة ورأت فيها» فاهتزت البلد لذلك وتنافس النصارى في شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بماء جزيل، فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر إلى بلاد الإسلام فنزل برياط الفتح من أرض ملا يوجد هنالك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبي النعيم، فنشأ مثلاً في العلم والولاية ومحبة النبي ﷺ. وكان رضي الله عنه يقول: «خرجت من بين فرش ودم»؛ أخذ الطريقة عن أبي محمد الغزواني وقدم عليه مراكب ثم عاد إلى قاس قمات بها في السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح.

وفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ العلامة الإمام أبو العباس أحمد بن علي المنجور، كان متبحراً في العلوم خصوصاً أصول الفقه، أخذ عن اليستتي وأبي زيد سقين العاصمي وأبي الحسن بن هارون وأبي مالك الواشريسي وغيرهم.

وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ أبو الشناء الشباوي دفين جبل أمركو من بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكني بأبي الشناء لأن الناس قحطوا ولجؤوا إليه فسقوا في الحين، وهو من أصحاب الشيخ الغزواني. ويقال: ما لقيه إلا مرة بقبيلتهما الشاوية فعine ومكنه فهام على وجهه وكان من أمره ما كان.

وفي ثامن عشر ربيع الثاني سنة ثلاث وألف توفي القاضي أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدي ودفن بروضة الشيخ أبي زيد الهمزميري خارج باب مصمودة من عدوة فاس الأندلس وقد تقدمت بعض أخباره.

وفي سنة أربع وألف توفي الشيخ أبو الحسن علي بن منصور البوزيدى المعروف بأبي الشكاوى دفين شالة وبها كان سكانه، أخذ عن الشيخ المجدوب وأبي الرواين المحجوب وغيرهما، وأولاده يتسبون إلى عيسى بن إدريس الحسنى دفين آيت عتاب والله تعالى أعلم.

وفي سنة ست وألف توفي الشيخ الربانى أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري دفين تاستاوت من مشاهير الأولياء، كان أول نشأته بمنطقة الزيتون ثم خرج إلى البدية بعد أن صعبت عليه القراءة، ورأى النبي ﷺ فقال له: «إنك لن تقرأ ولكنك شيخ» فخرج إلى البدية وكان يظن أنه يكون من أشياخ القبائل حتى هبت عليه نفحة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبي عمرو القسطلي ورجع إلى باديه فبني مسجداً في الموضع الذي عين له شيخه لسكنه، فيقال إنه لما قيل له جعلت محرابه منحرفاً عن القبلة أشار بيده إلى جهة مكة فتزحزحت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شيء قدير وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الشرقي معاصرًا له فقيل له: إن الشيخ ابن مبارك قال: «أهل زماننا محسوبون علينا» فقال: «أشهدوا أنا من أهل زمان ابن مبارك». وفي هذه السنة أيضاً كان الطاعرن العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلول المغرب واستطاع فيها ومات به جمع من الأعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور.

وفي سنة تسع وألف في جمادى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس، ثم

في شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الأول تهدمت منه الدور والحوانيت، وتهدم سد الوادي بفاس على وثاقته وإحكامه، وهذا السد هو الذي كان جده السلطان أبو العباس أحمد الوطاسي، ثم جده المنصور في هذه المرة من أحباب القرقوين.

وفي سنة عشر وألف توفي الشيخ العارف بالله الرياني أبي عبد الله، ويقال أبو عبيد محمد (فتحا) الشرقي ابن الولي الصالح أبي القاسم الزعري الجابري ثم الرشمي^(١)، هكذا نسبة صاحب المرأة وغيره، ورفع أبو علي المعداني في كتابه «الروض الفاتح» نسبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبي عبد الله محمد الصالح بن المعطي ما نصه: «إن الشيخ سيدي محمد الشرقي لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما عثرنا عليه، أما بنو أخيه وبينه وحفيده فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواتر نقلها عنهم وكتبت في إجازاتهم وكذا في تملّكتهم» اهـ وهذا الشيخ - أعني أبي عبد الله الشرقي - كان من أكابر أهل وقته، يقال إنه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الأولياء، ويعتبر إليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته، واتفقت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على أن وفده عليه زائراً ومدحه بقصيدة ذكر بعضها اليفرني في الصفو، وله مع أبي المحاسن الفاسي مراسلات ومواصلات، ووقع بينهما كلام طويل انظر «ابتهاج القلوب»؛ أخذ رضي الله عنه عن والده عن الشيخ التابع واعتمد على الشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن عمرو المختارى من أحوال مكتنasa، وأخذ أيضاً عن ابن مبارك الزعري

(١) وفي (نشر المثاني) عن الشيخ أبي عبد الله المستاوي في نسب الشيخ المذكور السميري هكذا بلفظ التصغير قال وأولاد سمير بالتصغير يتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي تقييد لمؤلف الممتنع: ما نصه: (هو من بنى جابر ثم من وردية ثم من الرشمة ثم من أولاد بحر ثم من أولاد سمير وكلهم يتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه) اهـ من خط مؤلفه.

وأبي محمد بن ساسي، وتوفي أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجعیدان وقبره شهير نفعنا الله به ويسائر أهل الله.

تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس
وأوله:

الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمة الله تعالى.

فهرس الموضوعات

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليائهم وتحقيق نسبهم . 3.....
الخبر عن دولة الأمير أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وبيعته والسبب فيها .. 6.....
أول نائبة فرضت في دولة السعديين 8.....
أخبار الأمير أبي عبد الله القائم في الجهاد وما هي الله له من النصر فيه .. 12.....
عقد الأمير أبي عبد الله القائم ولادة العهد لابنه أبي العباس الأعرج رحمهما الله تعالى .. 13.....
انتقال الأمير أبي عبد الله القائم إلى آفغال من بلاد حاجة ووفاته بها رحمة الله .. 13.....
الخبر عن دولة السلطان أبي العباس الأعرج ابن الأمير أبي عبد الله القائم رحمة الله .. 14.....
دخول السلطان أبي العباس الأعرج مراكش واستيلاؤه عليها .. 15.....
نقل الشيخ الجزوئي رضي الله عنه من مدفنه بأفغال إلى مراكش والسبب في ذلك .. 15.....
مجيء السلطان أبي عبد الله الوطاسي إلى مراكش وحصاره للسلطان الأعرج بها ثم إفلاعه عنها .. 16.....
خبر آسفى والغور .. 16.....
حدوث النفرة بين الآخرين السلطان أبي العباس الأعرج وزيره أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك .. 17.....
أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس وما كان منه .. 18.....
الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي المعروف بالشيخ ابن الأمير أبي عبد الله القائم بأمر الله .. 19.....
فتح حصن فونتي وأسفى وأزمور وما قيل في ذلك بناء حصن آكادير .. 20.....

- استيلاء السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ علي مراكش وتجدد البيعة له بها 21
- نهوض السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الحرب ببني وطاس واستيلاؤه 21
- على مكناسة وما اتفق له في ذلك 21
- حصار السلطان أبي عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد 22
- الوانشريسي رحمة الله 22
- استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ علي فاس وقبضه الوطاسيين وتغريبيهم 24
- إلى مراكش 24
- نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى تلمسان واستيلاؤه عليها 25
- امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك 26
- وفادة الإمام أبي عبد الله الخروبي من جانب دولة الترك في شأن قسم 27
- البلاد وتحديدها 27
- قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش الترك واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ 28
- عنها 28
- عود السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها 28
- مقتل الفقيهين أبي محمد الرزاق وأبي علي حرزو ز والسبب في ذلك 29
- ترتيب السلطان أبي عبد الله الشيخ أمر دولته وما قيل في ذلك 30
- بناء جسري وادبي سبو وأم الريبع 30
- وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة 30
- مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك 31
- قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم للسلطان 32
- أبي عبد الله الشيخ رحمة الله 32
- بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته 35
- الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان 38
- محمد الشيخ رحمة الله 38
- مجيء حسن بن خير الدين التركي إلى فاس ورجوعه منهزاً عنها 39
- بناء جامع المؤاسين بحضورة مراكش والبركة المتصلة به والممارستان وغير 39

ذلك	39
فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها	41
حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة	42
وفاة السلطان الغالب بالله علي الشیخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه	47
وفاة الشیخ أبي عمرو القسطلی دفین مراكش رضي الله عنه	48
استیلاء النصاری علی حجر بادیس والسبب في ذلك	49
فتنة الفقیہ أبي عبد الله الأندلسی ومقتله	50
ظهور بدعة الشراقة من الطائفة الیوسفیة وما قيل فيهم	50
احتیال النصاری بمکیدة البارود بجامع المنصور من مراكش وما وقی الله تعالى من شرها	52
وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله	52
بقیة أخبار السلطان الغالب بالله وسیرته	53
الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن السلطان الغالب بالله رحمه الله	57
الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن محمد الشیخ وأولیة أمره وما له	59
مجيء السلطان أبي مروان عبد الملك بن الشیخ السعدي بعسكر الترك واستیلاوہ علی المغرب	61
استیلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم على حضرة فاس وما يتبع ذلك	64
نهوض السلطان أبي مروان إلى مراكش واستیلاوہ عليها وفرار ابن أخيه إلى السوس وما نشأ عن ذلك	65
استخلاف السلطان أبي مروان لأخيه أبي العباس أحمد علي فاس وأعمالها	66
ظهور أبي عبد الله المتوكل بالسوس ومجئه إلى مراكش واستیلاوہ عليها	67
الغزوة الكبری بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها	69
بقیة أخبار السلطان أبي مروان وسیرته	86
وفاة الشیخ عبد الله بن ساسي	87

وفاة الشيخ عبد الله الهبطي	٨٧
وفاة الشيخ أحمد بن موسى	٨٨
وفاة الشيخ عبد الرحمن المجدوب	٨٨
وفاة الشيخ عبد الله بن حسين دفين تامصلوحت	٨٨
الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف باليذهبي وأوليه ونشأته	٨٩
هدية الإصبيان والبرتغال للمنصور السعدي	٩١
عقد المنصور ولادة العهد لابنه محمد الشيخ المدعا المؤمن	٩٣
ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب في ذلك	٩٤
حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني وتلافي المنصور لذلك ..	٩٥
إيقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك	٩٧
استيلاء المنصور على بلاد الصحراء تيكوارين وتوات وغيرهما	٩٨
تلخيص القول في سودان المغرب والإشارة إلى ممالكهم ودولهم من لدن الفتح الإسلامي إلى هذا التاريخ	٩٩
وصول هدية صاحب برنو إلى المنصور بحضوره فاس وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته	١٠٣
بعث المنصور رسوله بالدعوة إلى آل سكينة وما دار بينهم في ذلك	١١١
مفاوضات المنصور الملا من أصحابه في غزو آل سكينة وما دار بينهم في ذلك	١١٢
استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم وتلمنده لهم	١١٥
تجدد المنصور ولادة العهد لابنه المؤمن وما وقع في ذلك	١١٦
ثورة الحاج قرقوش ببلاد غماره ومقتله	١١٧
بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرستها الله	١١٧
غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها إسحاق سكبة رحمة الله ..	١٢١
وفاة أم المنصور الحرة مسعود الوزكيتية رحمها الله	١٢٦
حكم شرب الدخان	١٢٦
نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك	١٢٩

131	حكم استرقاق أهل السودان
134	بناء قصر البديع بحضور مراكش حرسها الله
145	ثورة الناصر ابن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله
151	ذكر احتفال المنصور بالمولود الكريم واعتنائه بسائر الأعياد
163	ذكر سيرة المنصور في ترتيب جيشه وحالات أسفاره
	انتقاد ولی العهد محمد الشیخ المأمون على أبيه المنصور وما آل إليه أمره في ذلك
169	وفاة الشیخ أبي الشتاء رحمة الله
183	حكم الكرنتينة
186	وفاة المنصور رحمة الله
188	بقية أخبار المنصور وبعض سيرته
190	البرجان المعروفان بالبستيون بفاس
191	وفاة الشیخ أبي النعيم الجنوی
191	وفاة الشیخ أبي العباس المنجور
192	وفاة القاضی أبي محمد عبد الواحد الحمیدی
192	وفاة الشیخ أبي الحسن البوزیدی المعروف بأبی الشکاوی
192	وفاة الشیخ محمد بن مبارك الرعیری
193	وفاة الشیخ أبي عبید الشرقی

فهرس الأعلام والقبائل

- أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي .102
 أبو إسحاق إبراهيم السفياني 169.
 أبو إسحاق التونسي 40.
 أبو إسحاق الطوبيجن 101.
 أبو البقاء عبد الوارد الباصلوفي 51 - .87
 أبو بكر بن عمر اللمنوني 100 - 114.
 أبو تمام 122.
 أبو حامد الغزالى 132.
 أبو الحجاج التلidi 87.
 أبو الحسن بن المنصور السعدي 117.
 أبو الحسن بن أبي بكر آزناك العجاجي 37 - 34
 أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني 37 - 34
 أبو الحسن علي بن أبي طالب 74.
 أبو الحسن علي بن أحمد الخصاقي 37.
 أبو الحسن علي بن أحمد المسفوي 152.
 أبو الحسن علي بن سليمان التاملي 167.
 أبو الحسن علي بن عبد الله 51.
 أبو الحسن علي بن عثمان التاملي 36 - .87

- حرف (ا)**
- آل آقية 130.
 آل سكبة 101 - 102 - 111.
 آل عثمان 97.
 أبوريز 164.
 ابن الآبار 144.
 ابن بطوطة 39.
 ابن تودة 54.
 ابن حجر 36.
 ابن حزم الظاهري 50.
 ابن حسين 54.
 ابن الخطيب 30.
 ابن خلدون 22 - 133.
 ابن خلكان 102.
 ابن سيناء 40.
 ابن شقراء 54 - 58 - 64.
 ابن عباد 75.
 ابن عباس 130.
 ابن عبد السلام 5.
 ابن عبد الله 50.
 ابن عرفة 5.
 ابن غانية 113.
 ابن النحاس 120.
 ابن اليسع 143.

- أبو الحسن علي بن محمد التامجرولي .153
 أبو السرور عياد السوسي .53
 أبو سليمان داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ .94
 أبو الشتاء الشاوي - محمد بن موسى - .192 - 175
 أبو العباس أحمد الأعرج بن أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله السعدي .9 - 10 - 11 - 12 - 13 - 14 - .52 - 37 - 34 - 29 - 18 - 17 - 16 - 15
 أبو العباس أحمد آفغاني .165
 أبو العباس أحمد بابا السوداني .103 - .129 - 132 - 133
 أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي .146
 أبو العباس أحمد بن الحداد العمري .98
 أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغى .90
 أبو العباس أحمد بن عبد الله السلمجامي أبو محلب .186
 أبو العباس أحمد بن عبد الله الوزكيبي .117
 أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشيشي .99
 أبو العباس أحمد بن علي المنجور - 23 - .36 - 37 - 56 - 167 - 168 - 191 - .193
 أبو العباس أحمد بن موسى الجزولي السملالي .39 - 47 - 53 - 57 - 88
- أبو الحسن علي بن منصور اليوزيدي - أبو الشكاوى .146 - 192 - .156 - 152 - 141
 أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي .68 - .141
 أبو الحسن علي بن موسى بن راشد .41
 أبو الحسن علي بن هارون .35 - .191
 أبو الحسن المريني .39 - 101
 أبو حسون الوطاسي .25 - 28 - 29 - 32 - .97
 أبو حفص عمر بن الشيخ .121
 أبو حيان .75
 أبو داود .156
 أبو راشد يعقوب البدرى .35 - .81
 أبو الرواين المحجوب .24 - .192
 أبو زكرياء بن عبد الفتيم .116
 أبو زكرياء يحيى بن عبد الله الحارى .54
 أبو زيان المريني .30
 أبو زيد .190
 أبو زيد سقين العاصمي .191
 أبو زيد عبد الرحمن بن تودة العمرانى .42
 أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الصتهاجي - المجنوب - .88 - 90 - 92 - .192
 أبو زيد عبد الرحمن التامناري .90
 أبو زيد عبد الرحمن التلمسانى .53
 أبو زيد عبد الرحمن الفاسى .7

- | | |
|---|---|
| أبو عبد الله بن عيسى .189 .68 . | أبو العباس أحمد بن يحيى الهازلي .96 |
| أبو عبد الله الترغبي .47 . | أبو العباس أحمد بن يوسف الرشدي .88 - 51 - 50 |
| أبو عبد الله الخروبي .51 - 31 . | أبو العباس أحمد الزموري .56 |
| أبو عبد الله الشرفي .192 . | أبو العباس أحمد المنصور بالله بن أبي عبد الله الشيخ السعدي 4 - 5 - 31 - 65 - 63 - 62 - 61 - 59 - 58 - 34 |
| أبو عبد الله العوفي .57 . | - 84 - 82 - 80 - 79 - 68 - 67 - 66 |
| أبو عبد الله المزوار .38 . | - 95 - 94 - 93 - 92 - 91 - 89 - 86 |
| أبو عبد الله المتوكل على الله بن عبد الله الغالب بالله - المسلح 42 - 81 - 57 - 58 - 65 - 64 - 69 - 79 - 81 - 163 - 85 - 84 - 82 . | 104 - 103 - 102 - 99 - 98 - 97 - 96 |
| أبو عبد الله محمد الأندلسي .50 . | 115 - 114 - 113 - 112 - 111 - 105 - 121 - 120 - 119 - 118 - 117 - 116 - 129 - 126 - 125 - 124 - 123 - 122 - 143 - 142 - 135 - 134 - 131 - 130 - 153 - 152 - 151 - 147 - 146 - 145 - 167 - 166 - 165 - 164 - 163 - 154 - 177 - 176 - 175 - 170 - 169 - 168 - 189 - 188 - 187 - 186 - 183 - 178 - 193 - 191 - 190 . |
| أبو عبد الله محمد بن إبراهيم أبو شامة .23 . | أبو العباس أحمد التقسيس .119 |
| أبو عبد الله محمد بن يحيى .94 . | أبو العباس أحمد الوطاسي 17 - 22 - 193 . |
| أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري .115 . | أبو العباس الأندلسي .191 |
| أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن بن راشد .41 . | أبو العباس بن القاضي 6 - 8 - 17 - 14 - 8 - 20 - 39 - 52 - 39 - 19 - 86 - 69 - 58 - 20 - 19 - 190 - 146 - 119 - 118 . |
| أبو عبد الله محمد بن أبي عبد القادر السعدي .36 . | أبو العباس بن ودة العمرياني .96 |
| أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى .169 . | أبو العباس المقرى 4 . |
| أبو عبد الله محمد بن إدريس الجرازي .183 . | أبو عبد الله بن الأحمر 12 . |
| أبو عبد الله محمد بن بركة .98 . | |
| أبو عبد الله محمد بن الحسن - أبو الليف .120 . | |
| أبو عبد الله محمد بن حسن الأمغاري .53 . | |

- أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزوولي .34 - 15 - 14
- أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي زكرياء المالكي - كدار 90.
- أبو عبد الله محمد الطيب 92.
- أبو عبد الله محمد بن عبد القادر السعدي 55.
- أبو عبد الله محمد بن عذاري الأندلسي .142
- أبو عبد الله محمد بن عسكر 81.
- أبو عبد الله محمد بن علي بن ريسون .145
- أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي .188 - 152 - 119
- أبو عبد الله محمد بن علي الهازلي - الثانية 92 - 152.
- أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي .146
- أبو عبد الله محمد بن عمرو المختارى .193
- أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار 145 - 186.
- أبو عبد الله محمد بن مبارك الزعري .194 - 192
- أبو عبد الله محمد بن مبارك الأقاري 7.
- أبو عبد الله محمد البيرم 183.
- أبو عبد الله محمد الحران السعدي 37.
- أبو عبد الله محمد زين العابدين البكري .147
- أبو عبد الله محمد الشرقي 146.
- أبو عبد الله محمد الشبيخ السعدي -
- المهدي - بن أبي عبد الله القائم بأمر الله 9 - 10 - 11 - 13 - 17 - 18 - 21 - 22 - 30 - 29 - 28 - 26 - 25 - 24 - 22 - 52 - 37 - 35 - 34 - 33 - 32 - 31 - 98 - 97 - 90 - 79 - 78 - 70
- أبو عبد الله محمد الشبيخ المأمون بن المنصور 93 - 94 - 104 - 116 - 117 - 190 - 186 - 149 - 148 - 146 - 126
- أبو عبد الله محمد الصالح بن المعطي .193
- أبو عبد الله محمد العربي الفاسي 69.
- أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله السعدي 3 - 6 - 8 - 12 - 13 - 14 - 15 - 26 - 71
- أبو عبد الله محمد المناعي 183.
- أبو عبد الله مجاهد الهبتي 81.
- أبو عبد الله النيجي 51.
- أبو عبد الله الهمزيري 167.
- أبو عبد الله الوطاسي البرتغالي 8 - 9 - 10 - 11 - 12 - 16
- أبو عبد الله اليستني 37.
- أبو عثمان سعيد بن أبي بكر المشتراني .26
- أبو عثمان الهلالي الروذاني 167.
- أبو العلاء إدريس 108 - 110 - 111.
- أبو علي حرزوز المكتناسي 29.
- أبو علي حسن بن عيسى المصباحي 26.
- أبو علي الحسن بن محمد الشريف .183

- | | |
|--|---|
| أبو المحسن حسن بن أبي نعى .150
أبو المحسن يوسف الفاسي ٧٨ - ٨٠ -
. ١٩٣ - ١٢٥ - ٨٢ .
أبو محفوظ محرز بن خلف .٦٠ .
أبو محمد بن إبراهيم التامارتني .٥٤ .
أبو محمد بن ساسي .١٩٤ .
أبو محمد الخطاط .٥١ .
أبو محمد عبد القادر بن الشيخ السعدي .
. ٢٤ .
أبو محمد عبد القادر البرنوي .١٠٣ .
أبو محمد عبد الله بن حسين المغاربي .
. ٤٨ - ٨٨ .
أبو محمد عبد الله بن ساسي .٢٠ - ٨٧ .
أبو محمد عبد الله بن عمر المضفري .
. ٣٦ .
أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر
السجلامي .٤ - ٥ .
أبو محمد عبد الله بن محمد الجزوئي .
. ٨٩ .
أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسي .٥٥ .
أبو محمد عبد الله بن محمد بن
الهاشمي بن خضراء السلاوي .١٨٥ .
أبو محمد عبد الله بن يعقوب السعالي .
. ١٨٦ .
أبو محمد عبد الله الغالب .٣١ - ٣٤ -
. ٣٧ - ٥٠ - ٤٩ - ٤٧ - ٤٦ - ٤٢ -
. ٣٩ - ٣٨ - ٥٩ - ٥٨ - ٥٧ - ٥٤ -
. ٥٣ - ٥٢ - ٥١ .
. ١٦٣ - ١٤٥ - ٩٠ - ٨٨ - ٦١ .
أبو محمد عبد الله الكوش .٢٠ - ٢٦ .
أبو محمد عبد الله الهبطي .٨٧ . | أبو علي القوري .٨٣ .
أبو علي اليوسي .١٤٦ .
أبو عمران موسى بن أبي جمدى
العمري .٣٧ .
أبو عمران موسى بن مخلوف
الكنسوسي .٥٧ .
أبو عمرو الوجانى .٣٤ .
أبو عمرو القسطلنى .٣٤ - ٥٤ - ٤٨ -
. ١٩٢ .
أبو فارس بن المنصور السعدي .
. ١٧٦ - ١٧٣ .
أبو فارس عبد العزيز التابع .٨٨ .
أبو فارس عبد العزيز الدباغ .١٠٣ .
أبو فارس عبد العزيز الفشاتي .٩٠ - ٩١ .
. ١١٩ - ١١٧ - ١١٦ - ١١٢ - ١٠٦ -
. ٩٣ .
. ١٤١ - ١٤٠ - ١٣٦ - ١٢٥ - ١٢٤ -
. ١٦٦ - ١٦٥ - ١٥٢ - ١٥١ - ١٤٣ -
. ١٩٠ - ١٨٨ .
أبو فارس عبد العزيز الوزكيٰ .٦٦ - ٦٨ .
أبو فراس الحمداني .٦٨ .
أبو الفرج بن الجوزي .٤٠ .
أبو الفضل القاضي عياض .٧٢ - ٧٧ .
أبو القاسم بن علي الشاطبي .٥٧ - ٩٦ -
. ١٥٤ - ١١٦ .
أبو القاسم الزعرى .١٩٣ .
أبو مالك عبد الواحد بن أحمد
الحميدي .٤٦ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٦٥ -
. ١٨٦ - ١٦٨ - ١٦٧ .
أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف
السجلاسي .١١١ - ١٥٢ - ١٥٥ - ١٦٦ .
أبو مالك الوانشريسي .١٩١ . |
|--|---|

- | | |
|--|--|
| .أحمد بن عمر بن موسى ٨٣.
.أحمد بن محمد الصغير ١٨٠.
.أحمد بن محمد بن موسى ٥٤ - ١٨١.
.أحمد الهبطي ٥٧.
.أحمد اليسني ٣٦.
.أحمر ١٧٣.
إسماعيل بن الشريف ١٤٣.
إسحاق بن داود ١٠٢ - ١١١.
إسحاق سكية ١١٢ - ١٢٢ - ١٢٣.
الإصينيون ٥٩.
الإصينيليون ٨٥.
الإصطنبوليون ٨٥.
الأروام ١١٣.
الزيدانيون ٥.
إعراب المغرب ١٣٢.
الآغا ٦٣.
الإفرنج الفرنج ١٦ - ٦٩ - ٧٥ - ١١٣ - ١٨٣.
الألمان ٨٢.
الأنصار ١٠٨.
أهل أزمور ٤٤ - ٤٥.
أهل الأندلس ١٦٣ - ١٨٩.
أهل بربو ١٠٣.
أهل بلاد الهبط ١٢٠.
أهل البيت ٩٦.
أهل تونس ٥٩.
أهل الجزائر ٦٢ - ٦٣.
أهل درعة ٣ - ٩٥ - ١٧٥.
أهل درن ١٧٩.
أهل سجلماسة ٣. | أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدي ١٩٢.
أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الشريفي السجلماسي ٥٦.
أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي ٢٢ - ٢٣.
أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن علي الزقاق ٢٩.
أبو محمد النزواني ١٦ - ٨٧ - ١٩٢.
أبو محمد مؤمن بن الغازي ٨٩ - ٩٣.
أبو مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن أبي عبد الله الشيخ السعدي ٣١ - ٣٤ - ٣٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٧٩ - ٧٨ - ٧٢ - ٦٩ - ٦٧ - ٦٦ - ٦٥ - ٩٥ - ٨٩ - ٨٦ - ٨٤ - ٨٣ - ٨٢ - ٨٠ - ١٦٣ - ١٤٥.
أبو المعالى زيدان بن المنصور ٥٤.
أبو مهدي عيسى بن الحسن المصباحي ٥٨.
أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني ٥٣.
أبو ميمونة ٨٩.
أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي ١٩١ - ٦٥.
أبو الوليد بن رشد ٧٧.
أحمد بن الحسن الحفصي ٥٩ - ٦٠.
أحمد بن الحسن ١٨١.
أحمد بن حمو الدرعى ٥٨.
أحمد بن عبد الحق ١٧٤.
أحمد بن علي السوسي البوسعيدى ٧. |
|--|--|

.178 أولاد الشيخ أبي عمرو القسطلي 178. أولاد طلحة 170 - 171 - 181. أولاد عمران 64 - 173. أولاد القائد بركة 174. أولاد مطاع 90 - 173. أولاد التقسيس 120. أولاد يحيى بن خانم 174. حرف (ب) البابا 82. بابا حمو أكران 172. بابا عبد القادر 172. بابا عبد الله 172. بابا عبد الملك 182. بابا منصور 172. البشا جؤدن 121 - 122 - 123 - 163 - 164 - 164 - 163. البشا محمود 164 - 163. البخاري 23 - 97 - 90 - 77 - 36. بختيار 163. البرانس 145. البربر 94 - 100 - 134. البرتغال 6 - 16 - 13 - 12 - 11 - 10 - 9 - 88 - 85 - 84 - 82 - 81 - 78 - 69 - 42. البرتغاليون 19 - 20. البرزلي 75. بغا 163. برکات 7. بنو آقیت التکروريون 129.	.175 - 18 - 10 - 8 - 6 - 7 - 103 - 126 - 114 - 129 - 131. أهل السوس 29 - 74. أهل السودان 103 - 129. أهل الشام 74. أهل طرابلس 62. أهل العدوة 70 - 75. أهل غاتة 100 - 133 - 103. أهل غرناطة 54. أهل فاس 11 - 22 - 23 - 38 - 58 - 65. أهل القصر 78. أهل كانيم 103. أهل كنوا 103. أهل مالي 100 - 103. أهل مراكش 34 - 38 - 78 - 175. أهل المشرق 189. أهل المغرب 54 - 70 - 82 - 133 - 189. أهل مملكة كوكو 101. أولاد أبي راس 173. أولاد أبي السباع 87. أولاد أبي الليف 119 - 120. أولاد أبي محمد عبد الله بن سامي 178. أولاد أبي عزيز 173. أولاد جلول 79. أولاد حسين 174. أولاد الشيخ أبي البقاء خالد المصمودي 31. أولاد الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار
---	---

- | | |
|--|--|
| الحاج محمد سكبة .101 - 102
حاجة .13
حام بن نوح .99
الحبشة .108
الحران .25
حسن بن خير الدين التركي .25 - 39 - 59
الحسن بن قاسم .3
الحسن بن محمد الحفصي .59
الحسين العلخ .83
الحفصيون .59
حلية السعدية .4
الحنفية .77 - 76
حيدر باشا .60 | بنو أبي حفص .59.
بنو أمغار .88.
بنو حسن .98.
بنو صالح .100.
بنو صالح بن منصور الحميري .22.
بنو راشد .41 - 57.
بنو سعد بن بكر .4 - 6.
بنو العباس .109.
بنو عبد الواد .113.
بنو مرين .26 - 30 - 103 - 114.
بنو معقل .95.
بنو وطاس .32 - 31 - 28 - 24 - 10 - 7.
البليدروش .43.
بهرام .186.
بيلارباي .165. |
| حرف (خ) | |
| الخزندار .63
خير الدين باشا التركي .59
الخيزران .177
خلفاء بنى العباس .130 | ح
تاج الدين السبكي .55.
الترك - الأتراك .25 - 34 - 33 - 31 - 28
.64 - 63 - 54 - 49 - 43 - 42 - 39
- 130 - 114 - 97 - 95 - 88 - 85 - 65
.174 - 172 - 170 - 145
التكرورى .101. |
| حـرف (د) | |
| داود بن محمد .102
الدولاتي .62 - 63
دولة أبي حفص .61
دولة بنى زيان .25
الدولة الحفصية .103
الدولة السعدية .165
دولة السعديين .8 - 55
دولة الشرفاء .7
الدولة المرابية .97 - 101
الدولة الوطاسية .31 | حـرف (ت)
جراوة .68.
جرمون .64.
جسمة .7.
جلال الدين السيوطي .102. |
| حـرف (ج) | |
| الحاج فرقوش .117. | |

		حرف (ر)
		رضوان العلج .86.
السودان 99 - 111 - 112 - 114 .		رفاعة الطهطاوي .183.
سيدة الملك .182		رمضان العلج .86.
	الروافض .51.	
		الروم .77.
		الريكي .91 - 84.
	حرف (ز)	
		الزرهوني .54.
		زيدان بن أبي العباس أحمد الأعرج
		السعدي 3 - 12 - 18 .
		زيدان بن المنصور 116 - 117 - 130 -
		187 - 186 - 178 - 177 - 175 .
		الزيدانيون 9.
	حرف (س)	
		سبستيان 69 - 81 - 82 - 83 - 84 - 86 .
		.91
		سحابة الرحمانية 62 - 63.
		السعديون 3 - 4 - 5 - 6 - 24 - 30 - 31 .
		.43
		سعيد بن صالح 22.
		سعيد بن علي الحمادي 18.
		سعيد الرغالي 64.
		السفاح 109.
		سکیة 186.
		سلمان 162.
		سلیمان العثماني 31 - 32 - 33 - 34 .
		سلیمان بن سلیمان العثماني 34 - 59 - 61 .
	عبدة 173.	.101 - 62 - 85 - 63 -
	حرف (ط)	
طاهرة بنت المنصور السعدي 182.		
الطليان 82.		
الطلطي 22.		
	حرف (ع)	

- | | |
|--|---|
| السعدي .37
عمر بن الحسن أبو الليف .120
عمر بن الخطاب .193
عمر بن محمد بن عبيو .173
عمر بن محمد آقىت .130
عمرو الساف .15
عميرة .186
عيسى بن إدريس الحسني .192
عيسى بن مريم .106
حرف (ف)
فرنسا .92
فيليب الثاني .82 - 83 - 84 - 83
حرف (ق)
قاسم بن حسن .4
قاسم بن محمد .4
قاسم الزرهوني .30 - 57
قبائل الحوز .42
قبائل السوس .7 - 28 - 173
القبائل السوسية .12 - 18
قبائل المغرب .31
قبيلة زمور .79
قريش .108
حرف (ك)
كاغو .101
الكريني .174
حرف (ل)
لسان الدين بن الخطيب .162
لمم .133 | عبد الرحمن بن تودة .57
عبد الصادق بن ملوك .54
عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي .178
عبد الكبير بن أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله السعدي 9 - 11.
عبد الكريم بن الشيخ .54
عبد الكريم بن مؤمن العلوج الجنوبي .54 - 57
عبد الله بن حسين .100
عبد المؤمن بن أبي عبد الله محمد .59 - 37
عبد المؤمن بن علي .30 - 142 - 143
عبيد الله المهدى السعدي .22
عثمان بن أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي .37
العجم .163 - 76 - 76 - 116 - 163
العرب .50 - 50 - 95
عرب الودايا .95
العريفة بنت خجو .30
عزوز بن سعيد الوزكيتي .116
عقبة بن نافع الفهري .116
عقبة بن نافع الفهري .116
علوج .163 - 96 - 4 - 3 - 5
العلويون .60 - 4 - 5
على باشا .58
علي بن أبي بكر .83
علي بن مؤمن .173 - 171
عمار .163 - 74
عمر بن أبي عبد الله محمد الشيخ |
|--|---|

- المرابط الأندلسي .54
 المرابطون .134 - 113
 مراد بن سليم العثماني .91 - 92 - 96 - 97
 مريم السعدية .67
 المرينيون .113
 المسيح .191
 معاوية .74
 مسعود أتوادي .181
 مسعود بن مبارك .182
 المسعود بن الناصر .16 - 89
 مسعودة الوزكية .62 - 117 - 118 - 126
 مسعود الدوري .175
 مسعود الوصيف .179
 مسلم .72
 المصامدة .8
 مصطفى باشا .60
 مصطفى باي .163
 المثلثون .100 - 114 - 122
 المنابهة .173
 منازطة .101
 منسا سليمان .101
 منسا موسى بن أبي بكر .100 - 101
 المنصور بن أبي عامر .143
 منصور بن المزوار .172
 المنصور العباسي .109
 منصور النبيلي .176
 موسى بن أبي جمدى العمري .98
 موسى .133
 مولود المشاري .164

- لويز مارية .42 - 43 - 44 - 45 - 46 - 47
حروف (م)
 الماوردي .72
 ماري زاطة .101
 مالك .77
 المالكية .77
 مؤمن بن ملوك .174 - 177
 مؤمن بن منصور .180
 المتنبي .36
 محمد أبو طيبة .83
 محمد الأمين الدفتري .97
 محمد بن أبي القاسم .3
 محمد بن أحمد بن عيسى .57
 محمد بن الحسن الحفصي .60 - 61
 محمد (فتحا) بن الشريف .4
 محمد بن عبد الرحمن السجلماسي .57
 محمد بن عبد الرحمن الوردي .181
 محمد بن عبد القادر .150
 محمد بن علي الأنكريطي البملاي .18
 محمد بن عمر الشاوي .86
 محمد بن عيسى .86
 محمد بن الغالب بالله .49
 محمد بن موسى بن أبي بكر .179
 محمد الكبير .190
 محمد النفس الزكية .3 - 4
 محمود آفيت .121
 محمود باشا .123
 محى الدين بن عربي .144
 مخلوف بن صالح .14

- ولد إبراهيم بن الحداد .181
 الوطاسيون 12 - 16 - 21 - 24 - 29 .
 الوكيل .63
 ولی الدين ابن خلدون .133

حرف (ى)

- البستياني .191
 يحيى بن تافوت .10
 اليشكارية .32
 يعقوب الكانمي .102
 يعقوب المنصور الموحدى .102
 اليفرنى 3 - 5 - 7 - 12 - 25 - 30 - 31 .
 .39 - 40 - 41 - 49 - 54 - 143 - 144 .
 .145 - 165 - 166 - 169 - 187 - 193 .
 يوسف .182

- يوسف بن تاشفين 75 - 100 - 114 .
 اليوسفية .50
 يونس بن سليمان التاملي .58

- المهدي الفاطمي .186
 منيل 8 - 10 - 12 - 20 - 82 - 83 .
 الموحدون 113 - 134 - 142 .
 الميلودي .44

حرف (ن)

- النصارى 7 - 10 - 12 - 15 - 17 - 20 .
 .24 - 42 - 43 - 44 - 45 - 46 - 49 .
 .59 - 60 - 69 - 70 - 75 - 78 - 79 .
 .81 - 82 - 83 - 84 - 85 - 91 - 174 .
 .181 - 183 - 190 - 191 .
 الناصر بن الغالب .145 - 146 .
 ناصر بوشتوف .11 .
 النجليز .96

حرف (هـ)

- الهبطي .54
 هتاتة .15

حرف (وـ)

- ولد آصناك .54

فهرس الأماكن

	حرف (أ)
أسطنبول .٦٥ - .١٠٤	آزغار .٩٨
أفريقية .٢٢ - .٩٩	آزمور .٤٥ - .٤٤ - .٤٢ - .٢٠ - .١٩ - .١٧ - .١٢ - .١١ - .١٠
أقصى المغرب .١٢٥	آسفى .١٩ - .١٧ - .١٦ - .١٤ - .١٢ - .١١ - .١٠
الأندلس .١٤٣ - .١٤٣ - .١١٣ - .٦٤	آسيلا .١٤٥ - .١١٩ - .٧٨ - .٦٧ - .١٩ - .١٧ - .١٧
.١٦٥ - .١٦٤ - .١٦٣ - .١٥١	آغمات .١٦٧ - .١٦٦
اهرام القاهرة .١٣٥	آفال .١٨ - .١٤ - .١٣
حرف (ب)	آفة .٨ - .٧
باب تونس .٦٠	آكادير .٣٠ - .٢٠ - .١٢ - .١٠
باب الخميس بمراش .١٧٤	آكلکال .٣٣
باب الفتوح بفاس .٦٤ - .١٩٠	آيت عتاب .١٩٢
باب الشماعين - إحدى أبواب القرطبيين .٢٣	أبو عفية - بندلا .١٢
باب عجيبة بفاس .١٤٠	أبو غاصن .٥٨
باب مصودة بفاس .١٩٢	أرض التكرور .١٠٠
باديس .٣٩	أرض الحجاز .٣
باريس .١٨٣	أرض السودان .١٣٣ - .١١١
البحر المتوسط .٩٩ - .١٢٥	أرض الصحراء .٩٨
البدع .١٣٤ - .١٣٥ - .١٣٤ - .١٣٤ - .١٣٣ - .١٣٢	أرض المغرب .٣٠ - .٩٩ - .٨٣ - .١١٤
برج العيون .٤٩	أرض المغرب الأقصى .٦٣
برنو .٩٩ - .١٠٣ - .١٠٣ - .١١١	أرض التربة .٩٩
البريجة .٤٢	الأوربا .٨٤
البستون .٦٠	إسبانيا .٨٥ - .٨٢
بسط عبدة .١٠	أشبوة .٨٤ - .٨٢ - .٤٣ - .١٩
القرطبيين .٢٣	
بلاد آل سكبة .١٢٢	

تارودانت	8	بلاد الإفرنجية	135
	.167	بلاد برلن	125
تايساوت	.192	بلاد الترك	153
تايفلات	.51	بلاد تيكورارين	40
تايفالت	.175	بلاد درعة	126
تماسنا	.78 - .79	بلاد حاجة	10 - 135
تماصلوحت	.48 - .88	بلاد الروم	.135
تنسيفت	.94	بلاد السودان	99 - 100 - 101 - 102
تاهدارت	.80		.129 - .126 - .113 - .112 - .105
ترغة	.41	بلاد السوس	7 - .88
تعاونين	.84	البلاد السوسية	13 - .20 - 15
التكرور	.102 - .103 - .133	بلاد عبدة	.10
تلمسان	.4 - .25 - .31 - .34 - .36 - .37 - .59	بلاد الغرب	.186
تبكتو	.114 - .113 - .121 - .123 - .129 - .130 - .131	بلاد غمارة	.41 - .117 - .145
	.186 - .135	بلاد الفحص	.172
تونات	.98	بلاد فشالة	.175 - .192
تونس	.59	بلاد كوكو	.100
تيلسي	.8 - .12	البلاد المراكشية	.65
	.88	بلاد مصر	.99
تيكوارارين	.98 - .99 - .105 - .112	بلاد المغرب	.69 - .83 - .86 - .99 - .131
	.14	البلاد المغربية	.190
تيلمست	.14	بلاد النوبة	.125
تيبنرت	.68	بلاد الهبط	.41 - .7 - .117
حرف (ث)		البوغاز	.49
الثغر الهميطية	.49	بوغاز طنجة	.48
ثية الكلاوي	.121	بورباون	.179
حرف (ج)		حرف (ت)	
جامع ابن يوسف	.39	تاجمدارت	.7
جامع الإشراف	.39 - .41 - .186 - .187	قاتزا	.145
الجامعة الأعظم بتونس	.60	تادلا	.16 - .21 - .117 - .175

<p>دار الدبيبغ ١٧٤ درعنة ٦ - ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ٣٣ . . ١٩٠ - ١٢١ . ٥٨ - الدادع ٢٦ . دمنات ١٨٠ . الدوخ ١٧٥ . ديار الروم ٧٨ .</p> <p>حرف (ر)</p> <p>رباط الفتح ١٩١ . الركن ٦٤ . الرملة ٥٨ . الرميلة ١٦٥ . روضة السعديين ٣٥ . روضة الشيخ أبي زيد الهميري ١٩٢ . رومة ٤٤ - ٨٢ . رياض الزيتون ٥٥ .</p> <p>حرف (ز)</p> <p>الظاهرة ١٤٤ - ١٤٣ . الزهراء ١٣٥ - ١٧٧ . زوراء العراق ١٣٦ .</p> <p>حرف (س)</p> <p>ساحل طيط ٤٣ . سبتا ٣٦ - ٨٤ - ٤٨ - ٣٤ - ١٨ - ٥٩ - ٦١ - ٩٩ - ١٧٠ . سجلماسة ٣ - ١٨ - ١٠٣ - ٩٩ . سنای ٣٠ - ٦٥ - ٧٩ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٩ . سلا ١٨٣ . السودان ٩٩ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٢١ . . ١٣١ - ١٢٣ - ١٢٢ .</p>	<p>جامع القروين ١١٨ - ١٤٥ - ١٩٠ . جامع المنصور بمراكش ٣٥ - ٥٢ - ٧٧ . . ١٦٤ . ١٤٦ - الجاية . جبال السوس ٦٧ . جبل درن ١٠ - ٣٣ - ٦٨ . جبل سكسيوة ٩٤ - ٩٥ . جبل هوزالة ٩٥ . الجديدة ١٧ - ٤٣ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٤ . . ١٨٣ . الجزائر ٢٥ - ٢٨ - ٣٢ - ٣٤ - ٤٩ - ٥٩ - ٦٠ . . ٦١ - ٦٣ - ٨٨ - ٩١ - ٩٥ - ١٧٤ . . ٨٥ - جزيرة مالطة . جسر وادي أم الريح ١١٧ . جميدان ١٩٤ . جنان الصالحة ١٤٢ . . ١٩١ . حرف (ح)</p> <p>الحاجب ١٤٦ . الحجاز ٩ - ٣ - ١٠١ - ١٥٠ . حجر باديس ٧ - ٤٩ . حصن الفتح ١٩٠ . حصن فوتني ١٩ . حلق الوادي ٥٩ - ٦٠ . حمام المربني ٣٧ . حومة المواسين ٣٩ .</p> <p>حرف (خ)</p> <p>خدق الريحان ٦٥ . ختن الوادي ١٧٩ - ١٨١ .</p> <p>حرف (د)</p>
--	--

حرف (ف)

- فاس ٤ . ٢٥ - ٢٤ - ٢٢ - ١٢ - ١١ - ٩ - ٨ - ٤
 فاس الجديدة ٣٧ . ٣٦ - ٣٥ - ٣٤ - ٣٣ - ٣٠ - ٢٩ - ٢٨ - ٢٦
 فاس القديمة ٧٩ . ٦٨ - ٦٦ - ٦٤ - ٥٨ - ٥٧ - ٥٥
 فاس العتيقة ٩٧ . ٩٦ - ٩٤ - ٩١ - ٩٠ - ٨٩ - ٨٧ - ٨٦
 فاس الجديدة ١٢٠ . ١١٩ - ١١٨ - ١١٦ - ١٠٤ - ٩٨ -
 فاس القديمة ١٧٦ . ١٧١ - ١٧٠ - ١٦٦ - ١٤٦ - ١٢٦
 فونتى ٢٠ . ١٩٣ - ١٩٢ - ١٩٠
 فحص طنجة ٥٨ .

حرف (ق)

- قادس ٢٦ . ١٨٧ - ١٦٤ - ٥٢ - ٣٤ -
 القاهرة ١٣٥ .
 قبور الأشراف ٣٤ . ١٨٧ - ١٦٤ - ٥٢ - ٣٤
 القرويين ٩ . ١٩٣ .
 القدس ٥٩ . ٩٧ - ٩٦ - ٩١ - ٨٦ - ٦١ - ٥٩
 قشالة ٥٩ . ١٤٥ - ٩١ - ٦٠ - ٥٩
 القصبة بتونس ٦٠ .
 القصبة بفاس ١٠٤ .
 القصبة بمراكش ٥٢ . ١٨٧ - ٦٧ - ٦٠ - ٥٢
 القصر ٥٨ . ١٢٠ - ٨٤ - ٧٩ - ٧٨ - ٥٨
 القصر الكبير ٨٦ .
 قصر كاتمة ٨٠ .
 قلعة نكور ٢٢ .
 قنطرة عصماء ٥٨ .
 القبروان ٦٠ .

حرف (ك)

- كاغو ٩٩ . ١٨٦ - ١٢٣ - ١٢٢ - ١١٢ - ١١٢
 كانم ٩٩ . ١٠٢ .

السوس ٧ . ٦٦ - ٣٦ - ٣٣ - ١٩ - ١٣ - ١١ -
 السوس الأقصى ١٠ . ١٨٠ - ١٧٩ - ١٧٨ - ١٦٣ - ١١٧ - ٦٨ -
 . ١٨٣

السوس الأقصى ١٠ . ٢٠ .

حرف (ش)
 شالة ١٩٢ .
 الشام ١٣٥ .
 الشرق ٩٩ . ١٠٠ .
 شفشاون ٤١ . ٥٧ .
 شوشة ١٣٥ . ١٩٠ .

حرف (ص)
 الصحراء ٩٥ . ١١٤ - ١٠٠ -
 صعيد مصر ١٢٥ .
 صقلية ٦٠ .
 صوصو ٩٩ . ١٠٠ .

حرف (ط)
 طرابلس ٦٠ .
 طريق تاحضيشت ١٧٩ . ١٨٠ -
 طنجة ٧ . ٨٨ - ٨٣ - ٧٩ - ٧٨ - ٦٩ - ٦٨ - ٥٨ - ٥٧ .

حرف (ظ)
 ظهر الزاوية ١٧٨ .

حرف (ع)
 العدوة ٧٩ .
 عدوة فاس الأندلس ١٩٢ .
 العرائش ٦٧ . ١٩٠ - ٨٤ - ٨٣ - ٧٩ - ٨٢ - ٨٠ .

حرف (غ)
 غاتة ٩٩ . ١٠٠ .
 الغرب ١٠٠ . ١٧٥ .

- .192 - 191 - 187 - 186 - 171 - 151
- المغرب الأقصى .49 - 31
- المغرب الأوسط .172 - 31 - 24
- مكة .9 - 150 - 192
- مكناة .21 - 26 - 79 - 88 - 117 - 176
- مليانة .50
- مملكة بربون .103 - 104 - 105
- مملكة كاغو .111
- منار القرفرين .38

حرف (ن)

- نهر سبر .65
- نهر ورغة .175
- الليل .123 - 99 - 133

حرف (و)

- وادي أم الريبع .30
- وادي تانسيفت .121
- وادي سبو .30
- وادي شراط .65
- وادي سلف .25
- وادي البن .39

- وادي المخازن .42 - 80 - 81 - 86 - 87
- .95 - 91 - 88 - 163 - 191

- وادي ماضى .26 - .58
- وادي نول .21
- وادي النجاة .64
- وهران .49 - .186

حرف (ي)

- ينبع التخل .3 - .5

- كتى .103
- كوكو .99

حرف (م)

- مالي .99 - .100
- المدينة .41 - 6 - 150
- المدينة البيضاء .179
- المحملية .180

- مراكش .4 - 11 - 14 - 15 - 16 - 20 - 21
- .24 - 26 - 28 - 32 - 33 - 35 - 37
- .39 - 48 - 50 - 55 - 57 - 64 - 65
- .66 - 67 - 68 - 73 - 78 - 79 - 81
- .86 - 87 - 91 - 93 - 94 - 96 - 97
- .98 - 105 - 110 - 116 - 117 - 121
- .126 - 130 - 131 - 143 - 165 - 166
- .170 - 172 - 175 - 176 - 177 - 178
- .180 - 181 - 183 - 185 - 186 - 187
- .189 - 190 - 191 - 192

مرسى تطاوين .96

مرسى طنجة .49

- المسجد الجامع بحومة باب كونة
- بمراكش .117
- .125 - 126 - 142 - 164

المسرة .125

- المشتني .125 - 142 - 164
- .101 - 102 - 31 - 115
- .13 - 14 - 15 - 16 - 17 - 18 - 19 - 20 - 21 - 22 - 25 - 28 - 30 - 31 - 32
- .34 - 36 - 49 - 50 - 55 - 61 - 62 - 63 - 66 - 68 - 69 - 70 - 82 - 85 - 88 - 89 - 95 - 98 - 100 - 114 - 125 - 126 - 131 - 145
- .105 - 114 - 125 - 126 - 131 - 145